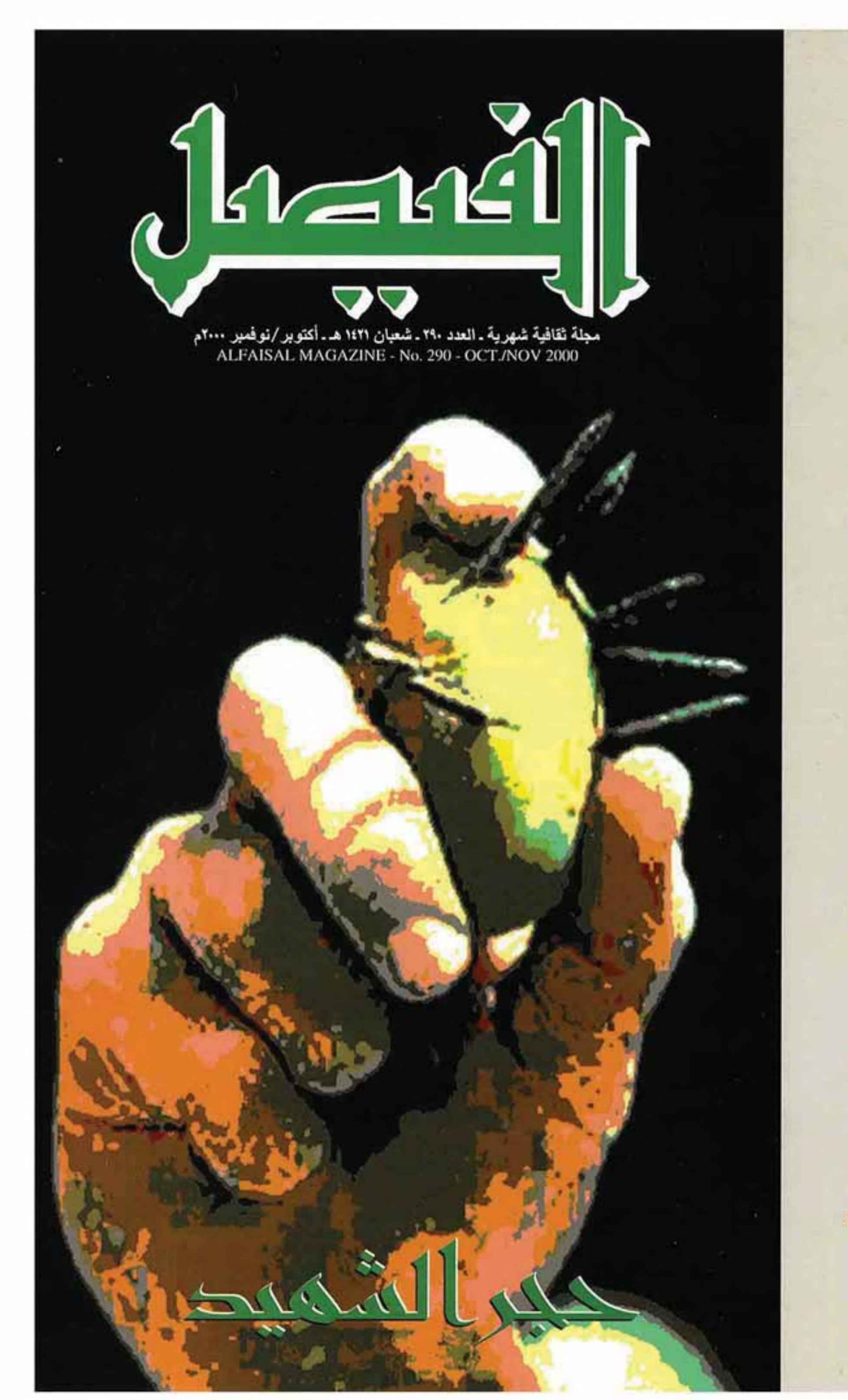


- الظاهرة السدودية في الطائف
- نائر سماوي
- الحضارة الإسلامية وحقوق الإنسان
- ملامح من الفن الحديث بيودابست
- مجتمعات القرود في الجزيرة العربية
- في مفهوم الحداثة
- الفراشات الخفية تكشف أسرار الدماغ

شـــركـة واحـــدة فـقـــط
تـوفــّـر لـك كـل هــذه الـخـدمـات

REDIAL

ABC
النقل بين المـدن

DEF
الخدمات المحليـة

النـقـل الـدولـي

JKL

MNO
خدمات الحج والعمـرة

GHI
العقـود و التأجير

TUV
النـقـل المدرسي

WXYZ
البـرامـج السياحية

PQRS
الخدمـة المميزة

الشــركـة الـرائـدة فـي مجـال النقـل البـري تـوفـر خـدمـات متعـددة لكافـة الأغـراض ، لمســة واحـدة فـقـط وتحصـل علـى الخدمـة التي تحتـاجهـا.

اتصل مجاناً على الرقم ٩٩٩٩ ١٢٤ - ٨٠٠





الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

رسائلكم ٤

تحقيق مصور

الظاهرة السدودية في الطائف — حمّاد بن حامد السالمي ٦

تاريخ وحضارة

زائر سماوي — خالص جلبي ١٧

الحضارة العربية الإسلامية وترسيخ مبادئ حقوق الإنسان — عبدالواحد ذنون طه ٢٣

إدارة

المشاركة في اتخاذ القرار — خالد بن سعيد السحيم ٢٨

فنون

في متحف الفنون الصناعية ببودابست: ملامح من الفن الحديث — ثائر صالح ٣٣

آثار

حجر رشيد: انفتاح بعد الظلام — إيهاب فاروق محمد أحمد ٣٧

من عالم الحيوان

مجتمعات القرود في الجزيرة العربية من التماسك إلى الانحلال — أحمد إبراهيم البوق ٤٢

مصطلحات

في مفهوم الحداثة — شلتاغ عبود ٤٩

أدب ولغة

مسرحية هاملت بين فرويد والحكيم — مصطفى العدوي ٥٨

المعجم الآلي: أهميته وسبل تطويره — أحمد محمد المعتوق ٦٠

عادات

صناعة الشمة في اليمن — حمود علي منصور ٦٥

علوم

الفراشات الخفية تكشف أسرار العقل والدماغ — محمد حسن بدر الدين ٧٣

قسَم الأطباء عبر الزمان — محمد مصطفى السمري ٨١

القمر والحياة البشرية — مجدي يوسف أمين ٨٥

قصائد

الخَطا — محمد زايد الألمعي ٨٩

لا عذر!! — سلمان بن زيد الجريوع ٩٠

قصص قصيرة

القميص المنحوس: تاكاشي أتودا — ترجمة: سارة تاكاهاشي ٩٢

الحجر — محمد قاري ٩٤

أعلام

وداعاً كروان القَرارة — لماركية نوار ٩٧

سعادة لا نهائية: بورخيس يشرع أبواب المكتبة الكونية: ألبرتو مانجويل — ترجمة: فائز أبّا ١٠١

المسابقة ١٠٧

رحلة في كتاب

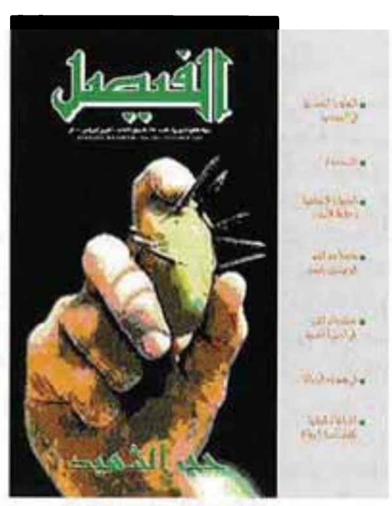
رحلة الرمال: أندرو تايلور — مراجعة: سلطان سعد القحطاني ١٠٩

ردود وتعقيبات

تصويبات واستدراكات حديثية — محمد نجيب لطفي ١١٧

قراءة في سمفونية الألم - التاريخ محوراً — ابتهال العبدالله ١١٨

الملف الثقافي ١٢١



حجر الشهيد

الحجر أم الدبابة؟ الحجر أم الصاروخ؟ حجر الإرادة أم دبابة الإدارة؟ لا يهم، فـفلسطين علمتنا دائماً أنها القضية الأم؛ الأم التي تحنو على أبنائها العرب وفي ظهرها مليون رصاصة.. الأم التي تنجب الأطفال والأحجار معاً.. حجر يستشهد وطفل يوجه إلى قلب العدو.. من يعلق الجرس؟ هذا هو السؤال.. عفواً هذا هو الغلاف!!

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:
١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ـ٠٢٥٨

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة السعودية للتوزيع ـ هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢)، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٠٠٢٠٢، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٠٠٩٦٣، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٠٠٢١٦، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦٦٢٨٢ ـ فاكس ٦٦١٨٦٥ ـ ٠٠٩٧٤، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٠٠٩٦٢، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٥٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٠٠٩٧١، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة. ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٠٠٢١٣، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٠٠٩٦٥، السودان شركة النحوي للتجارة والتوزيع ص.ب ١٠٣٧١ ت: ٧٧١٥٤٧/٢٧ فاكس ٧٧٤٣٣٦، المغرب ـ CAS - SOCHPRESS - CAS ـ ٢٤٥٧٤٥ CASABLANCA - MOROCO TEL: فاكس ٢٤٠٤٠٣١/٣٢ ـ ٠٠٢١٢، باكستان ٥٦٨٣٤٩٤ PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL: فاكس ٥٦٨٢٧٠٤ ـ ٢١ ـ ٠٠٩٢، الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع ت: ٢١٨٦١٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧ فاكس ٢٢٢٣٢٨، سلطنة عمان ـ المتحدة لخدمة وسائل الإعلام ـ ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت: ٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ ـ فاكس ٧٠٦٥١٢ ـ ٠٠٩٦٨

مطابع هلا
٤٨٢١٣١٣



كتاب لا مجلة

أرجو ألا أكون قد سببت لكم أي إزعاج برسالتي، وأرجو أن تقبلوني صديقًا لمجلتكم الغراء مجلة الفيصل الشهرية التي لا أعدها مجلة كغيرها من المجلات، ولكني أعدها كتاباً قيماً وشائقًا، إذ تبدو نوراً وسط هذا الظلام الدامس الذي يخيم على الوطن العربي. فعندما أدخل المكتبة لأشتري كتاباً أو مجلة أرى المكتبة تزخر بالكثير من المجلات ولكنها يا للأسف ليست إلا خواء، فتراها مزدانة بالورق المقوى والملون والجذاب، ولكن محتواها ليس إلا مضيعة للوقت والعقل، فتراها لا تهتم إلا بأخبار الأزياء والماكياج والفنانين والمطربين العرب والعالميين، وأخبار أخرى لا أهمية لها، ولكن يا للأسف أصبحنا نحن العرب نقلد الغرب أبشع تقليد .. عذراً أيها الأخوة الأعزاء إذا جنحت، ولكنها الصراحة فندعو الله تعالى أن يشد سواعدكم ويكثر من أمثالكم، وتكونوا عند حسن الظن، كما عهدناكم إخوة أعزاء. فالكلام كثير، ولا أريد أن أطيل عليكم، ولكن سوف يكون لي رسائل أخرى.

وفي الأخير لدي اقتراح وهو أن تهتموا بالأبحاث والأخبار المتعلقة بالفضاء والرحلات والاستكشافات التي يقوم بها العلماء والرواد في الفضاء الخارجي إذا أمكن. ولا سيما أن أول رائد فضاء عربي كان من المملكة العربية السعودية.

واصل حامس أحمد
الجمهورية اليمنية ـ صعدة ـ ص.ب ٩٠٢٣٧

التحرير:
نشكر لك هذا الإطراء الذي يحملنا كثيراً من المسؤولية، وسوف تكون اقتراحاتك محل اهتمامنا، علماً بأن عناية المجلة بموضوعات العلوم كبيرة، إذ يفرد لها في كل عدد صفحات محددة، يراها بعض القراء أكثر مما يجب، ولكن مهما اختلفت الأذواق، فإننا لا نكلّ عن السعي لإرضاء أكبر عدد ممكن من القراء الأعزاء.

عودة بعد انقطاع

يكفي هذه المجلة فخراً أنها تحمل اسم أحد أعظم ملوك الوطن العربي الملك فيصل بن عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ ويكفيها فخراً أنها تصدر من أرض الوحي. تلك المجلة التي تزدهر يوماً بعد يوم.

فقد أصبحت مجلة الفيصل منبراً وزاداً فكرياً ينتظره المثقفون ومعيناً لا ينضب من العلوم والمعارف.

كنت مداوماً على اقتنائها فور وصولها ولكنني ـ ولأسباب كثيرة ـ تركتها مكرهاً، وأعني ذلك الانقطاع الذي امتد من العدد ٢٦٨ إلى العدد ٢٨٣، وكم كانت فرحتي كبيرة عندما التقيت حبيبتي «الفيصل»، وجاء اللقاء بعد الفراق، وكانت فرحتي أكبر عندما وجدت التجديد في المجلة وخاصة بعد فتح المجال للأقلام الشابة. ولكن لدي عدد من التساؤلات التي آمل كما عودتنا الفيصل الرد عليها وهي:

ـ غياب المقال الشهري لرئيس التحرير على الصفحات الأولى.

ـ حذف زوايا جميلة وماتعة كان لها الفضل في تعريفنا بتراثنا العظيم وبعلمائنا وأدبائنا الأقدمين مثل زاوية «من نوادر التأليف» و «دائرة المعارف».

ـ في المسابقة الثقافية تمت زيادة الأسئلة، وقُلصت الجوائز، مع أن الجوائز الحالية قد ازدادت قيمتها المالية، وقد حذفت عدة جوائز والتي هي مجموعة كتب من إصدار دار الفيصل الثقافية.

أرجو لرسالتي هذه أن تجد مكاناً لها في صدركم الرحب الفسيح.

محمود علي حبار
كلية الآداب ـ جامعة حلب ـ سورية

التحرير:
نشكر لك الإشادة بما حدث من تجديد كما تقول، ونحترم ما أبديته من ملاحظات، وكما تعلم فإن التطوير يتطلب إلغاء بعض الأبواب وإضافة غيرها، وقد فضلنا أن نتيح المجال لأكبر عدد من الكتّاب للمشاركة بالكتابة في المجلة، وتم إلغاء كثير من الأبواب الثابتة ومن بينها مقالة رئيس التحرير، والأبواب الأخرى التي ذكرتها. وترقب ما سيطرأ على المسابقة من تجديد في القريب إن شاء الله.

تصحيح

بعد مطالعتي العدد ٢٨٦ من مجلة الفيصل أعجبني كثيراً موضوعها وتنوعها وطرحها ولكم الشكر الجزيل.

كما أني لاحظت خطأً بسيطاً في موضوع «ريتشارد بورتون: رحلات في بلاد العرب» وهو في ص٩٣ في الصورة المنشورة، إذ أشير إلى صورة عبد الحميد بن باديس مؤسس جمعية العلماء المسلمين على أنها لعبدالقادر الجزائري. آمل تصحيح هذا الخطأ.

عابد عبدالحق
الجزائر

التحرير:
نشكر لك اهتمامك بتصحيح هذا الخطأ، آملين ألا يتكرر مثله في زحام العمل.

الجامعات المفتوحة

أريد أن أشكركم على الأعداد التي وصلتني وما رافقها من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية، ولا أجد ما أقوله سوى التمني لكم بالمزيد من التقدم.

ويسعدني كثيراً أن أكون صديقة متتبعة ودائمة إن شاء الله. فاهتمامكم الرائع برسائل الأصدقاء والمحبين للمجلة يؤكد مدى حرصكم على الترابط..

ولقد سمعت من قبل عن الجامعات المفتوحة، ولكنني لم أكن أعرف كيفية التواصل معها. وجاءتني الفكرة عندما طالعت في العدد ٢٨٨ «أضواء على مسيرة التعليم المفتوح والتعليم عن بعد» بالتوجه إليكم مباشرة لتزويدي ببعض عناوين هذه الجامعات. وكلي أمل أن يلقى طلبي هذا صدى في نفوسكم.

وفي الختام لكم المحبة والشكر وأن يستمر عطاؤكم المتجدد بإذن الله تعالى.

فايزة حسن علي باحسن
الجمهورية اليمنية ـ الحديدة ـ ص.ب ٤٧٣٤

التحرير:
التواصل بين المجلة وقرائها أمر يستوجبه التطلع إلى تقديم الأفضل للقراء الأعزاء الذين هم هدف المجلة، للاستئناس بآرائهم وأفكارهم، أما بخصوص طلبك عناوين بعض الجامعات المفتوحة، فإننا ننصحك بالاتصال

برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم التنموية الإنمائية لاهتمامه بهذا الموضوع برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبدالعزيز الذي يتبنى شخصياً فكرة إنشاء جامعة عربية مفتوحة تستفيد منها كل الدول العربية، وعنوان البرنامج:

ص.ب ١٨٣٧١ - الرياض ١١٤١٥ - هاتف ٤٤١٨٨٨٨ - ٩٦٦١ - فاكس ٤٤١٢٩٦٢ - ٩٦٦١

بريد إلكتروني: Primedia @ Agfund. org

web site: www. agfund. org

عناوين الإذاعات

يسرني أن أتقدم بأطيب التهاني القلبية وأحرها لكل موظفي المجلة.

ورداً على أحد القراء في العدد ٢٨٢ الذي طلب منكم تزويده بعناوين إحدى الإذاعات فإنني - وبحكم عملي - أتابع أكثر من ١٥٠ إذاعة عالمية وإسلامية وعربية، وأنا على أتم استعداد لتزويد كل قارئ لمجلة الفيصل الغراء بعنوان أي إذاعة في العالم، وذلك خدمة مني للفيصل الغراء، وقرائها الكرام.

م. أحمد محمد الإبراهيم
حلب - ص.ب ١٩١١٥

التحرير:

نشكر لك هذا الاهتمام بتقديم المساعدة لقراء المجلة، ونأمل من الأخ القارئ الباحث عن عناوين الإذاعات الاتصال بك على عنوانك.

بحثاً عن الأفضل

من حق «الفيصل» المجلة الكريمة علينا جميعاً الإجلال والتقدير للدور الذي أدّته وما تزال تؤديه منذُ ما يقاربُ ربع قرن حتى غدت شعلة تنير للجيل ظلمة الطريق، وتدله على معالمها. إلا أنه من حقنا على «الفيصل» أن ندين لها بما يزيد من عُرا التواصل معها، ويديم التناغي بيننا بحثاً عما هو أفضل وأجمل وأكمل بين الحين والآخر.

ولي هنا ثلاثُ ملاحظات أرى ضرورتها الملحة لاستعادة ما تبقى من نضارتها وحيويتها والكمال لله سبحانه:

الأولى: بابُ دائرةُ المعارف مازال يشغرُ منذ استغنيتم عنه، وفي تقديري أنه فصل مهم عودتمونا عليه، وتكاد الفيصل تتميز من خلاله بين زميلاتها ورفيقات دربها.

حبذا - وقد طال غيابه عنا - المبادرة إليه بحثاً عن الروعة والرصانة والتجديد.

الثانية: باب نباشير، وقد أدى جانباً من رسالته في رعاية المواهب الشابة غاب هو الآخر ولم يكمل مسيرته المنشودة. فحتى متى ينتظر هؤلاء الواعدون؟

الثالثة: باب المسابقة مع أنه باب حيوي أعاد إلى مجلتنا بعض روعتها التي تبحث عنها وهي تتنقل نقلتها الثانية أو الثالثة كما يشاؤون.

مازال هذا الباب لم يؤدِّ حقه المنشود؛ فنمطية المسابقة تعاني من: عدم تنوع في الأسئلة إلى حدٍّ ما، وكذلك عدم دقة في وضع الخيارات، وعلى سبيل المثال في السؤال الأول من العدد ٢٨٥ «الزمندار» وضعتم له خيارين لا أرى لهما مسوغاً. بل جاءا مموّهين معاً. فلا صحة لهما ولا انتساب للصحة في أحدهما على الأقل! فالزمندار هو من يقوم ويكلف برعاية حالات الإزمان والمزمنين رعانا الله وإياكم وعفا عنّا وعنكم!

فأين الكتب والمخترعات والمحاصيل والأحداث والآثار والمعالم العربية والعالمية.

أين الهيئات والمنظمات والصحف والنوادي والجامعات من مسابقتكم التي أدرجتم منذ عام ونيف؟!

أرجو أن تعيدوا النظر فيما أوردتُ لكم وكل ما يسهم في تطوير «الفيصل». والله الموفق لكل خير.

عبدالغني محمود عبدالهادي
ص.ب ٨٥٤٥ - عمّان ١١١٢١ - الأردن

التحرير:

نشكر لك اقتراحاتك وأسعدتنا صراحتك في طرح الآراء، وعملاً بحرية الرأي، فإننا سننظر إلى هذه الاقتراحات بعين فاحصة لنستفيد منها في تطوير أبواب المجلة. علماً بأنه لا يمكن لأي مجلة مهما فعلت أن ترضي أذواق جميع قرائها.

ردود سريعة

الأخت نادية شعيبي - ممثلة جمعية المعرفة - جيجل - الجزائر:

نشكر لك هذا الاهتمام والمتابعة لأعداد «الفيصل»، وسوف نعمل على حل مشكلة تأخر وصول المجلة إلى السوق الجزائرية، مع النظر في زيادة الكمية.

الأخ إسماعيل حامد إبراهيم - البحرين:

ملاحظاتك حول المسابقة محل تقديرنا، وهناك نية لتطويرها لإرضاء معظم الأذواق، ولزيادة أعداد الفائزين بجوائزها. وكما لاحظت فقد تم حل مشكلة وجود مادة خلف صفحة المسابقة، ويسعدنا كثيراً أن نتلقى رغبات الإخوة القراء وملاحظاتهم القيمة التي تجد منا كل الاهتمام والعناية.

الأخ محمد جاسم الخضاري - حمص - سورية:

نقدر لك حرصك على إبداء إعجابك بالمجلة في خطاب لم يتضمن غير مشاعر التقدير والامتنان، مما يحملنا مسؤوليات كبيرة لنكون عند حسن ظن أمثالك من القراء، فنأمل أن نتعاون سوياً في تحقيق مزيد من التطور والتقدم.

الأخ عبدالعزيز سعداوي - كتلة ٣١٤ - رقم ٧٧ - حي الأمير عبدالقادر - تغرت ٣٠٢٠٧ ولاية ورقلة - الجزائر:

لا تتوافر لدينا عناوين الخطاطين الذين أشرت إليهم، ولما لمسناه من حرصكم على هذه العناوين، فإننا ننشر أسماء الخطاطين الذين ذكرتهم لعل أحد القراء يستطيع مساعدتك ومخاطبتك بهذا الشأن على عنوانك الذي أوردناه كاملاً، وهؤلاء الخطاطون هم: الشيخ عبدالرحيم أمين، وعثمان طه، وأحمد ضياء، وصالح بن سعد الصميت.

الأخت كوثر العشاب - طنجة - المغرب:

نرحب بك قارئة وكاتبة، والمجلة - كما تتابعين - تنشر كثيراً من المقالات التي تتابع أحدث ما في هذا العالم من أفكار، وآراء في ميادين الفكر والأدب والعلم والفن، ويمكنك من خلال المتابعة تحديد طبيعة الموضوعات التي تستطيعين أن تسهمي فيها، ولا مانع من كتابة المقالات بخط اليد مادامت واضحة.

الظاهرة السدودية في الطائف

إعداد وتصوير: حمّاد بن حامد السالمي
الطائف - السعودية


سد قرّة

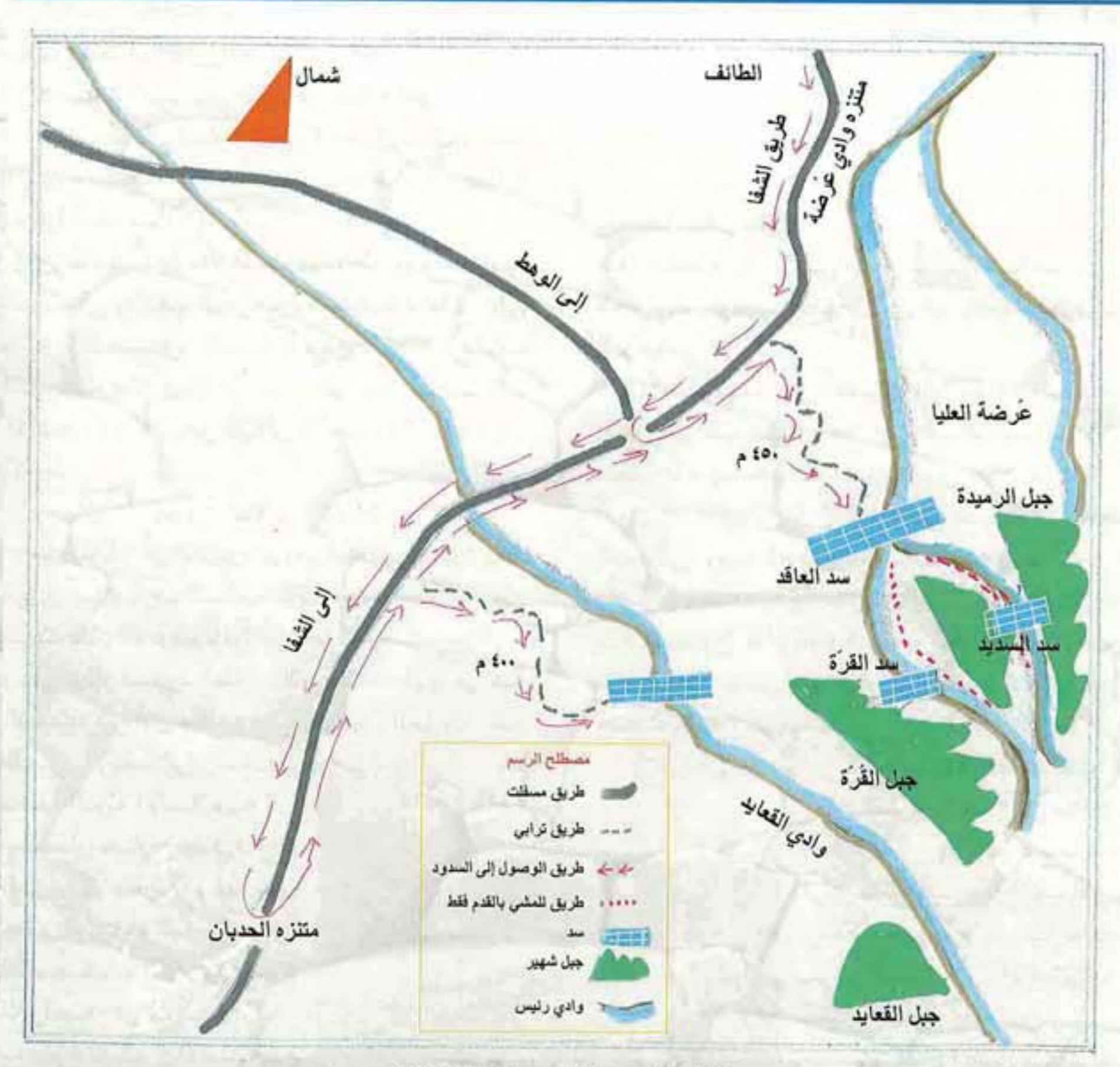
هل أصل ذات يوم إلى اكتشاف السد رقم ٧٠؛ في منظومة سدود الطائف التاريخية* التي ظل أكثر من خمسين سداً منها مجهول المكان حتى اليوم..؟!

خطر هذا السؤال ببالي كثيراً، وأنا أتنقل بين ثلاثة جبال كبيرة في عُرضة العليا؛ في الطرف الجنوبي الشرقي من الطائف هي: الرِّميدة، والقرَّة، والقعايد، فبين أكتاف هذه الجبال، وعند سفوحها اكتشفت أربعة سدود تاريخية - ثلاثة منها سليمة تماماً - يعود تاريخ إنشائها إلى تاريخ إنشاء أعظم منظومة سدود في تاريخ الدولة الإسلامية وأكبرها، هي منظومة سدود الطائف التي بلغ عددها ٧٠ سداً جميعها أنشئت في النصف الثاني من القرن الهجري الأول في عهد الدولة الأموية التي امتدت من سنة ٤١هـ حتى ١٣٢هـ.

السد والسدود في القرآن واللغة والتاريخ

ورد ذكر السد في القرآن الكريم أربع مرات، في أربعة مواضع، في ثلاث آيات في سورتين: هما: «الكهف»، و«ياسين» على نحو: سداً ٣ مرات، والسدين مرة واحدة(١).

والسد في اللغة: إغلاق الخلل، وردم الثلم. حكى الزجّاج قال: ما كان مسدوداً خلقة فهو سُدّ -



الظاهرة السدودية في عرضة العليا بالطائف

بضم الأول، وما كان من عمل الناس فهو سَدّ بفتح الأول. وهما بالضم والفتح الجبل والحاجز(٢).

والسد عائق يبنى في مجرى النهر عمودياً على مجراه في الموقع الذي تسمح الطبيعة الطبوغرافية بتخزين المياه فيه، وتحدد الأمور الطبيعية ونوع التربة والمواد طريقة إنشاء السد(٣).

وخلافاً للسدين اللذين بلغهما ذو القرنين بمنقطع أرض بلاد الترك؛ وهما جبلان؛ والسد الذي أقامه دون قوم يأجوج ومأجوج،(٤) لم يصلنا خبر عن أقدم سد على وجه الأرض، خلاف سد مأرب المشهور الذي شيّد باليمن قبل الإسلام بزمن طويل، لكنه تداعى مع سيل العرم الذي تفرقت على أثره القبائل العربية من جنوب بلاد العرب إلى جهات الشمال والشرق والغرب، كما يحدثنا بذلك التاريخ القديم، وهذا السد هو من السدود الصماء، كان حائطاً ضخماً طوله من الشرق إلى الغرب نحو ٨٠٠ ذراع، وارتفاعه ١٠ أذرع،(٥). وهو السد الذي شرع ببنائه أحد مكربي سبأ واسمه: سمه علي

نيف، وذلك في القرن السابع قبل الميلاد، ولم يكتمل إلا في عهد شهر يهرعش، في نهاية القرن الثالث للميلاد، ثم ظل قائمًا حتى قبيل الإسلام، وعدّ انهياره نكبة كبيرة وضرب بسقوط المثل، فقيل: تفرقوا أيدي سبأ(٦).

إن بناء السدود والاهتمام بها، ضرورة لجأ إليها العرب في بلادهم الجنوبية والشمالية للتغلب على ظاهرة التصحر، والتخفيف من حالات الجفاف التي عرفت بها بلادهم، وهي بلاد لم تعرف الأنهار، ولا هي من البلدان الاستوائية الغزيرة الأمطار.

سدود الطائف التاريخية

من المؤكد أن الجزيرة لم تعرف بناء السدود بعد انهيار سد مأرب السالف الذكر، فلما جاء الإسلام كانت بلاد العرب خلواً من هذا النمط العمراني، وعلى هذا؛ فسدود الطائف التي نتكلم عليها في هذا البحث؛ هي أول ما عرفته الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام؛ وامتداد سلطة الدولة الإسلامية إلى أمصار خارج حدود بلاد العرب الأصلية، وهذا يدلل على أن بناء السدود للاستفادة منها في قطاع الزراعة؛ فن ظهر وازدهر مع بلوغ الفتوح الإسلامية ذروتها، في أمصار إفريقية ورومية وفارسية. وفي هذا العهد؛ توافر للقبائل العربية قدر من الاستقرار بعد التناحر والتحارب والارتحال، واطلعوا على معارف وفنون جديدة لم يعهدوها من قبل. ولهذا رأينا أن العصر الأموي كان من أظهر عصور الدولة الإسلامية اهتماماً بوسائل تنمية الزراعة وتطوير سبلها. فتذكر روايات شبه مؤكدة(٧)؛ أنه كان بالطائف حتى عهد غير محدد نحو: سبعين سداً تاريخياً أثرياً، يعود معظمها إلى عهد بني أمية، ويستدل على ذلك؛ من نقوش ومحفورات حجرية غير منقطة؛ ترمز إلى السنوات التي سبقت عهد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أمر بتنقيط الحروف العربية.

وهذه السدود، على أهميتها التاريخية، مجهولة المكان إلى حد كبير، فحتى وقت قريب؛ لم يكن معروفاً منها عند الباحثين سوى عدد قليل، من أهمها، على سبيل المثال: سد سيسد، وسد السملقي، وسد العقرب، وسد ثلباء، وسد داما، وأخرى وصلت إليها دورية «أطلال» السعودية، تبلغ مجموع ما وثقته في بحوثها: ١٣سداً(٨). وكان الظن حتى هذا الوقت أن بقية السدود قد تهدمت كلها.



سد عكرمة

٩ سدود يكتشفها الباحث

إن الفارق الكبير بين ما هو معلوم المكان وما هو مجهوله في مسألة سدود الطائف التي تتحدث عنها المصادر التاريخية بكثير من الفخر والاعتزاز؛ شغلني كثيراً في السنوات التي مضت، مما دفعني إلى المزيد من البحث والتنقيب، ليس في بطون الكتب وحدها، ولكن في بطون الأودية والشعاب، وفي منحدرات الهضاب والجبال التي تغذي أودية مشهورة، أو ما كانت في سابق الزمان مزارع معروفة.

كانت البداية من وادي عُرضة - عرضة الوسطى والسفلى - فقد وصلت، سنة



سد العاقد

١٤٠٨هـ مصادفة، إلى سد كبير متماسك يقع عند وادي قريقير، فسميته «سد قريقير»، ووجدت بجانبه نقشاً غير منقط، والسد يعدّ في أهمية سد سيسد إن لم يتفوق عليه. وفي السنة نفسها؛ وصلت إلى سد في وادي رحاب، يطلق عليه السكان هنا «سد وديمة»(٩).

وفي سنة ١٤١٦هـ، وصلت إلى ثلاثة سدود تاريخية، في وادي أم البكار جنوب الطائف، لم تكن معروفة من قبل، وأطلقت عليها حسب مواقعها: سد الأحيمر، وسد سويس الأعلى، وسد سويس الأسفل، وكتبت عن ذلك بحثاً مفصلاً ومصوراً في هذه المجلة(١٠). ويأتي هذا الكشف في هذا البحث؛ ليضيف إلى ما سبق: (٤ سدود) لم تكن معروفة من قبل، ولهذا الكشف أهمية كبيرة لا تتوقف عند حد معرفة المزيد من سدود الطائف السبعين فقط؛ وإنما تزيدنا معرفة بالإستراتيجية التي قامت عليها هذه السدود متقاربة أحياناً، ومتباعدة أحياناً أخرى، والخصوصية التي أعطتها الدولة الأموية للطائف، في مثل هذه الإنشاءات التي لم تعطها غيرها من الأمصار ولا البلدان في الجزيرة العربية.

لماذا الطائف..؟!

نعم.. لماذا اختصت الطائف وحدها من بقية أنحاء الجزيرة العربية بهذا العدد من السدود التي بنيت على عدد من أوديتها في ظرف نصف قرن تقريباً؟

إن أولَ إشارة تاريخية تحدد زمن بناء سد من هذه السدود التاريخية بالطائف التي ذُكر أنها ناهزت السبعين سداً؛ جاءت ضمن نقش حجري على صخرة ملساء عند الطرف الشرقي من سد «سيسد»، الواقع على وادي سيسد على بعد نحو ٢٠ كيلاً شرقَ الطائف. ينص النقش على بناء السد سنة ٥٨هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه(١١). وبقية السدود الأخرى بها نقوش غير منقطة، وأخرى تحمل صفات إنشائية، وخصائص

مشتركة مع سد سيسد، وهذا يستدل به على التزامن في إنشاء هذه السدود وقيامها.

وإذا أخذنا في الحسبان تاريخ الطائف العريق، وقربها الجغرافي، بل التصاقها وارتباطها بمكة المكرمة منذ العصر الجاهلي، ثم عرفنا الدور الذي كان لأبناء ثقيف في تاريخ الدولة الإسلامية؛ من فتح الأنصار، وتولي كثير منهم الولايات في الجزيرة العربية وخارجها، وبروزهم في مراكز ومناصب عليا في أعمال الدولة الأموية، إذا وقفنا على هذا أو على بعضه؛ وصلنا إلى بعض الأسباب التي جعلت خلفاء الدولة الأموية يولون الطائف كثيراً من العناية والاهتمام، ومن هذه العناية وهذا الاهتمام؛ أن خُصت الطائف بهذا العدد الكبير من الإنشاءات العمرانية الزراعية، المتمثلة في السدود السبعين هذه.

هذه رؤية توصلت إليها بعد كثير من النظر فيما سبق، وفي دلالات ثلاث ظواهر سدودية في عرضة الوسطى، وعرضة العليا، ووادي أم البكار(١٢). فالأسباب وراء هذا الاهتمام بالطائف - من وجهة نظر شخصية - لا تخرج عن الآتي:



طبيعة برية جذابة حول السدود في عُرضة العليا

أولاً - المكانة الكبيرة التي كانت عليها الطائف في المجالين السياسي والعسكري، ففي الجاهلية كانت الطائف وثقيف مقابل مكة وقريش، وفي صدر الإسلام جاءت الطائف دعامة لتثبيت الدعوة بعد ارتداد القبائل العربية وثبات ثقيف، ثم أصبحت منطلقًا لألوية الفتح إلى جنوب الجزيرة العربية ووسطها وشرقها، ومنها كان الولاة والحكام والقادة؛ في البحرين وعمان وحضرموت واليمن وغيرها.

ثانيًا - شكلت الطائف بعدًا جغرافيًا واجتماعيًا وإستراتيجيًا لمكة، وبرز هذا الدور أكثر مع بداية العهد الأموي، فقد ظلت مكة في حماية أمنية وغذائية ومائية



سد السَّديْد

من جارتها - الطائف، فمكة بلد غير ذي زرع، ومياه الشرب تأتيها من جبال الطائف من جبلي: «كرا وبرد» على وجه الخصوص، والفواكه والحبوب هي من الطائف، وتزايد أعداد الحجاج أظهر الحاجة إلى تنمية المصدر الغذائي وهو الطائف.

ثالثًا - تميز العهد الأموي بمشاركة فاعلة من الثقفيين وأبناء الطائف في إدارة الحكم، وكانوا هم الأكثر حضوراً في الفتوح وإدارة الولايات، وكان منهم الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي حكم العراق والحجاز وما وراء النهر حتى حدود الصين والسند وسمرقند برهةً من الزمن، وكان منهم محمد بن القاسم الثقفي الذي فتح بلاد السند.

هذا على سبيل المثال وإلا فالأعداد كبيرة، وكان من بين أشهر الصحابة والولاة الذين ارتبطوا بالطائف؛ الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، الذي آثر قضاء بقية عمره بالطائف، فتوفي ودفن بها سنة ٦٨هـ، وكذلك عمرو بن العاص والي مصر، فقد كان له أملاك وضياع بالطائف في الوهط، وكان يختلف إليها، بل يدعو الخلفاء إلى زيارتها، فقد زارها معاوية بن أبي سفيان وأعجب بها، ومن خلفاء بني أمية الذين زاروا الطائف وامتدحوها بعده سليمان بن عبدالملك، وهؤلاء القادة كان لهم - بلا أدنى شك - أثر كبير في محاباة الطائف والتوصية بالعناية بها، إضافة إلى دور أبناء ثقيف المتنفذين في الدولة، فهم بلا شك كانوا يحنون إلى ديارهم، ويخصونها بما هو مستطاع من باب الوفاء منهم، وهذه غريزة في كل البشر، وأرى أن الحجاج نهض بالدور الأكبر في لفت نظر الخلفاء إلى هذه البقعة، وإظهار أهميتها



أحد السدود الأثرية القديمة

وإبراز خصائصها التي لا تتوافر في بقعة مثلها في جزيرة العرب(١٣).

رابعًا - للطائف خصيصة جمالية تنفرد بها في الجزيرة العربية وهي جمال الطبيعة، واعتدال المناخ، ووفرة الخيرات، وكان هذا من أيام الجاهلية، حتى إن هذه الخصيصة كانت سببًا في تعرض الطائف لأطماع القبائل العربية ولغزوها في بعض الأحيان.

وهذه الميزة دفعت إلى تصوير الطائف على أنها قطعة من الجنة، أو أنها اقتطعت من الشام ووضعت بجوار مكة من أجل البيت الحرام. قال بذلك المؤرخون العرب القدامى، بعد أن رأوا الشام، فوازنوا بين الطائف وبين هذه البلاد الجميلة.

خامسًا - في الطائف كثير من العيون التي تنفجر من باطن الأرض، وفي الأودية المحيطة بمكة التي تأخذ سيولها من جبال الطائف، مثل وادي نعمان، ووادي نخلة اليمانية، والزيمة، وعيون مماثلة تسقي مكة وحجاج بيت الله الحرام، إلا أن هذه العيون وتلك، معرضة للجفاف إذا أبطأ نزول المطر، وللبقاء على مخزون مائي في هذه العيون، كان لا بد من توفير مصدر ري دائم من الأودية المحيطة والقريبة،

إعداد وتصوير: حمّاد بن حامد السالمي

وهذا سبب آخر يبدو وجيهاً في كثرة السدود حول الطائف؛ وانتظامها في مجموعات متكاملة على واد واحد أو على أكثر من واد.

هذه إذاً كل - أو بعض - الأسباب التي تراءت لي فيما خص خلفاء الدولة الأموية الطائف بهذا العدد الكبير من السدود الزراعية، بدليل أن الطائف لم تشهد بعد العصر الأموي أي اهتمام يذكر، لا في الميدان الزراعي؛ ولا فيما سواه من مناحي الحياة، بل على العكس من ذلك، تعرض الثقفيون مع ظهور الدولة العباسية للملاحقة والانتقام، فتفرقوا، وقلّ شأنهم، وانزوت الطائف وأهملت وتأخرت كثيراً، حتى عدّ سبب دمار سدودها ومزارعها إلى هذا الإيغال والتقصد في الإهمال والتهميش من قبل الحكام الذين أتوا بعد بني أمية.



تشكيل صخري ونقش ممسوح في طرف سد العاقد

الظاهرة السدودية الثالثة

إن من أودية الطائف المثيرة للدهشة حقاً؛ وادي عُرضة، فهو واد ليس بالكبير؛ ولكن تنتظمه مجموعة من السدود من أعلاه حتى أسفله، يقع هذا الوادي على الطرف الجنوبي الشرقي من مدينة الطائف، وبعده عن العمران لا يتجاوز الكيلين، فهو يأخذ سيوله من أشعب تتبطن جبال عرضة العليا منها: الرميدة، والقرة، والقعايد، وغيرها، وهذه أكبرها، ويتجه من الجنوب الشرقي شمالاً ثم شرقاً بمحاذاة طريق الطائف الشفا المسفلت من بدايته، ثم ينحرف بميل نحو الشرق فالشمال الشرقي، ويصب في وادي «ليه» عند سد «ليه» و«غدير البنات»، ملتقاه مع سيل وادي عرضة في حمى عوف.

وفي بحثنا السابق، تعرضنا للكلام على خمسة سدود على وادي عرضة من وسطه وأسفله، وهي: سد عرضة، وسد اللصب، وسد السلمان، وسد الدرويش، وسد قريقير(١٤)، ونأتي اليوم للكلام على اكتشاف جديد مثير على هذا الوادي يتمثل في (٤ سدود جديدة)، هي نتيجة إصرار على البحث والتقصي في جوانب هذا الوادي، وأود الإشارة إلى تأكيدات حصلت عليها من أكثر من واحد في هذه الناحية، تفيد أن هدماً وإزالة جريا لعدد آخر من السدود على وادي عرضة أيام العمل على شق طريق الطائف الشفا قبل سنوات خلت، وهذا أمر آخر يثير الدهشة في وادي عرضة وسدوده التي ربما لا تتوقف عند تسعة سدود..! ولكنه شيء مؤسف! وفيما يأتي أستعرض السدود الأربعة التي توصلت إليها:

سد القعايد

يقع السد على بعد ٤٠٠ مترٍ فقط من الطريق السريع المسفلت على يسار الصاعد من الطائف إلى الشفا، وقبل الوصول إلى متنزه الحدبان، والسد يقوم على واد كثيف الأشجار، فالأشجار تغطيه وتحجب عنه الرؤية، وإلا لأمكن مشاهدته من الطريق العام، فالوادي يأخذ سيله من شعب عريض واسع بين جبل الحدبان وجبل القرة، ويتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وفي منتصف الوادي يقوم السد معترضاً من الشرق إلى الغرب؛ على مخناق صخري؛ وينحرف الوادي إلى الغرب متجهاً نحو الوهط عبر عبارة تحت الطريق العام.

وهذا السد محكم البناء، متدرج في نظام بديع من



أحد شوارع الطائف

أسفل إلى أعلى على ثلاث درجات، ومجصص في معظمه، ويوجد له ردفان من حجارة قوية من طرفيه للحماية من الانهيار، كما يوجد مغيضان متقاربان في القمة، والسد مبني بكامله بحجارة كبيرة مترادفة بشكل لافت، أكبرها من أسفل، وقد قست إحداها فوجدتها كما يأتي: ٣ أمتار و ٢٠سم طولاً، ومتر واحد عرضاً، وعمقها إلى الداخل حيث كان هناك شق واضح في السد أمكن معه أخذ المقاس - ٨٠ سم، والسد من خلفه مطمور بالكامل، وجاءت مقاساته كما يأتي:

- الطول من أعلاه: ٤٠ متراً، ومن أسفله ١٨ متراً.
- الارتفاع من منتصفه: ٦ أمتار ونصف المتر.
- العرض الواضح للرؤية من أعلاه: ٤ أمتار و ٦٠ سم.

وسد القعايد بهذه المواصفات؛ هو من ضمن منظومة سدود الطائف السبعين، كما يشير موقعه على واد يسيل نحو الوهط والمثناة التي تنتظمها العيون المعروفة؛ إنه موجه إلى خدمة هذه العيون وكثير من هذه السدود التاريخية؛ في الجنوب والغرب والشرق حول الطائف؛ يدخل في إستراتيجية تأمين مياه الشرب للطائف ومكة عبر هذه العيون ومساربها تحت الأرض.

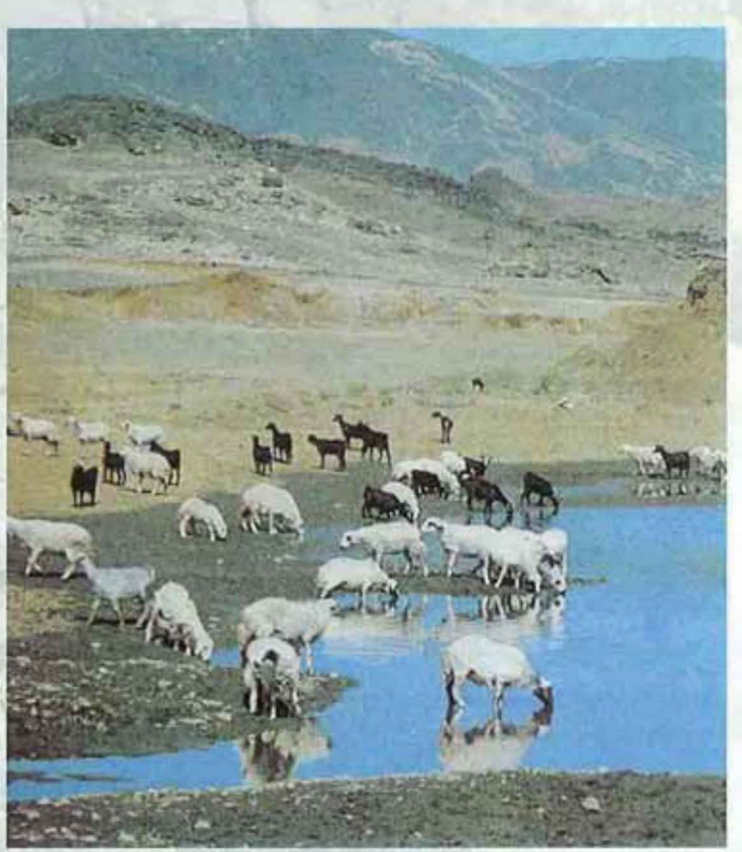
سد السُّدَيد

ننتقل من سد القعايد السابق ذكره متجهين شرقاً عن يمين الهابط من الشفا إلى الطائف عبر الطريق العام، وقبل الوصول إلى متنزه وادي عرضة؛ ننحرف يميناً لندخل في برحة تفضي إلى شعاب لا تصل إليها السيارات، والطريق البري المطروق بالسيارة لا يتجاوز طوله ٥٠٠ متر، ثم ندلف مشرقين مشياً على الأقدام صاعدين شعباً بين جبلين كبيرين، الجبل الشرقي عن يسارنا هو جبل

الرُّميدة، والجبل الغربي عن أيماننا هو جبل القرة، وبين هذين الجبلين وعلى مخنق مرتفع يقوم سد تاريخي أثري هو سد «السُّديد»(١٥)، على شعب يتجه من الجنوب إلى الشمال، ويتعامد السد مع اتجاهه من الغرب إلى الشرق، والسد مبني بحجارة صلدة قوية متراصة بشكل ممتاز، لم يسقط منها حجر واحد، ومن الخلف مطمور تمامًا. أما مقاساته فهي كالآتي:

- الطول من أعلاه: ٢١ مترًا.
- الارتفاع من منتصفه: ٤ أمتار و ٦٠ سم.
- العرض كما بدا فوق الردم: متر واحد و ٣٥سم.

وأسلوب البناء لا يختلف عن بقية تلك السدود حوله التي تشترك في خصائص أهمها: نوع الحجر، والتجصيص والأمغض، ولهذا السد مغيض أو ماجل، غربيه عبر الجبل لتفريغ الماء الزائد وتسريبه.


طبيعة خلابة ومراع خصبة

سد قرة

يقع هذا السد على بعد قرابة مئة متر فقط من سد السديد إلى الغرب منه، بعد صعود تبة مرتفعة، ثم نفيض إلى شعب آخر في منحدر جبل القرة يتجه من الجنوب إلى الشمال، فنجد سدًا في غاية الجمال، يتعامد مع اتجاه الشعب من الغرب إلى الشرق، وهو مبني بالطريقة نفسها لبقية السدود ، إلا أنه مرصوف بطريقة بديعة في مخنق صخري صلد، وخلفه طمر رملي، وله ماجل (مغيض) من شرقيه عبر الجبل وهناك طريق مرصوف يفضي إليه من غربيه، وفي أسفله صخرة ملساء بها آثار نقش قديم، يبدو من بقاياه لفظ الجلالة، وهو غير واضح بشكل تام. أما مقاسات هذا السد فوجدتها كالآتي:

- الطول من أعلاه: ١٧ مترًا.
- الارتفاع من منتصفه: ٥ أمتار و ٤٠ سم.
- العرض من حد الطمر: متر واحد و ٧٠سم.

سد العاقد

ومن هذا المرتفع في عرضة العليا، ننحدر مصوبين نحو الشمال في اتجاه نقطة بداية الصعود، حيث نجد أن كلا الشعبين اللذين يقع عليهما السدان «السديد وقرة»، يلتقي ويصب في مكان فسيح، يفضي هو الآخر إلى وادي عرضة صوب الشمال الشرقي، وعلى مخنق من هذا الموضع الفسيح؛ توجد بقايا سد كبير كان على ما يبدو مخزنًا لفائض السدين السابقين من أعلاه، وله هو الآخر ماجل (مغيض) من طرفه الشرقي إلى الوادي، وهذه إحدى الدلالات على وجود نظام زراعي متقن، ونظرة شمولية كانت تحكم منظومة سدود الطائف فيما سبق، وأنها لم تنشأ اعتباطًا، وإنما لأغراض

وأهداف محددة ومرسومة، ومنها، إلى جانب تنمية المزروعات؛ تغذية العيون والآبار، وتوفير مخزون مائي عذب لشرب السكان، وتوفير الرواة اللازمة لمصادر المياه التي تشرب منها الطائف ومكة.

هذا السد الرابع في الظاهرة الثالثة هذه، اسمه: سد العاقد، والعاقد عند الفلاحين هو البناء المرتفع المدعوم بالرمل من خلفه، ولكن هذا السد تعرض على ما يبدو للعبث، فهناك من سطا على جسمه، وفكك مكوناته، وأخذ معظم صخوره وحجارته، وما تبقى منه يتقاطع مع اتجاه الوادي من الغرب إلى الشرق، وقسته فإذا هو كالآتي:

- الطول: ١١١ متراً.
- الارتفاع - ارتفاع الجزء القائم فقط: متران و١٠سم.
- العرض: متر واحد و ٤٠ سم.

منطقة السدود.. متنزه بري

المنطقة المحيطة بهذه السدود الأربعة؛ منطقة شجرية، جميلة فيها أشجار الطلح والسدر والعرعر


سعد القعايد

والسعتر والشث والطباق والضرم والضرب والعتم والأثب وأعشاب برية مختلفة، إضافة إلى طيور برية كثيرة، وحيوانات في المرتفعات، وهي من المواقع الجديدة بأن تكون متنزهاً برياً عظيماً لأبناء الطائف والسياح، إذا وجدت من معالي محافظ الطائف الاهتمام المعهود فيه، ولاقت من بلدية الطائف الإقدام والسرعة في التنفيذ، بأن تفتح الطرق عاجلاً، وتهيئ المواقع التي لا تكلف أي مبالغ أو أي جهود إضافية كبيرة.

المراجع والهوامش

* سبق أن نشرت «الفيصل» للباحث نفسه تحقيقاً مصوراً بعنوان «الظاهرة السدودية في أم البكار ودلالاتها».

١. في سورة الكهف آية ٩٤: *على أن تجعل بيننا وبينهم سدا*. وفي سورة يس آية ٩: *وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا*. والآية الثالثة في سورة الكهف آية ٩٣: *حتى إذا بلغ بين السدين*.

٢. لسان العرب لابن منظور. مادة: (سدد).

٣. الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم، ١٩٦٥م. مادة: (سد)، وانظر كتابنا: ثراء الآثار في منطقة الطائف. الطبعتين الأولى والثانية، لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي بالطائف، ١٤١٦هـ.

٤. سورة الكهف. الآية المشار إليها في هامش١. وانظر صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٢هـ، سورة الكهف.

٥. الموسوعة العربية الميسرة. وكتابنا: ثراء الآثار في منطقة الطائف ص١٨.

٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام وجواد علي، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م جـ٢ ص٢٨٠ - ٢٨١.

٧. ما رأيت وما سمعت - سدود الطائف، خيرالدين الزركلي، مكتب المعارف، الطائف. وانظر كتابنا: ثراء الآثار في الطائف.

٨. أطلال، وزارة المعارف، العدد السادس ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٩. بحث منشور لي بمجلة الفيصل العدد ١٧٦. وآخر بجريدة الجزيرة العدد ٥٥٩٤ في ٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٠م. وانظر كتابنا: ثراء الآثار في منطقة الطائف ص١٠٨.

١٠. ثراء الآثار في منطقة الطائف ص١٨. ومجلة الفيصل العدد ٢٨٠ شوال ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١١. نص النقش مرتب بعدد الأسطر على الصخر هكذا: «هذا السد لعبدالله معوية - أمير المؤمنين بنيه عبد الله بن صخر - بإذن الله لسنة ثمن وخمسين - اللهم اغفر لعبد الله معوية - أ - مير المؤمنين وشده وانصره ومتع أ - لمؤمنين به كتبه عمرو بن حباب - (ر) حمت الله و - بركته على الحكم بن - وعلى محمد بن الحكم أمين - وعلى عبدالله بن محمد و - تاب الله عليه - صلى الله على ابن العلي أمين - عبدالله علي محمد بن سحاد أهد الله له وهداه». انظر كتابنا: ثراء الآثار في منطقة الطائف ص٢٩.

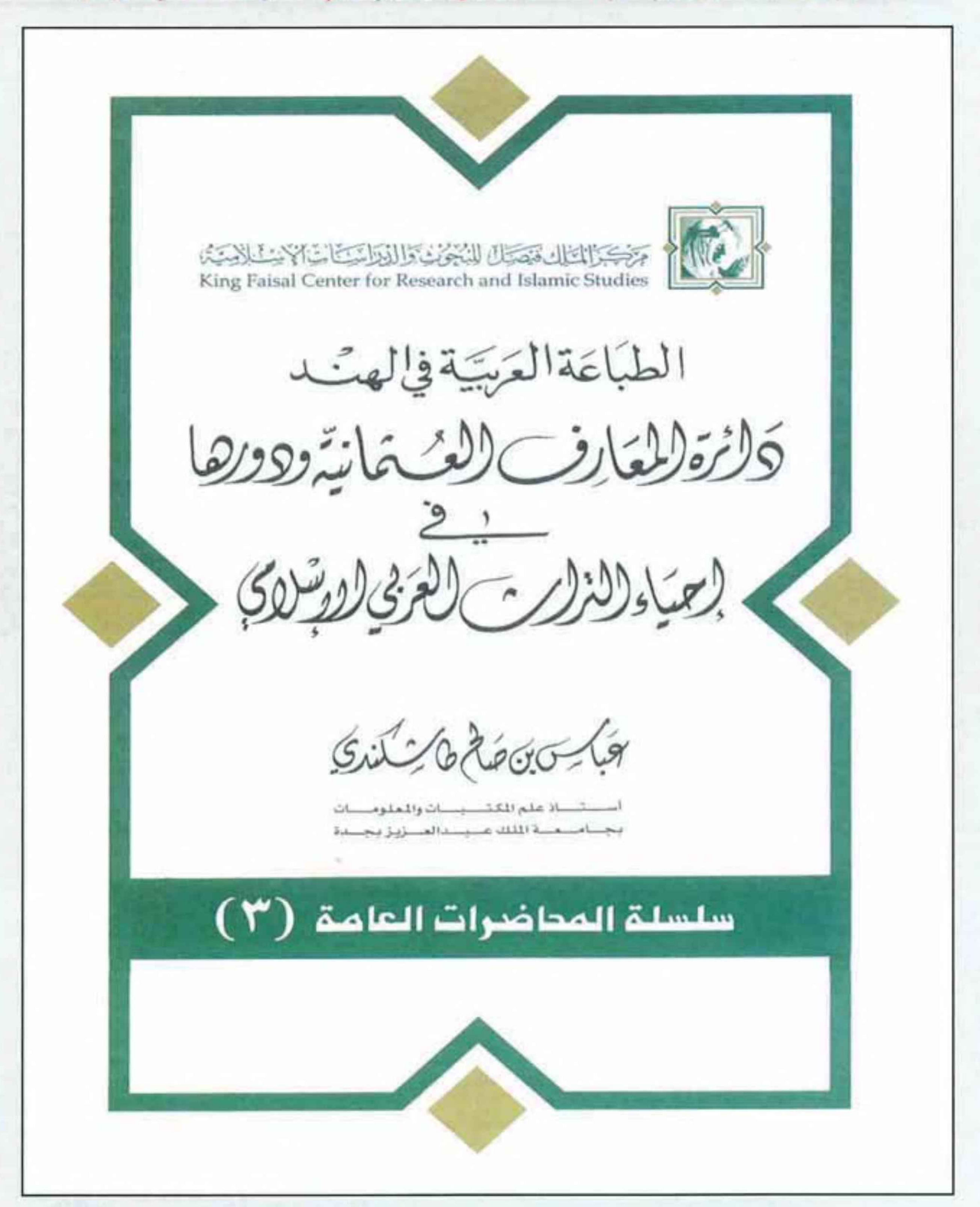
١٢. الظاهرة السدودية في وادي عرضة. بحث منشور في مجلة الفيصل العدد ١٧٦. والظاهرة السدودية في وادي أم البكار. بحث منشور في مجلة الفيصل العدد ٢٨٠. وهذا البحث يمثل الظاهرة السدودية الثالثة.

١٣. انظر كتابنا: الشوق الطائف حول قطر الطائف، لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي بالطائف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ. القسم الأول من ص١٣٩ إلى ص١٤٧. وفيه: كتّاب الرسول صلى الله عليه وسلم من ثقيف ٤٦ رجلاً. والقادة والولاة: ٣١ رجلاً. والمشاهير في العلوم كافة، ومنها الشعر ٧٠ رجلاً.

١٤. البحث المنشور في المجلة العربية العدد ١٧٦.

١٥. التسمية لهذا السد والسدين الآخرين بعده والجبلين هي للسيد محمد بن حمدون الحجي من سكان هذه الناحية منذ صغره. وهو الذي رافقني في الوقوف على هذه المواقع ما عدا الأول.

صدر حديثًا عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية



زائر سماوي

خالص جلبي
القصيم - السعودية

لو أتيح لزائر سماوي أن يمر على الأرض قبل ألف سنة(١) من غير أن يعرف أي لغة أو ثقافة أو دين، و تفقد الأرض والناس والوقت والعمل، فسوف يتشكل في ذهنه انطباع واضح، من تكرار المناظر، أن هذا العالم ليس عالمًا واحدًا بل عالمين، وأنّ هناك خطين واضحين يفصلان الناس في الكرة الأرضية.

تمامًا مثل خطوط الطول والعرض وخط الاستواء ومدار الجدي والسرطان، ولكنهما ليسا خطين جغرافيين، بل هما خطان حضاريان متميزان، أو لنقل: محوران للشمال والجنوب: يمتد الخط أو المحور الأول على طول طنجة - جاكرتا، ويربط الثاني بين موسكو ولندن. المحور الأول (طنجة - جاكرتا) يملك الثروة والعلم والقوة العسكرية، ناشط اقتصاديًا، تمر عبر أراضيه خطوط التجارة الدولية، وتزدحم أسواقه بالبضائع والناس والمال معًا، في أعظم حركة (دينامية) اقتصادية نشيطة عرفتها أسواق المال، وتزدان بيوته بكتب العلم والثقافة العالمية والترجمات المنوعة، ومجالسه بالبحث العلمي والمناظرات على الطريقة التي سجلها لنا مثقف ذلك العصر أبو حيان التوحيدي، في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، ومدارسه التي تقيس محيط الكرة الأرضية، وتخطط لانتقاء أفضل مكان لبناء بيمارستان «مستشفى» بتجربة صمود اللحم للفساد(٢)، وتمتلك

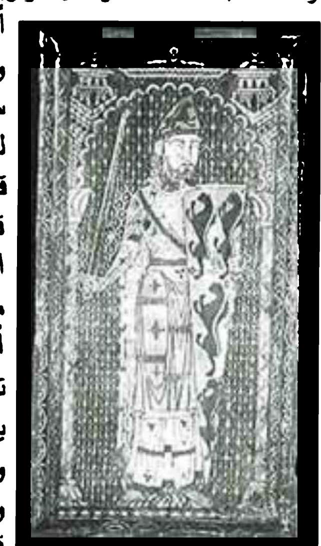


فيكتور هوجو

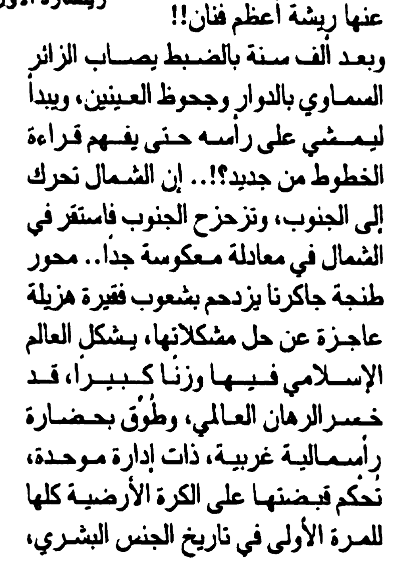
دوله الجيوش النظامية المتطورة، ويتحرك في مدنه بشر فعالون بوجوه تفيض بالجمال والحيوية، يرتدون الملابس النظيفة الجميلة، وفي مدينة مثل بغداد يعالج فيها أكثر من ٨٠٠ طبيب في عشرات البيمارستانات عشرات الآلاف من الناس، الذين ينعمون بالرفاهية، ويرتادون الحمامات العامة بشكل دوري. ويعنون بالنظافة والجمال، وتشع منهم الزينة ويتبارون في التأنق في المأكل والملبس، ويقضون الكثير من الوقت في مجالس العالم والرحلات، كما خلدها الأدب العربي في قصص السندباد البحري، ومجالس الظرف والفكاهة، وعجائب الأسفار، وغرائب الحوادث، في قصص ألف ليلة وليلة، وكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

كتاب الثقافة العالمية وسطور الحضارة كانت تكتب في ذلك الوقت بخط ولغة من اليمين إلى الشمال(٣).. وفي المحور الثاني على خط لندن - موسكو يعيش أكثر شعوب العالم فقرًا وتخلفًا، ينتشر فيهم الطاعون فيحصد ثلث السكان على الأقل، في المدن القذرة التي لا تعرف نظام التصريف الصحي والحمامات بعد، يطاردون الساحرات والقطط، ويعالجون السعال الديكي بلبن الحمير، ويشترون تذاكر لدخول الجنة، ويحرقون العلماء والكتب معًا في الساحات العامة بتهمة الهرطقة والزندقة، وتزدحم مدنهم بالشحاذين على الطريقة التي وصفها

الروائي الفرنسي فيكتور هوجو في قصته العالمية المشهورة «أحدب نوتردام»(٤)، ويعالج المريض النفسي بالسلاسل والضرب بالسياط لاستخراج الأرواح الشريرة من جمجمته، وينسب انتشار الأمراض إلى البروج والكواكب أو اليهود! فتخرج الناس على شكل طوابير تطوف البر تضرب نفسها بالسوط لدفع المرض، أو تحرق اليهود والساحرات والقطط معاً في الساحات العامة، وتتحرك من وسطه أفواج من الحجاج الفقراء لزيارة القدس، أو عصابات صليبية مفلسة يقودها رجال أميون من طراز ريتشارد قلب الأسد، ويضحك البابا لاكتانتيوس أشد الضحك على الذين يزعمون أن الأرض كروية فيقول: هل جن الناس إلى هذا الحد فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار والناس تتدلى من الطرف الآخر؟!(٥) في صورة حضارية (كاريكاتورية) تعجز عنها ريشة أعظم فنان!!



ريتشارد الأول (قلب الأسد)



وبعد ألف سنة بالضبط يصاب الزائر السماوي بالدوار وجحوظ العينين، ويبدأ ليمشي على رأسه حتى يفهم قراءة الخطوط من جديد؟!.. إن الشمال تحرك إلى الجنوب، وتزحزح الجنوب فاستقر في الشمال في معادلة معكوسة جداً.. محور طنجة جاكرتا يزدحم بشعوب فقيرة هزيلة عاجزة عن حل مشكلاتها، يشكل العالم الإسلامي فيها وزناً كبيراً، قد خسر الرهان العالمي، وطوّق بحضارة رأسمالية غربية، ذات إدارة موحدة، تحكم قبضتها على الكرة الأرضية كلها للمرة الأولى في تاريخ الجنس البشري، مسلحة بالصواريخ النووية، ومصارف المال، ومراكز البحث العلمي.. وانقلب خط الشمال ليمتد هذه المرة فيملك أربع قارات جديدة، ويضع يده على ممرات الملاحة البحرية ومعها الثروة العالمية، ويمتلك الجيوش النظامية المتطورة التي فاجأت فرسان المماليك عند سفح الأهرام مع نهاية القرن الثامن عشر ومعها الأسلحة المتطورة من البنادق والمدفعية، بالإضافة إلى التقنية الحربية الرفيعة. فالغرب اليوم يملك ثلاثة أخماس الكرة الأرضية، وأربعة أنهار من كل خمسة أنهار مهمة في الجغرافيا، وخمسة فدادين من كل سبعة فدادين صالحة للزراعة، ويملك ثمانية قروش من كل تسعة قروش ونصف في العالم(٦). وتنام في مانهاتن في نيويورك أعظم خزينة ذهب في تاريخ الجنس البشري لم يحلم بها الفرعون خوفو، ولم يملكها قارون ذاته. وانتشرت لغة ريتشارد قلب الأسد لتصبح اللغة العالمية، وبني لأحفاده بيت على ظهر القمر، وكتبت الحضارة هذه المرة من الشمال إلى اليمين.

مجلة الشبيجل الألمانية تمثل لهذا الانقلاب العالمي بعنوان «عالم منكوس» Verkehrte Welt، وتمثل لهذا بكمية الاستهلاك العالمية للطاقة، حيث تحتل أمريكا الشمالية رأس القمة؛ فتستهلك ثلث ما يستهلكه جميع البشر على وجه الكرة الأرضية (٢٢١٢ر٨ مليون طن) وتأتي أوربا في المقام الثاني، وتأتي دول أوربا الشرقية في المقام الثالث، وتنكمش قارة إفريقية كلها في هذه الخريطة إلى ما يعادل استهلاك إسبانيا، وعندما نفخت الصورة أمريكا أو بالعكس انكمش حجم الدول إلى مقدار استهلاك الطاقة، فإن صورة العالم تحولت إلى كائنات عملاقة يمكنها الرجل الأبيض، وتحولنا نحن إلى كائنات قزمة وذيول تابعة لكائنات خرافية ديناصورية تتمدد على خط الشمال(٧) المحور الذي سماه سابقاً المفكر الجزائري مالك بن نبي «واشنطن ـ موسكو».

كيف حدث هذا الانقلاب الصاعق ومتى؟

في عام ١٠٩٩م قبل أن يختم القرن الحادي عشر بعام واحد بالضبط، كانت مدينة القدس تعيش أزمة مروعة لسكانها المحاصرين الجياع، فالعصابات الصليبية المفلسة كانت تجتاح منطقة آسيا الصغرى والشرق الأوسط مثل الجراد المدمر، وتذبح سبعين ألفاً من سكان القدس في الشوارع، وينشغل العالم الإسلامي في حرب «كماشة» تجتاحه من الشرق والغرب بوقت متقارب.

ذراع الكماشة القادم من الشرق كان الإعصار المغولي، وذراع الكماشة الغربي كان أوربا الفقيرة القذرة. فأما الإعصار المغولي فتم امتصاص زخم اندفاعه، وتحويله إلى رصيد إسلامي، وأما ذراع الكماشة الغربي فقد قام بحرب لم يعرف لها الجنس البشري حتى الآن نظيراً، ولعله لن يعرف في المستقبل حرباً تدوم مئتي عام باثنتي عشرة حملة عسكرية يقودها ملوك أوربا الأميون.

وعندما كان الملك الفرنسي لويس التاسع يفدي نفسه من الأسر الذي سقط فيه في المنصورة، كان السلطان صلاح الدين الأيوبي يظن أنه أنهى الغارة الصليبية على العالم الإسلامي، ولم يعرف أنها قد بدأت فعلاً في ذلك الوقت، ولكن من زاوية لا تخطر على بال أحد، ولا توحي مظاهرها بذلك.

سقوط مدينة طليطلة إرهاص بانكسار الميزان التاريخي

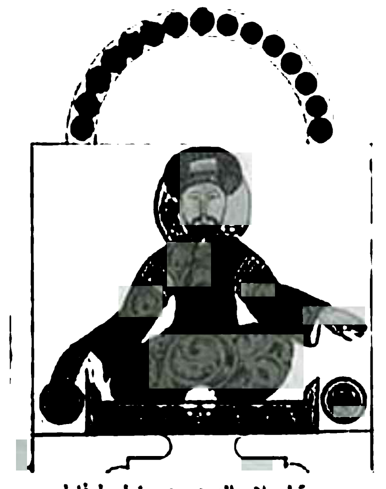
إن إنكسار الميزان التاريخي بين الشرق والغرب بدأ في الواقع قبل مذبحة القدس بأربعة عشر عاماً (١٠٨٥ للميلاد) عندما سقطت العاصمة التقليدية لشبه الجزيرة الايبيرية: طليطلة، وتوليدو حالياً - Tolido بيد ألفونسو السادس بعد حصار دام سبع سنوات(٨).

وعندما ذعر ملوك الطوائف، وارتجفت مفاصلهم فرقاً على عروشهم البنيسة أمام الزحف الإسباني القادم، هرعوا باتجاه المغرب إلى الدولة القوية المرابطية الجديدة الولادة، فاستنجدوا بملك المرابطين يوسف بن تاشفين ليقول المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية يومها، وهو يرى الخيار الصعب في زوال دولهم بين مطرقة الإسبان وسندان المرابطين: إن لم يكن بد من التحول إلى طبقة الخدم والعبيد وفقدان الملك، فأن أرعى جمال المرابطين أحب إليّ من رعي خنازير الإسبان.

كان المعتمد بن عبّاد شريفاً على كل حال في اتخاذ مثل هذا القرار المصيري التاريخي. وبقي قبره في «أغمات» خارج مراكش، يروي حسرات الأسير وشعره الباكي.. مات المعتمد قهراً وغماً في الأصفاد بعد موت حبيبته وأم أولاده (اعتماد) التي شاركته المحنة، فبكاها بحرارة روى فيها تربتها بالشعر المبلل بالدموع، ودفن بجانبها، فقبرهما المشترك الذي نزلا فيه ضيفين على الأبدية يروي قصة الشعر والحب والحرب.

معركة الزلاقة وأثرها في مصير الجزيرة

في عام ١٠٨٥م سقطت طليطلة، وفي عام ١٠٨٦م كان سيف العجوز يوسف بن تاشفين ذي الثمانين عاماً، ينزل كالصاعقة على رؤوس الإسبان فيحطم تجمعهم في معركة «الزلاقة»، ولكن ابن تاشفين يدرك فوراً بعد دخوله الجزيرة أنه لن يستطيع إيقاف مسلسل الأحداث، وأن المسلمين خسروا زمام المبادرة التاريخية، فالجسم الإسلامي مريض، وطليطلة لا أمل في استعادتها. وأن أبناء الجزيرة الأندلسيين تحولوا إلى ما يشبه الأيتام في مأدبة اللئام، وكان المرض الأموي القديم قد فعل فعله وآتى أكله أيضاً في الجزيرة، منذ أن نجح في إيقاف المسيرة الراشدية في العالم الإسلامي، وتحويل الدولة الإسلامية إلى إمبراطورية بيزنطية، فاستوى المرض،



صورة لصلاح الدين من مخطوط فاطمي

وبدأ الجسم الإسلامي في الترنح والسقوط، بفعل انهيار جهاز المناعة الداخلي قبل الهجوم الإسباني بفترة طويلة.

معركة «الزلاقة» في سنة ٤٧٩هـ الموافق ١٠٨٦م التي دارت رحاها على حدود دولة البرتغال الحالية، حجّمت الامتداد الإسباني، و مسحت دول الطوائف الهزيلة التي عاشت جيلين مدة ثمانين (عاماً ٣٩٩هـ - ٤٧٩هـ) في ضربة واحدة، كبحت جماح السقوط النهائي الأندلسي مدة أربعة قرون لاحقة، حتى جاء موعد كسوفها مع كريستوف كولمبس عام ١٤٩٢م.

انكسار الميزان التاريخي بين الشرق والغرب بدأ عندما سقطت العاصمة التقليدية لشبه الجزيرة الإيبيرية بيد ألفونسو السادس بعد حصار دام سبع سنوات

وبعد سقوط طليطلة صمدت الجزيرة حتى مرحلة وفاة الفيلسوف ابن رشد الذي مات عام ١١٩٨ للميلاد بعد أن كافأه أهل مدينته بالطرد مرتين: مرة من المسجد هو وابنه، وكانت من أحزن مالاقاه، ومرة بنفيه إلى قرية «الليسانة» اليهودية، ليقضي فيها بقية عمره وهو في السبعين من العمر. وعندما نضب العقل الإسلامي الجماعي إلى هذا القدر الحزين، جاءهم الطوفان الإسباني هذه المرة، ليمسح، وبعد موت الفيلسوف بجيل واحد فقط (١٢٣٨)، مدينة قرطبة بالكامل، وليطرد أهل قرطبة كلهم من المسجد، ويدخل في مسجدها الجامع بشكل محشور عجيب، مثل الشوكة في اللحم، كنيسة مصطنعة لا يصلي فيها أحد.

كل من يمر اليوم في قرطبة يبكي عند المحراب الذي لا يصلي فيه أحد، والكنيسة الخرساء التي يحدق فيها السياح الأوربيون من دون معنى، ويتأمل العربي المسلم وجوه أهل قرطبة فيتذكر دمشق. هذه المرة لا يسمع اللغة العربية، ولا الأذان، ويتعجب من اختفاء أمة كاملة من خريطة الوجود.

نقطة التحول التاريخية

إن منتصف القرن الثالث عشر للميلاد سجل كارثتين غير معقولتين

للعالم الإسلامي دفعة واحدة، وبفاصل عشر سنوات، ففي عام ١٢٤٨م سقط الجناح الغربي للعالم الإسلامي «إشبيلية»، وفي عام ١٢٥٨م سقط الجناح الشرقي، بسقوط لؤلؤة الشرق «بغداد» بيد الحصادة المغولية القادمة من الشرق. ويخرج خليفة أعزل سمين حاسر الرأس لمقابلة جزّار دموي من طراز هولاكو يناشده الحفاظ على ٧٠٠ من الجواري اللواتي لا يعرفن ضوء الشمس.

وكما جلس العباسيون على جثث الأمويين النازفة المغطاة بالسجاد، يأكلون عشاءً فاخراً، ويشنفون آذانهم بسماع ألحان حشرجة الموتى الأخيرة وأناتهم، فإن حياة آخر خليفة عباسي كانت في كيس «جوال خيش» يقضي نحبه على نغم طبل مختلف، بالخنق والرفس بالأقدام، ويساق الوزراء وأعضاء الأسرة الحاكمة والأعيان والفقهاء إلى مقبرة المنظرة فيذبحون كالشياه، وتنعى بغداد يومها نحو ثمانمئة ألف قتيل، وتتحول أكوام الكتب إلى جسر يصلح لمرور الجندي التتري على نهر دجلة. إن التدمير المغولي خاصة لشبكة الري في جنوب العراق، والذي قامت عليه حضارة سومر، لم يصلح حتى يومنا الحالي.

النتيجة البعيدة وغير المباشرة لسقوط العاصمة البيزنطية

في القرن الخامس عشر للميلاد سقطت بيزنطة وغرناطة بفاصل نصف قرن (١٤٥٣م - ١٤٩٢م) ويبدو سقوط الحاضرتين كأنه لوحتان متعاكستان ووقائع متناقضة، فالقسطنطينية سقطت بيد الأتراك المسلمين، القوة الناهضة الجديدة، وغرناطة بيد الإسبان، رأس الحضارة الغربية المستيقظة، ولكن التحليل الأعمق يفضي إلى تكامل الصورتين، والتحام السبب والمسبب: فسقوط العاصمة البيزنطية جاء جوابه في سقوط غرناطة، والاستجابة للضغط

عندما تقدم الاستعماري الإسباني المدعو هيرناندو كورتس لإبادة حضارة الأزتيك وخنق مليكهم كان السلاح الحاسم الذي ظهر في الساحة، وأربك الهنود الحمر، وأثار فزعهم، هو الحصان العربي!



كريستوف كولمبس واكتشاف العالم الجديد

الجديد، عندما قُطعت طرق الشرق الأوسط إلى الهند في وجه أوربا، فاستندت أوربا بكل ثقلها وظهرها إلى المحيط (بحر الظلمات) ومن هذا الضيق جاء الفرج غير متوقع.

المحيط الأطلنطي «بحر الظلمات» وسواه من المحيطات كانت مناطق تفصل السكان والحضارات، فحضارات أمريكا لم تتصل ببقية حضارات العالم، ونمت وحدها بطريقتها الخاصة، ولكن مع تطوير السفن العابرة للمحيطات على يد الملاحين العرب، تحولت هذه المحيطات إلى جسر اتصال، ويمكن تشبيه السفن الجديدة، بما يشبه سفن الفضاء الحالية، بكل إنجازاتها التكنولوجية الرائدة.

البحر المتوسط بحر مغلق لا يشابه بحر الظلمات «المحيط الأطلنطي»، فسفن المحيط يجب أن تزود بتقنية ملاحية جديدة، وآلات قياس ومعرفة متقدمة من خلال خرائط لاتجاهات الرياح وتيارات البحر، ومعرفة بأمراض البحر الناجمة عن السفر الطويل لأشهر متواصلة مثل دراسة تكيف الإنسان اليوم للبقاء فترة طويلة في القمرات الفضائية وتزويدها بالدافع والأسلحة الكافية والمناسبة لمقاومة انقضاض القراصنة، وخزانات المياه الكافية، وأطعمة تحفظ لفترة طويلة (تم اكتشاف الفيتامينات ومعرفة مرض الاسقربوط بنقص الفيتامين سي - C في الجسم بعدم تناول الخضراوات والفواكه الطازجة فترة طويلة، وبواسطة سفينة المحيط العربية والحصان العربي، تم اقتحام قارات العالم الجديد، وضم إلى ممتلكات أوربا أربع قارات جديدة بمساحة تزيد مرتين على مساحة سطح القمر، وآلاف الجزر الغنية في المحيطات غير المتناهية. لقد كانت الهجرة والاستكشاف للغربيين الفقراء مفيدين حقاً.

وعندما تقدم الاستعماري الإسباني المدعو هيرناندو كورتس لإبادة حضارة الأزتيك، وخنق مليكهم، واستباحة عاصمتهم الجميلة فوق بحيرة غناء، كان السلاح الحاسم الذي ظهر في الساحة وأربك الهنود الحمر، وأثار فزعهم، هو الحصان العربي، ولكن التاريخ يسجل ظهور الحصان العربي من دون فارسه.

كان الإسبان يدفنون الحصان الميت سراً حتى لا يتبادر إلى ذهن الهنود إمكان

موت هذا الكائن. وظهر الفارس الإسباني مثل أسطورة نيسوس اليونانية، ذلك الكائن الخرافي الجبار، قطعة واحدة بجسم حصان ورأس إنسان، كما حصل مع الهكسوس في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد حينما اجتاحوا الحضارة الفرعونية العريقة بالحصان المدجن، ولم يتخلص المصريون من حكم الهكسوس إلا بعد مئتي عام مريرة وبسلاح الحصان نفسه، دبابة العصر القديم.

عندما تقدم الزحف الإسباني بعد سقوط طليطلة إلى الجنوب كان هم الإسبان ومن بعدهم الإنجليز، وضع اليد على المضائق فهي شرايين الحضارات القديمة، ومفاتيح التحكم، ومصادر الثروة والقوة.

في القرن السادس عشر تحول البحر المتوسط إلى بحيرة عثمانية، على الرغم من هزيمة المعركة البحرية «ليبانتو ١٥٧١م»، وبرز قواد بحريون أتراك مشهورون من أمثال خير الدين برباروسا وتورغود، ينزلون الرعب في قلوب الأوربيين ومفاصلهم فترتبط أسماؤهم في الذاكرة الجماعية الغربية بالقرصنة(٩)؛ لكن الإسبان والبرتغاليين شقوا طريقهم إلى عنق البحر المتوسط عند رأس جبل طارق ثم قفزوا إلى الشاطئ المغربي، فاستولوا على سبتة ومليلة - ومايزالون - وبذلك أحكمت المدفعية الإسبانية قبضتها على المضيق، فحبست العالم العربي عملياً في زنزانة البحر المتوسط، وقطعت الطريق على أية انطلاقة عربية إلى بحر الظلمات، وعندما اكتُشف العالم الجديد، وحصل النزاع البرتغالي الإسباني، حله البابا (حبياً) فقسم العالم بينهما نصفين بالتساوي بكل بساطة. وخسرنا المحيط وإلى الأبد على ما يبدو.

خسارة المحيط وآثاره المأساوية وبداية انطلاقة الغرب قبل خمسة قرون

على الرغم من وجود السفينة العربية

سجل منتصف القرن الثالث عشر للميلاد كارثتين غير معقولتين للعالم الإسلامي دفعة واحدة، ففي عام ١٢٤٨م سقط الجناح الغربي للعالم الإسلامي «إشبيلية»، وفي عام ١٢٥٨م سقط الجناح الشرقي بسقوط بغداد



لويس التاسع

العابرة للمحيطات، وعلى الرغم من إمكانية الوصول إلى القارات الجديدة التي وصل إلى بعضها التجار العرب المسلمون كما في إندونيسيا ومالقا واليابان، فإن التوجه للعالم الجديد فات الحضارة العربية، وبه دُشن عصر جديد حقاً.

إن اختراق المحيط على يد المغامرين المستكشفين أولاً، ثم جموع الفلاحين الأوربيين الفقراء لاحقاً، كان استجابة للضغط العثماني في الشرق، بمحاولة الهرب باتجاه الغرب، تحت إغراء رائحة التوابل العطرة، تمولهم الشركات الاستعمارية بالمال والسلاح لتفريغ الأرض من سكانها الأصليين واستبدل العرق المتفوق الجديد بهم، على الرغم من وجود مكان كاف للغازي والمغزو، ولكن سيطرة التطهير العرقي أقوى.

كان هذا التوجه بركة عليهم، لأن العالم القديم المكون من ثلاث قارات قفز مرة واحدة إلى سبع، منها أربع قارات جديدة أضيفت إلى ملك ريتشارد قلب الأسد وأحفاده، في الأمريكيتين وأستراليا ونيوزلندا والقطب الجنوبي. ومع تدفق الذهب من المكسيك وفلوريدا، والفضة من البيرو، وفي مدى قرن واحد، تدفقت دماء ثمانين مليوناً من السكان المحليين، وتم تفريغ مئة مليون من سكان إفريقية، لزرعهم كآلات عضلية في مزارع العالم الجديد لرفاهية الرجل الأبيض، في أعظم مذبحة عرفها الجنس البشري، لم يكشف عنها النقاب إلا منذ فترة قريبة، كما في فيلم «يرقص مع الذئاب»(١٠) وكتاب «فتح أمريكا - مسألة الآخر» لأستاذ السوربون تزفيتان تودوروف(١١).

كانت الموجة الأولى لاقتحام المحيط لاتينية (برتغال وإسبان) لم تلبث أن أعقبتها الموجة الجرمانية «الأنجلوساكسون» من الإنجليز والألمان، بفعل القصور الذاتي والتعصب الديني وعدم تطوير النظام البرلماني في البيئة اللاتينية، باستثناء فرنسا التي عوضت تأخرها مع انفجار الثورة الفرنسية، وانفجار الحرية الفكرية ومنظومة القيم الجديدة معها، التي نحت الكنيسة والإقطاع في ضربة واحدة موفقة، وشقت الطبقة الوسطى البورجوازية الطريق إلى الديموقراطية الجديدة بين توازن رأس المال وطبقة



نابليون بونابرت

العمال. أما الصنف الأوربي الثالث «السلاف» فقد بقوا بعيداً عن غارة المحيط فدفعوا ثمن تأخرهم، كما نرى في الصرب الحاليين الذين يذكروننا بعقلية صليبيي القرون الوسطى. عندما استطاعت الثقافة الجرمانية، ولاسيما الإنجليزية، من تطوير نظامها الإداري، قفزت إلى سطح العالم بصفتها قوة عالمية مسيطرة، وكان القرن التاسع عشر لها، كما كان القرن العشرون لابنها البكر أمريكا. وسيبقون إلى فترة طويلة على ما

عندما استطاعت الثقافة الجرمانية، ولاسيما الإنجليزية، من تطوير نظامها الإداري، قفزت إلى سطح العالم بصفتها قوة عالمية مسيطرة، وكان القرن التاسع عشر لها، كما كان القرن العشرون لابنها أمريكا

يبدو مشاركين في هندسة مصير الجنس البشري. ومع تدفق خيرات القارات الجديدة وذهبها، تحول الفقراء الأوربيون الحجاج إلى بيت المقدس فجأة من أمم فقيرة هزيلة عاجزة عن حل مشكلاتها، إلى أمم قيادية من نوع مختلف، فمع نمو الطبقة الوسطى، وبداية انفجار الثورة الصناعية، أمكن في ظل البرلمان البريطاني، أن يتم وضع نموذج جديد للإدارة، فقد شكل التوازن الجديد بين طبقة أصحاب الثروة والقوة العمالية، نموذج الديموقراطية الرأسمالية الجديدة التي تملك مقادير الجنس البشري في الوقت الراهن.

وعندما هرب فرسان المماليك أمام مدفعية نابليون كانت الهزيمة في الواقع بين عالمين مختلفين، فالعالم الإسلامي استيقظ على الصفعة الاستعمارية هذه المرة، وأحس بقشعريرة البرد؛ شعور الغنم في الليلة المطيرة؛ أن العالم الجديد قد تغير، وأن الزمان قد دارت دورته، وأن أساطير ألف ليلة وليلة قد انتهت، وأن شهرزاد قد أدركها الصباح، وأن أحلام الماضي قد انقشعت، كما يستيقظ المصاب في حادث السيارة وهو في العناية المشددة بعد أن تعرض لكسور رهيبة، ونزف خطير، فهو يصرخ من آلامه، ولكنها آلام المخاض للخروج من رحم الأحلام الدافئة في قصص ألف ليلة وليلة والسندباد البحري، إلى العالم الجديد الذي لم يشارك في صناعته.

نحن ما زلنا نعاني من مشكلة فهم تعقيدات هذا العالم الجديد المسحور، ومعاناة ضريبة التكيف معه، لأنه عالم لم نصنعه بدانا، فنحن أمام سحر جديد لم نقدر على فك طلسمه بعد، والتعامل مع ملك الجان.

الهوامش والمراجع

١. تنسب فكرة الزائر السماوي في أصلها إلى المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي وضع مصطلح «محور طنجة - جاكرتا»، ومحور «واشنطن موسكو» وتكرر هذا المصطلح على شكل ثابت ضمن مفاهيمه في سلسلة مشكلات الحضارة التي بلغت نحو عشرين كتاباً.

٢. عندما أرادوا بناء البيمارستان في إحدى ضواحي بغداد عمد أطباء ذلك الوقت إلى تعليق أربع قطع لحم في الاتجاهات الأربعة، وانتظروا آخرها فساداً، وفي ذلك المكان تم بناء المستشفى. نحن اليوم لا نعرف بناء بيوت صحية عازلة حتى مثل الحس الفطري عند أجدادنا عندما بنوها من الطين، فبيوتنا لا تعرف الاتجاه «القبلي» وهي باردة في الشتاء حارة في الصيف، وعندما نعجز عن دفع فواتير المكيفات سوف تهرب من سكانها حتى ثعابين الصحراء!!.

٣. ذكر ذلك ابن بطوطة في رحلاته عندما تفاهم وباللغة العربية مع شعوب الأرض المتحضرة في ذلك الوقت من طنجة حتى الصين واعتمدت شهادته كقاضٍ «شهادة حقوق عالمية معترف بها» فاشتغل بها براتب مجز عدة سنوات في الهند، راجع مقالتي في جريدة الرياض رقم ٤٩ بعنوان ابن بطوطة والسير في الأرض. العدد ٩٨٧٣ بتاريخ ٨ صفر ١٤١٦هـ الموافق ٦ يوليو/تموز ١٩٩٥م.

٤. تم تمثيل القصة بفيلم، فقد رأينا مدينة كاملة للشحاذين في باريس.

٥. كتاب الناقد Thoughts Of Islam ص٤٣.

٦. الناقد Dilemma Of Distorted Culture ص٩.

٧. نقلاً عن طاقة العالم قسم الإحصاء لعام ١٩٩١م مجلة الشبيجل.

٨. يراجع في هذا كتاب محمد عبدالله عنان الموسوعي حول التاريخ الأندلسي.

٩. كتاب سليمان القانوني - تأليف هارولد لامب - ترجمة شكري محمود نديم ص١٨٠.

١٠. فيلم يرقص مع الذئاب Dancing With Wolfes، ثم عرض مأساة فناء الهنود الحمر من الجانب الهندي - ربما للمرة الأولى - في تاريخ هوليود بعد أن اعتدنا مشاهدة الهنود الحمر الوحوش الذين يصرخون ويذبحون الأمريكيين المتمدنين بالبلطات!!

(١١) ترجمة بشير السباعي - دار سينا للنشر وهو كتاب عرض فيه المؤلف مأساة إبادة سكان الحضارات القديمة وبقيت أنا شخصياً مصدوماً عدة أيام عند قراءته، ولي عودة إليه في مقالة لاحقة بالتفصيل وتعرضت له مجلة الشبيجل الألمانية عند نشر سلسلة فتح أمريكا بعرض جديد ودون مركزية أوربية.

الحضارة العربية الإسلامية
وترسيخ مبادئ حقوق الإنسان

عبدالواحد ذنون طه
تعز - اليمن

تعد الحضارة العربية الإسلامية من أسمى الحضارات الإنسانية التي كان لها دور فعال في حماية مبادئ حقوق الإنسان وترسيخها، أينما حلت وفي أي مكان سادت، كيف لا وهي تقوم في الأساس على مبادئ الإسلام السمحة، التي كفلت للإنسان حقوقه في الحياة الكريمة، وحرّمت الظلم والاعتداء، وجعلت الناس سواسية في المجتمع، لا يتميزون إلا بقدر مساهمتهم الفعالة في هذا المجتمع، وأفضلهم وأكرمهم، هم الذين يلتزمون التقوى، وتطبيق ما أمر الله به من حب الإنسان ومساعدته لأخيه الإنسان.


قصر الحمراء

وفي هذه الصفحات، سنقصر الحديث على مكان واحد من الأماكن التي سادت فيها هذه الحضارة العربية الإسلامية، ألا وهو الأندلس، أي المناطق التي حكمها العرب المسلمون من شبه الجزيرة الآيبيرية التي تضم إسبانيا والبرتغال في الوقت الحاضر، والتي تمتعت وعاشت في ظل هذه الحضارة نحو ثمانية قرون في كثير من أجزائها، ولا سيما المناطق الجنوبية منها. وسنركز اهتمامنا في البدايات الأولى، وكيف عامل الفاتحون المسلمون الإنسان الذي كان يعيش في تلك البلاد؟

الوضع السياسي والاجتماعي

وحتى يمكن إعطاء صورة واضحة لإسهام العرب المسلمين في هذا المجال، لا بد من استعراض الوضع السياسي والاجتماعي للسكان قبل دخول الفاتحين، لنرى كيف كانت تُنتهك حقوق الإنسان، ولنوازن ذلك بالتحول الذي أدخله الإسلام إلى المنطقة.

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية تحكم من قبل القوط الغربيين منذ أواخر القرن الخامس الميلادي، وكانوا يمثلون أقلية صغيرة ضمن السكان الأصليين الإسبان - الرومان Hispano Romans. وكان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش، وهو السلطة التشريعية الوحيدة في البلاد، تساعده على ذلك مجالس كنيسة طليطلة، التي كانت سنداً لسلطته(١). ولم يكن للشعب أية سلطة أو رأي في إدارة البلاد. وكانت الثروات والممتلكات بيد القلة من الناس،

وهناك تفاوت وظلم كبيران في البنية الطبقية، فالمجتمع في العهد القوطي كان يتألف من ثلاث طبقات، وهم: كبار ملاّك الأراضي والنبلاء، والعبيد، ثم الأغلبية الساحقة من السكان الذين لم يكونوا من النبلاء أو من العبيد. وكان أفراد هذه الأغلبية إما عمالاً يسكنون في المدن، حيث يصنفون ضمن أصناف ونقابات لا يمكنهم تركها والهرب، ومن يجرؤ على ذلك يجبر على العودة إلى مدينته، وكانوا محرومين أيضاً من الانضمام إلى سلك رجال الدين، أو أن يصبحوا موظفين(٢). وإما من سكان الأرياف الذين كانوا يعملون في أراضيهم، ولكن للظروف الاقتصادية الصعبة، فقد اضطر كثير منهم إلى تسليم ممتلكاتهم

للملك، كما كانت الكنيسة تمتلك أيضاً عدداً كبيراً من العبيد. ويتضح من تشريعات مجالس الكنيسة، أن هؤلاء العبيد عاشوا في ظروف سيئة جداً(٤) ولهذا فليس من الغريب أن حاول الكثير منهم الهرب والتخلص من عبوديتهم. وقد اعترف الملك القوطي أخيكا Egica (٦٨٧ - ٧٠٢م) في بداية القرن الثامن الميلادي بأن العبيد الآبقين يختبئون في كل مكان من البلاد. وقد شرع قانوناً وضع بموجبه عقوبات صارمة على كل من يخفق في مطاردة العبيد الآبقين وإلقاء القبض عليهم(٥).

وقد شكل اليهود عنصراً مهماً من عناصر السكان في شبه جزيرة آيبيريا، لكنهم كانوا لا يتمتعون بحقوقهم الإنسانية، وهناك أدلة واضحة لا تقبل

عامل ملوك القوط والمجالس الكنسية اليهود معاملة قاسية، وأرغموهم على اعتناق النصرانية

الجدل، تظهر من خلال المراسيم والقوانين التي صدرت بحقهم، تشير إلى أنهم كانوا منبوذين، وعوملوا معاملة قاسية جداً من ملوك القوط ومجالس كنيسة طليطلة التي نصت في مجلسها الثالث على إكراه اليهود على اعتناق النصرانية، وحرمت عليهم شراء العبيد(٦). وقد ظل هذا التشريع سارياً حتى نهاية العهد القوطي ودخول المسلمين. وفي عهد الملك ايروج Erwig (٦٨٠ - ٦٨٧م)، أقصي اليهود عن كل المناصب العامة، وعن وكالة المزارع الكبيرة، وحرم عليهم وعلى عبيدهم أيضاً أن يعملوا في حقولهم أيام الآحاد والعطل النصرانية(٧). ولكن ذروة الاضطهاد الرهيبة لليهود وصلت غايتها في عهد الملك أخيكا، الذي سعى إلى تجريدهم من قدرتهم الاقتصادية،

إلى النبلاء الكبار، ورضوا بالعمل والبقاء فيها مستأجرين لقاء تمتعهم بحماية النبلاء. ولقد أصبح هؤلاء المزارعون بالتدريج مرتبطين بالأرض، وارتبطت علاقاتهم مع الملاّك مدى الحياة، حتى إنهم تحولوا أخيراً إلى ما يشبه الأقنان المورثين. وكان عليهم أن يدفعوا الضرائب، ويؤدوا بعض الخدمات الشخصية للنبلاء، ولم تكن لهم حقوق تتيح لهم التصرف بحرية، فهم مع الأرض يباعون ويشترون معها(٣).

ومن بعد هذه الطبقة تأتي جماهير العبيد الغفيرة، ضحايا كل أنواع القهر والاضطهاد. وكان هؤلاء يستخدمون في الأغراض الزراعية، والأعمال المنزلية والمحلية على حد سواء. وكان هناك عبيد تابعون للدولة، أو عبيد

وتحديد قابليتهم في الحصول على المعيشة. فلقد أجبرهم على أن يبيعوا إلى خزينة الدولة - وبسعر محدد - عبيدهم، وأية ممتلكات سبق أن حصلوا عليها من النصارى. كما أنهم منعوا من مزاولة التجارة في مختلف أشكالها، أو أن يتاجروا مع البلدان الخارجية(٨). ومع أن الكثير من قوانين الاضطهاد انتهكت بسبب دفع اليهود الرُشا إلى النبلاء ورجال الدين من أجل الحصول على الحماية، إلا أن اليهود تضرروا إلى حد كبير، واضطر كثير منهم إلى مغادرة البلاد إلى شمال إفريقية وغالة في جنوب فرنسا(٩).

هكذا كان وضع الإنسان في المجتمع القوطي عشية الفتح العربي الإسلامي لشبه جزيرة آيبيريا: طبقية مقيتة، وامتهان لكرامة البشر، ومحاربة في الأرزاق والعقيدة، وتهجير خارج الأوطان؛ فماذا حقق الفاتحون بعد دخولهم هذه الأرض وتحريرها سنة ٩٢هـ/٧١١م؟.

دخول المسلمين

قاتل المسلمون الجيش القوطي بقيادة الملك لذريق Rodric وانتصروا عليه(١٠)، ثم هاجموا من قاومهم من الحاميات القوطية في المدن المختلفة، ولم يتعرضوا للسكان العزل، بل عاملوهم معاملة حسنة؛ لأن المسلمين من عرب وبربر، حينما نزلوا هذه البلاد، لم يقصدوا أن يعيشوا سادة مترفعين، بل استقروا مع أهل البلاد، وعاشوا في سلام دون أن يتدخلوا في حياتهم وطريقة معيشتهم، أو أن يغيروا في دينهم. ونلاحظ أن المسلمين اختلطوا مع السكان اختلاطاً كبيراً، وعدوهم إخوانهم في الإنسانية، فتزوجوا منهم، فهم قد جاؤوا من غير نساء، فامتزجت دماء الفاتحين بدماء أهل البلاد.

وكان أول من اتبع هذا الطريق - أي مؤاخاة أهل البلاد ومصاهرتهم - هو والي الأندلس الأول، عبدالعزيز بن موسى بن نصير، الذي تزوج من أرملة لذريق، التي كانت تدعى إيخلونا Egilona، وتبعه في ذلك القادة العرب، ومنهم زياد بن النابغة التميمي، الذي تزوج هو الآخر من أميرة إسبانية(١١). وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية، حفيدة الملك القوطي الأسبق غيطشة Witiza، التي ينتسب إليها المؤرخ المسلم المعروف بابن القوطية(١٢).

ومن القادة البربر الذين تزوجوا من نساء أهل البلاد، منوسة Munuza، حاكم منطقة شرطانية، فقد تزوج من ابنة الدوق اودو Eudo، دوق أكيتانيا Acquitaine جنوب فرنسا. وهذه أمثلة على بعض القادة البارزين من العرب والبربر، ولا شك أن غالبية المسلمين في الأندلس قد حذوا حذوهم، وارتبطوا بعلاقات مصاهرة مع أهل البلاد. وقد أدى هذا بالتأكيد إلى مزيد من التآخي، وعمل على انتشار الإسلام في الأندلس بصورة طوعية، وبرضا أهل البلاد(١٣).

احترام العهود

ومن مظاهر إسهام الحضارة العربية الإسلامية في ترسيخ القيم ومبادئ حقوق الإنسان في الأندلس، تعاون الفاتحين التام مع أهل البلاد في إدارتها، واحترامهم لعهودهم التي قطعوها أيام الفتح الأولى، ولا سيما معاهدات الصلح التي عقدت مع بعض مناطق شبه الجزيرة الأيبيرية، مثل منطقة مرسية Murcia في الجنوب الشرقي، وماردة Mervide في الغرب. وكانت معاهدة الصلح التي عقدها عبدالعزيز بن موسى مع القائد القوطي تدمير Theodemir، من المعاهدات الفريدة في تاريخ حقوق الإنسان، فقد تضمنت شروطاً متساهلة جداً للصلح. وكانت ترمي منذ البداية إلى خلق نوع من التعاون مع أهل البلاد في إدارتها بعد الفتح؛ فقد اعترف المسلمون بالدوق تدمير حاكماً على سبع مدن تقع ضمن منطقته، كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن. وتعهد المسلمون بألا يقتلوا أو يسبوا، أو يجردوا أحداً من أهل البلاد من ممتلكاتهم، أو أن يفرقوا بين أولادهم ونسائهم. وتعهدوا أن يسمحوا لهم بممارسة شعائر دينهم، كما تعهدوا أيضاً باحترام كنائسهم وعدم إصابتها بأي ضرر(١٤).

إن بنود هذه المعاهدة التي احترمها المسلمون تحدد بشكل واضح طبيعة العلاقات الإنسانية التي سادت بين الفريقين في كل أنحاء الأندلس. ومثال ذلك، أن عبدالعزيز بن موسى لم يحول أي كنيسة في إشبيلية Sevilla إلى مسجد حين احتاج المسلمون إلى ذلك، بل نجده يختار مكاناً قريباً من باب كنيسة رفينة S. Ruffina ليبني عليه مسجداً لقربه من القصر الذي يسكن فيه. وظلت كنائس المدينة الأخرى دون أن يتعرض لها المسلمون(١٥).

ولنا في معاملة المسلمين لأهل مدينة وشقة Huesca، خير دليل على احترامهم لرغبات السكان، ونواياهم الإنسانية الطيبة إزاءهم. فقد حاصروا المدينة، ولكنها أبت الاستسلام، فترك المسلمون المدينة وشأنها، ونزلوا بموضع قريب منها يعرف بالعسكر، وبنوا فيه المساكن، وغرسوا الكروم، ومارسوا الزراعة لمعيشتهم سبعة أعوام. فلما رأى أهل المدينة فعل المسلمين، وتحروا نيتهم في عدم إيذائهم، نزلوا إليهم مستأمنين لأنفسهم وأولادهم وأموالهم، فمنهم من دخل الإسلام، ومنهم من ظل على دينه(١٦).

حرية ومساواة

وإذا ما انتقلنا إلى المجال الاجتماعي وجدنا أن الإدارة العربية الإسلامية الجديدة في الأندلس قضت على الظلم والاستغلال، وحملت الحرية والمساواة لجميع عناصر السكان، الذين تخلصوا من قيود الطبقية، ولاسيما طبقية النبلاء، وتحكمها في مصايرهم. ولدينا شهادة معاصرة للمؤلف المسيحي المجهول لحولية عام ٧٥٤م، الذي يشيد ويمدح بإجراءات أحد ولاة الأندلس الأوائل، عقبة بن الحجاج السلولي، فيقول: إنه فرض سلطة القانون، وأمر أن تجمع الضرائب بشكل صحيح، وأنهى كل ضروب الممارسات غير المسؤولة في دفع الضرائب، وذلك بتحريم الرشوة، ولم يعاقب أحداً إلا بموجب القانون(١٧).

تعاون المسلمون مع أهل الأندلس في إدارتها، واحترموا عهودهم التي قطعوها أيام الفتح الأولى

وقد ترك المسلمون لأهل البلاد حق اتباع قوانينهم، والخضوع لقضائهم، والاستمرار في ممارسة شعائر دينهم. وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على النصارى واليهود، لقاء إعفائهم من الخدمة العسكرية وحمايتهم. أما من دخل منهم الإسلام، فقد أصبح واحداً من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وسقطت عنه الجزية. لهذا فقد سارع العبيد وبقية السكان الذين

ينتمون إلى أصول اجتماعية مختلفة إلى اعتناق الإسلام. أما الذين ظلوا على ديانتهم، فقد تركوا أحراراً ينظمون أمورهم على النحو الذي يرغبون فيه، وكان لهم نظامهم المدني الخاص المستند إلى القانون القوطي القديم. وقد استمر القائمون بأمر هذا القانون بالإشراف على كل ما يتصل بأمور الرعايا من أهل الذمة، فكانوا يعينون لهم القضاة الذين يفصلون في مشكلاتهم حسب النظام القوطي، ويشرفون على كنائسهم، ويتولون أمورها. بينما كان للمسلمين نظامهم الخاص المستند إلى تعاليم الشريعة الإسلامية. وهكذا وجد في الأندلس نظامان إداريان في آن واحد. الأول للمسلمين، والثاني للنصارى، يحفظ حقوقهم الاجتماعية والإنسانية(١٨).

كما ذهب المسلمون إلى أبعد من ذلك، في احترامهم لحقوق الإنسان في الأندلس، وخاصة رعاياهم من النصارى. فقد سمح لهؤلاء في كل ناحية من نواحي الأندلس باختيار رئيس لهم يدعى بالقُمس Comes، أو زعيم نصارى الذمة. وكان أول من تولى هذا المنصب بعد الفتح، هو أرطباس Ardabast ابن ملك القوط السابق غيطشة(١٩). وقد احتفظ المسلمون بحق تعيين القمس الأعلى، أي قمس الأندلس، ولكنهم اشترطوا أن ينتخب النصارى في كل ناحية قومسهم الخاص بهم(٢٠).

ووافق المسلمون أيضاً على تولي رجال آخرين من السكان المحليين مناصب أخرى لخدمة بني جنسهم إلى جانب القُمس، مثل قاضي العجم، وصاحب المدينة، أو حارسها، ومستخرج خراج الذمة، الذي كان يعمل جنباً إلى جنب مع عامل الخراج المسلم، والأمين الذي كان على رأس كل نقابة من نقابات العمال المختلفة، والعريف الذي تميز بمهارته في حقل معين من حقول الصناعة. وعلى سبيل المثال، مازال هذا المصطلح الأخير elalarife يطلق على رؤساء البنائين في إسبانيا إلى اليوم(٢١).

وفي مجال الزراعة، ألغى الفاتحون النظام القوطي القديم الذي يجعل المزارعين أشبه ما يكونون بالرقيق أو الأقنان، فتحسنت أحوال السكان المحليين في الأرياف، واستردوا كرامتهم. وكان ذلك عاملاً في ازدهار الزراعة، وفي تحسين أحوال الزراع الذين تمتعوا بالحرية والاستقلال في أرضهم(٢٢).

جعل المسلمون للنصرانية واليهودية كيانين مستقلين، وأبقوا على المؤسسات التابعة لهما دون أن يمسوها بأذى

وضمن المسلمون حق التملك لأهل البلاد، وذلك باحترام ممتلكاتهم الخاصة، فلم يعتدوا عليها، وكان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك، ولاسيما المتنفذين منهم، مثل بعض الشخصيات المشهورة، كالصميل بن حاتم الكلابي، أو الموالي الشاميين. ولكننا نجد - وكما يروي ابن القوطية(٢٣) - أن الأمر كان على العكس، فقد قام الأمير السابق أرطباس، بمنح بعض هؤلاء الذين زاروه هبات من ضياعه الكثيرة التي لم يمسها المسلمون، حيث وهب عشر ضياع لكل واحد منهم. وحين طلب منه أحد الموالي الشاميين، ويسمى ميمون العابد، أن يعمل لديه في إحدى ضياعه ويعتمرها، ويؤدي الحق عنها مناصفة، رفض أرطباس ذلك التواضع منه، وأصر على أن يهب له ضيعة كاملة تكون ملكاً له ولأعقابه. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى تواضع المسلمين واحترامهم للممتلكات الخاصة لأهل البلاد، وتعاملهم الشريف معهم وفق أرقى الحقوق والقيم الإنسانية المعروفة حتى اليوم. وقد أدرك أهل البلاد ذلك، فعاملوهم بمثل هذه المعاملة الطيبة، وسادت العلاقات الإنسانية الحسنة بين الجانبين.

حرية دينية

وبالنسبة إلى الحقوق الدينية فقد استمر النصارى من أهل البلاد في العمل بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة. ولم يتدخل المسلمون في تنظيماتهم، بل إنهم لم ينقلوا كرسي المطرانية الكبرى من طليطلة إلى العاصمة قرطبة، فتركوه حرصاً على مشاعر النصارى، ولكن مجامع كنيسة طليطلة عقدت في قرطبة لتكون على مقربة من العاصمة(٢٤). وقد جعل المسلمون للنصرانية في الأندلس كياناً مستقلاً، وأبقوا على كل المؤسسات التابعة لها دون أن يمسوها بأذى، مثل الأديرة والبيع الصغيرة، والمصليات الخاصة والعامة. كما احتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم(٢٥). وظلت الكنائس تؤدي دورها ووظائفها الاجتماعية، إلى جانب وظائفها الدينية، فعقدت فيها مراسم الزواج، وعمد فيها المواليد، وسجلت فيها المبايعات والعقود.

ونتيجة لهذا التسامح الديني الذي أبداه المسلمون إزاء أهل البلاد الذين ظلوا على دينهم، فقد نشأت مودة وتعاطف وحب للفاتحين من العرب ولغتهم، فأقبلوا على تعلم العربية واستخدموها إلى جانب لغتهم

الأعـجـمـيـة الدارجـة المعـروفـة بالرومانسية، وهي لهجة عامية مشتقة من اللغة اللاتينية، وقد تكونت منها الإسبانية فيما بعد. وقد سمي هؤلاء النصارى الذين تعلموا العربية وكتبوا بهـا، وتخلقـوا بأخـلاق المسلمين، بالمستعربين Mozarabes، وساهموا في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى إسبانيا النصرانية؛ لأن هؤلاء، بحكم معرفتهم للغتين العربية والإسبانية القديمة، كانوا يتنقلون بحرية في الأراضي الإسلامية في الأندلس، إلى الإمارات النصرانية في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية. وهكذا ساهم تسامح المسلمين، وحب أهل البلاد للغة العربية إلى انتقال العلوم والفلسفة، وكثير من مظاهر الحياة العامة الإسلامية إلى الشمال(٢٦).

أما موقف الحكم العربي الإسلامي من اليهود في الأندلس، فقد اختلف تماماً عن موقف ملوك القوط السابقين، فبدلاً من التضييق والاضطهاد في العهد القوطي، لقي اليهود معاملة جيدة جداً ومتسامحة إلى حد كبير، حتى إنهم وثقوا بهم في أثناء عمليات الفتح، وأشركوهم في حماية المدن التي سيطروا عليها بعد الفتح، مثال ذلك قيام القائد المسلم مغيث الرومي بجمع كل يهود قرطبة وإشراكهم في مهمة الدفاع عن هذه المدينة بعد افتتاحها(٢٧). وقد سار مغيث في هذا على خطا قائده الكبير طارق بن زياد، الذي كان يعمد إلى ضم السكان اليهود في كل مدينة يفتتحها إلى جملة المدافعين عنها من المسلمين(٢٨).

واستمر تسامح المسلمين مع اليهود في كل العصور التي مرت بالأندلس، وكانت لهم قوانينهم الخاصة بهم، وقضاتهم الذين يفصلون في مشكلاتهم شأنهم في ذلك شأن النصارى. ولم يتدخل المسلمون في شؤونهم، ولا في بيعهم التي يقيمون فيها صلواتهم. ويبدو أنهم عاشوا ضمن قصبات المدن الإسلامية، في الأماكن المحصنة منها بعد الفتح، حينما ساعدوا الحاميات الإسلامية على حراسة المدن التي افتتحت، فكان من الطبيعي أن يتجمعوا في جزء معين في قصبة كل مدينة، حيث أصبح هذا الجزء يعرف بحارة اليهود، وهو ما عرف فيما بعد في إسبانيا النصرانية باسم اليودرية أو الخودرية Juderia(٢٩).

ومما لاشك فيه أنه كانت لهؤلاء اليهود حياة اجتماعية منظمة تضاهي تلك التي تمتع بها النصارى، بسبب تسامح المسلمين وعدم تمييزهم بين مختلف عناصر السكان، فعاش الجميع عيشة حرة محتفظين بدينهم ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم في ظل الحكم العربي الإسلامي، الذي جاء ليقضي على كثير من الشرور الاجتماعية التي كانت سائدة في هذا البلد منذ قرون، وأسهمت الحضارة العربية الإسلامية، التي تفاعلت مع البيئة الجديدة، إسهاماً فعالاً في ترسيخ مبادئ حقوق الإنسان في الأندلس.

المراجع

1- E.A. Thompson, The Goths in Spain, Oxford, 1969, P. 278; R.B. Tate, "The Medieval Kingdoms of the Iberian Peninsula", in: Spain a companion to Spanish Studies, ed. P.E. Russell, London, 1973, P. 69.
2- Thompson, OP. Cit, P. 121.
٣. عبدالواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقية والأندلس، ميلانو - بغداد، ١٩٨٢م، ص ١٨١ - ١٨٢.
4 Thompson, OP. Cit., P. 305 - cit, III Toledo, 15; IV Toledo, 73; Ix Toledo, II; XI Toleda, 6.
5 Ibid., PP. 272, 274.
6- Ibid., PP. 101, 102, cit. III Toledo 14; S.Katz, The Jews in the Visigothic and Frankish Kingdoms of Spain and Gaul, New York, 1970, P.II.
7- Obid., P.21.
8- Thompson, OP. cit., P. 246; Katz, Op. cit., p.21.
9- A.d. shaw, "The Fall of the Visigothic Power in Spain", the english Historical Review, xxl, 1906, p. 211; Katz, Op. cit., PP 116, 127.
١٠. طه، المصدر السابق، ص١٦٨ فما بعدها.
١١. مجهول المؤلف، أخبار مجموعة، نشر، لافونيتي القنطرة، مدريد، ١٨٦٧م، ص٢٠.
١٢. أبو بكر محمد بن عمر بن عبدالعزيز المعروف بابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر، خوليان رايبيرا، مدريد، ١٩٣٦، ص٦.
13- Abdulwahid Dh. Taha, The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain, Routledg, London - New York, 1989, PP. 185, 192.
١٤. العذري، نصوص عن الأندلس في كتاب «ترصيع الأخبار وتنويع الآثار»، تحقيق، عبدالعزيز الأهواني، مدريد، ١٩٦٥م، ص ٤ - ٥.
١٥. ابن القوطية، المصدر السابق، ص١١؛ ابن عذاري المراكشي «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» نشر، كولن وليفي بروفنسال، ليدن ١٩٤٨م: ٢/٢٤ (برواية أحمد بن محمد الرازي).
١٦. العذري، المصدر السابق، ص ٥٦ - ٥٧؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس في كتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار»، نشر، ليفي بروفنسال، القاهرة - ليدن، ١٩٣٧م، ص١٩٥.
17 - Isidoro Pacence, or: The Chronicle of 754, P.157
[نشرت في الملحق رقم (١) في كتاب أخبار مجموعة، المصدر السابق، ص١٤٦ - ١٦٢]. ((no.16).
١٨. حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٤٤٧.
١٩. ابن القوطية، المصدر السابق، ص٣٨.
٢٠. مؤنس، المرجع السابق، ص٤٦١.
٢١. المرجع نفسه، ص ٤٦٢ - ٤٦٤.
٢٢. المرجع نفسه، ص ٤٦٥؛ وينظر: محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، ١٩٦٩م: ١/٦٣ - ٦٤.
٢٣. تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٨ - ٤٠.
٢٤. مؤنس، المرجع السابق، ص٤٩٥.
٢٥. المرجع نفسه، ص٥٠.
٢٦. عبدالواحد ذنون طه، دراسات أندلسية، المجموعة الأولى، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٦م، ص١٧٢.
٢٧. أخبار مجموعة، ص١٣ - ١٤؛ ابن عذاري، المصدر السابق: ٢/٩ - ١٠.
٢٨. لسان الدين ابن الخطيب «الإحاطة في أخبار غرناطة» (برواية ابن القوطية)، تحقيق، محمد عبدالله عنان، القاهرة، ١٩٧٣م: ١/١٠١؛ أخبار مجموعة، ص ١٢، ١٤، ١٦: ابن عذاري، المصدر السابق: ٢/١٢.
٢٩. مؤنس، المرجع السابق، ص٥٢٥.

المشاركة في اتخاذ القرار

خالد بن سعيد السحيم
الدمام - السعودية

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، ومن مقتضيات الاجتماع المشاركة في الرأي والقرار والسلطة؛ أما التوحّد والانفراد سواء في الجانب المادي المتمثل بالجسم، أم في الجانب المعنوي المتمثل في الإدارة فهما مرَض أو عرَض لمرضٍ يتطلب علاجًا حتى تتم البراءة منه.



وليس من الغريب أن تتفق توجهات الإدارة الحديثة اليوم في تأكيدها حتمية المشاركة مع ما جاء به الإسلام من ضرورة المشاركة في السلطة والمسؤولية واتخاذ القرار، ومختلف جوانب العملية الإدارية. بل إن الفطرة السليمة تقتضي تعاون بني البشر ومشاركتهم بعضهم لبعض في واجباتهم ومسؤولياتهم وآرائهم؛ ولهذا يعزو كثير من الدارسين النهضة والتقدم الحاصلين في اليابان إلى عدد من الأسباب، منها نظم الإدارة القائمة على حلقات الجودة Quality Circles التي تقوم على المشاركة الاختيارية للعاملين من مختلف المستويات الإدارية بآرائهم، والعمل المشترك لتطويرها وتحويلها من أفكار إلى واقع عملي ملموس.

وتعاني دول العالم الثالث التي تشكل غالبيتها دول العالم الإسلامي من تخلف كبير، وبون شاسع يفصلها عن ركب الحضارة التي تقودها الدول الغربية، ويتجلى تخلف هذه الدول - كسبب ونتيجة في آن واحد - في سيادة الفردية في مختلف درجات الهرم الإداري، حتى يصل إلى درجة تأليه الحاكم بالانقياد التام له، والطاعة العمياء، واتخاذ أقواله وأفعاله مرجعاً يؤخذ به، دون تمحيصها ذهنيًا، وإعمال العقل فيها.

مفهوم المشاركة في اتخاذ القرار

يعرف اتخاذ القرار بأنه خطوات مرتبة ومنسقة لتعرف الأبدال المتاحة واختيار البديل الأنسب من هذه الأبدال حسب متطلبات الموقف المطلوب.

أما المشاركة في اتخاذ القرار فهي إشراك المسؤولين الذين يمسهم القرار عند اتخاذه. ويعرفها بدر(١) بأنها: «اختيار بواسطة مجموعة من الأفراد شكلاً مشتركًا بين كل الحلول أو الأبدال، واتخاذ الإجراءات لتنفيذ ذلك الكل».

ويعرف كنعان(٢) المشاركة في اتخاذ القرار بأنها: «دعوة المدير لمرؤوسيه والالتقاء بهم لمناقشة مشكلاتهم الإدارية التي تواجههم، وتحليلها، ومحاولة الوصول إلى أفضل الحلول الممكنة لها».

مزايا المشاركة في اتخاذ القرار

أجرى ستاجنر عام ١٩٦٩م(٣) دراسة رصد فيها عددًا من المزايا المترتبة على المشاركة في اتخاذ القرار منها:

- إطلاع المرؤوسين على مشكلات التنظيم، وتفهم الأسباب الداعية لاتخاذ القرار، وكذلك إكساب المرؤوسين شعورًا بأن اقتراحاتهم محل تقدير واهتمام، ومن ثم تحقيق رضا العاملين الذي ينعكس بدوره على إنتاجية المنظمة.
- تنمية العاملين في المستويات الإشرافية وتطويرهم وتدريبهم وتهيئتهم للعمل في المستويات الأعلى.
- تحقيق الثقة المتبادلة بين الإدارة والعاملين في المنظمة.
- تحسين نوعية القرار وترشيده.

كما عدد كيث(٤) بعض المزايا الحاصلة نتيجة المشاركة في اتخاذ القرار، منها:

- الحصول على مزيد من المعلومات اللازمة لحل المشكلة.
- الحصول على مزيد من وجهات النظر حيال أثر القرار المزمع اتخاذه نتيجة وجود ممثلين لأقسام الإدارات المتأثرة بالقرار.
- تحقيق مزيد من الفهم للمشكلة ومسوغات اتخاذ القرار مما يساهم في الوصول إلى القرار الحصيف.
- إشباع المستوى الأعلى من حاجات الأفراد المتمثلة في الحاجة إلى تقدير الذات، والحاجة إلى إشباع الذات، كما صنفها إبراهام ماسلو في هرم الحاجات الإنسانية.
- زيادة روابط الانتماء إلى المجموعة، بالإضافة إلى تنمية الشعور بالقيمة والأهمية الشخصية، وتنمية القدرات الاتصالية وحل الخلافات بين الأفراد والأقسام، والحد من الصراع.

أما أبرز المآخذ على المشاركة في اتخاذ القرار فهو طول الوقت اللازم للوصول إلى القرار، وهذا نتيجة طبيعية لتعدد المراحل في حالة المشاركة موازنةً بالفردية في اتخاذ القرار، كما أن لهذا الوقت والجهد المبذولين للوصول إلى القرار في حالة المشاركة نتيجة كبيرة تمثل في صحة القرارات. والجدول الآتي يلخص بعض الجوانب السلبية للمشاركة في اتخاذ القرار، والتي يعود جلها ليس إلى طبيعة العملية، ولكن إلى سوء التنفيذ وضعف إدارة الجلسة:

الجانب السلبي	طرائق التغلب على الجانب السلبي
سيطرة الفرد على النقاش	الإدارة المتمكنة لجلسة النقاش للحد من سيطرة أحد الأفراد على النقاش
تحاشي الأفراد عرض أفكارهم خشية عدم قبولها.	تشجيع مدير الجلسة للمشاركين على تقديم أفكارهم مهما كانت.
ضغط الغالبية على الأقلية للقبول بالقرار أو تهميش دورهم	إعطاء مدير الجلسة جميع الآراء نصيبها من الدراسة والتحليل، وتمكين الأفراد من الدفاع عن وجهة نظرهم قبل قبول الفكرة أو رفضها.
الرغبة الإجماع	إشراك أفراد من خارج المنظمة لزيادة الآراء المطروحة، وتمحيص الآراء المقدمة من مجموعة.
المماحكة: الجدال بهدف الجدال	إدارة الجلسة بفاعلية لوقف الجدال عند وقوعه، وتوجيه دفة الحوار بعيدًا عنه.
طول الوقت	يمكن تقليل الوقت اللازم للوصول إلى القرار بتجنب الخوض في جوانب ثانوية لا تخدم القرار، والإدارة الفاعلة لجلسة النقاش.

الحالات التي يستخدم فيها أسلوب المشاركة في اتخاذ القرار

للمشاركة في اتخاذ القرار ثمن يتمثل في الوقت والجهد المبذول للوصول إلى القرار، ولذلك لا يتم

استـخـدام هذا الأسلوب في جـمـيع الـقـرارات الإدارية كـالقـرارات الـبـسيطـة والإجرائيـة والروتينـيـة كـقـرارات الإجـازة السنوية، وتأمين المسـتلزمـات المكتـبـيـة، وإنهـاء الخدمة لبلوغ السن النظامية؛ بل إن أسلوب المشاركة في اتخاذ القرارات يُستخدم في حالات منها:

ـ القرارات الحساسة (الإستراتيجية) التي تؤثر في بقاء المنظمـة وفي عملهـا وتوجهـاتهـا المسـتقبلية، كالقـرارات بالتوسع أو الانكمـاش أو المشاركة أو الاندماج، أو إضـافـة نشاطات وخطوط إنتاج جديدة.

ـ القرارات التي يتداخل فيها عمل أكثر من إدارة وتتأثر بها، أو يتطلب تنفيذها تعاون أكثر من قسم، كقرار البدء في أنشطة جـديدة لم تكن قـائـمـة من قـبل، أو تعـديل مواصـفات مـنتج معين بناء على مـتطلبات الـسوق وآراء المستهلكين.

ـ القرارات غير النمطيـة التي لا يوجد للمنظمة سابق خبرة فيها كتغيير نشاط المنظمـة، أو إدخال النظم الآلية بدلاً من النظم التقليدية.

ـ القرارات التي تواجَه بمعارضـة من مديرين يتأثرون بهـا أو يؤثرون فـيـهـا، أو يرتبطـون بهـا بشكل أو بآخـر، فـينبـغي عقد اجـتمـاع لسـمـاع وجهـات النظر والنقـاش للوصول إلى رأي موحد أو شبه مجمع عليه.

صور المشاركة في اتخاذ القرار

يوجد عـدد من الصور لـلمشاركـة في اتخاذ الـقرار، منها: الطريقة العادية: طريقـة رنجي اليابانية، وطريقة فيلبس، وطريقـة التـجـمـيـع الإحـصـائي، والطـريقـة الاسـمـيـة. وفي الأسطـر التـاليـة نعـرض لـهـذه الطرائق(٥) وقد آثرت وضعها في شكل جدول تسهيلاً للموازنة بينها:

الطريقة	شرح الطريقة	استخداماتها	مميزاتها	عيوبها
Normal Method الطريقة العادية	مجموع الأفراد برئاسة أحدهم، ويتم عرض المشكلة، ثم طلب آراء المشاركين.	معظم القرارات الإدارية يشترط فاعلية إدارة الجلسة.	تماسك المجموعة.	قلة عدد الأفكار المطروحة، طول الجلسات، والجدال.
العصف الذهني Brain Storming	يطلب من المشاركين تقديم أكبر قدر من الحلول لمشكلة ما، بغض النظر عن إمكان تطبيق الحلول، ويقوم رئيس الجلسة بتدوين الأفكار.	تقديم أبدال الحلول وليس لاتخاذ قرار.	تقديم حلول ابتكارية غير مسبوقة وسهولة استخدامها.	الافتقار إلى تقويم الأفكار.
طريقة فيلبس Philips Method	مثل طريقة العصف الذهني بالإضافة إلى أنه يتم تقويم الأفكار بعد تقديمها، كما يتم في بداية الجلسة تقسيم المجموعة الرئيسة إلى مجموعات فرعية.	تقديم حلول أو أبدال القرار واختيار البديل الأنسب.	فصل مرحلة تقديم الأفكار عن مرحلة تقويمها.	مرحلة تقويم الأفكار تشمل عيوب الطريقة العادية نفسها.
التجميع الإحصائي Statistical Aggregation	يتم تصميم استمارات تتضمن مساحات خالية، يقوم المشاركون بتعبئتها بأرقام، ثم تتم معالجتها إحصائياً.	حل المشكلات الكمية.	التخلص من مشكلات الطريقة العادية.	لا تصلح للمشكلات النوعية.
طريقة دلفاي Delphi	يتم إرسال استقصاء إلى عدد من المستجيبين، ثم تحلل وتختصر الإجابات الواردة ويعاد إرسالها إلى المجموعة نفسها بعد أخذ الملاحظات السابقة في الحسبان، ويكرر هذا حتى يتم الاتفاق.	حل المشكلات المحددة تماماً والتي تتطلب أخذ آراء أعداد كبيرة من الخبراء المتباعدين في إقاماتهم.	يمكن إجراؤها مع الأعداد الكبيرة، كما يمكن إجراؤها مع أفراد متباعدين.	تستغرق وقتاً طويلاً.
طريقة المجموعة الاسمية	يطلب مدير الجلسة من كل مشارك أن يسجل آراءه في قائمة خاصة مدة ربع ساعة، ثم يبدأ بتدوين الآراء على السبورة، ثم تتم معالجتها بالإضافة والدمج والاستبعاد، ثم مرحلة التصويت على الأفكار المعالجة.	القضايا والمشكلات المعقدة، التي يوجد حولها خلاف كبير ومع الخبراء والمختصين والمتأثرين بالقرار.	سريعة في القضايا المعقدة.	لا تناسب المشكلات العادية.
طريقة رنجي Ringi	يجتمع أفراد الأقسام المسؤولون عن تنفيذ القرار، كل قسم على حدة، ويتناقشون حتى يتم التوصل إلى اتفاق، فيرفع القرار إلى المستوى الإداري الأعلى، وهكذا حتى يصل القرار إلى المستوى الأعلى.	القرارات التي يتأثر بها، ويشترك في تنفيذها عدد من الأقسام.	تأخذ جميع وجهات النظر	تتطلب وقتاً كبيراً، تتناسب مع الشخصية والثقافة اليابانية

متطلبات المشاركة في اتخاذ القرار

هناك عدد من المتطلبات التي يلزم توافرها للقرار المطلوب المشاركة فيه حتى يتم تحقيق فاعلية القرار، وضمان رشده. وهي كالآتي:

ـ تحديد الأفراد المشاركين في اتخاذ القرار:

ويكون تحديد الأفراد المشاركين في اتخاذ القرار بناء على ارتباط إداراتهم أو أقسامهم بالقرار، كما يمكن أن يشارك الأفراد الخبراء والمتخصصون.

ـ الإعداد الجيد للاجتماع:

غدت إدارة الاجتماعات فناً وعلماً يدرسان بشكل مستقل، وينبغي على رئيس الجلسة أن يلم بحظ وافر من هذا العلم والفن، فيتم إخبار المشاركين قبل وقت كاف بموعده، والمشاركين فيه، وجدول الأعمال ومتطلباته السابقة، كما ينبغي على مدير الجلسة أن يجيد إدارة دفة النقاش، ودفع المشاركين التابعين والمنسحبين وقليلي المشاركة إلى المشاركة، كما أن عليه أن يكبح جماح المستأثرين بالمشاركة والساعين إلى فرض آرائهم بطرائق مناسبة.

ـ تحديد المشكلة بدقة:

يحدث تداخل بين مظاهر المشكلة وأسبابها، فتتم دراسة مشكلة الدوران الوظيفي بوصفها مشكلة، بينما قد يكون الدوران الوظيفي مظهراً لمشكلة سوء المناخ التنظيمي؛ لذا ينبغي بذل جهد في تحديد المشكلة قبل البحث في أسبابها وعلاجها، وقد يتم هذا عن طريق عقد اجتماع خاص بدراسة المشكلة وتحديدها بدقة.

علاقة درجة المشاركة في اتخاذ القرار بالنمط القيادي

تصنف أدبيات الدراسات الإدارية الأنماط القيادية إلى ثلاثة أنماط رئيسة هي: النمط الفردي (الأوتوقراطي)، والنمط الديمقراطي، والنمط الترسلي. وسنقصر تداولنا لعلاقة درجة المشاركة في اتخاذ القرار بالنمط القيادي على النمطين الأولين؛ لأن النمط الترسلي أقلها انتشاراً، ولأنه يعتمد على الحد الأدنى من التنظيم الإداري والضبط، حيث يعمد إلى التركيز على تسيير دفة العمل الآني والانتهاء من المواقف الحاضرة دون تخطيط كاف، ومن ثم كثيراً ما يكون القرار ارتجالياً ووليد اللحظة.

أولاً: درجة المشاركة في اتخاذ القرار في النمط الأوتوقراطي

يتميز النمط الأوتوقراطي بتركز السلطات في يد فرد هو المدير اعتماداً على السلطة الرسمية، ويميل المدير الأوتو قراطي إلى إجبار العاملين على إنجاز العمل بالاعتماد على النظام والقانون.

ويتوزع سلوك المديرين الأوتوقراطيين في مدى واسع في ممارستهم للمشاركة في اتخاذ القرار تبعاً لدرجة تبني المدير للنمط الأوتوقراطي. ويمكن تصنيف مدى الأسلوب الأوتوقراطي كالآتي:

ـ النمط الأوتوقراطي المتسلط:

وهو النمط القيادي الذي يعمد إلى تسيير دفة العمل بالاعتماد على الجزاء والعقاب للمقصر، أما من حيث مشاركته للعاملين معه في اتخاذ القرار

> أبرز المآخذ على المشاركة في اتخاذ القرار هو طول الوقت اللازم للوصول إلى القرار

فتكاد تكون معدومة، ويعتمد في اتخاذه للقرارات على القائد منفرداً. ومن ثم يكون حظ هذه القرارات الصادرة عن القائد الأوتوقراطي المتسلط في النجاح محدوداً جداً حتى ولو كانت صحيحة؛ لأن المتأثرين بالقرار والعاملين على تنفيذه غير مستعدين لتنفيذه لشعورهم بأن القرار مفروض عليهم.

ـ النمط الأوتوقراطي الصالح:

وأقرب مثال لهذا النمط هو الأب، حيث يحرص القائد الأوتوقراطي الصالح على مرؤوسيه ويحبهم، ولكنه لا يشاركهم في اتخاذ القرار، وإنما يعهد إلى شرح مزايا قراره ومسوغاته وإقناعهم بها لضمان قبولهم بالقرار والعمل على إنجاحه.

ـ النمط الأوتوقراطي المتعامل:

وأقرب مثال لهذا النمط رجل المبيعات، الذي يلجأ إلى الاستماع إلى زبائنه ليس حباً فيهم، ورغبة في فهم وجهة نظرهم، بقدر ما تكون المشاركة والاستماع

تمهيداً ليعرض عليهم ما لديه.

وهكذا يكون القائد الأوتوقراطي هو المتعامل الذي لا يؤمن أصلاً بالمشاركة، ولكن يعمد إليها بغرض الحصول على موافقتهم وتقبلهم لقراراته؛ ولذا فإنه لا يشبع النقاش بهدف بناء يترتب عليه تغيير القرارات في حال إقناع القائد.

ثانياً: درجة المشاركة في اتخاذ القرار في النمط الديمقراطي

يتيح نمط القيادة الديمقراطي للمرؤوسين المشاركة في اتخاذ القرار، سواء بدرجة كاملة بحيث يترك للمرؤوسين أمر اتخاذ القرار تماماً، ويقبله القائد، أو قد يطرح موضوعاً معيناً، ويطلب من مرؤوسيه مناقشته والمشاركة في اتخاذ قرار بشأن تحديد نوعية الأجهزة التي يمكن توفيرها لقسم الحاسب الآلي مثلاً.

ويضمن نمط القيادة الديمقراطية فرصة كبيرة لنجاح القرار، لإقتناع المرؤوسين به، وتجنيدهم له؛ لكونه صادراً من عندهم، وليس مفروضاً عليهم.

> يضمن نمط القيادة الديمقراطية فرصة كبيرة لنجاح القرار، لاقتناع المرؤوسين به، وتجنيدهم له؛ لكونه صادراً من عندهم، وليس مفروضاً عليهم

العوامل المؤثرة في المشاركة في اتخاذ القرار

تفرض بعض الظروف على المدير اتخاذ القرار بشكل منفرد، ولكن تبقى هذه القرارات محدودة في عددها بحدود الظروف التي أجبرت المدير على اتخاذ قراره المؤثر في العاملين معه دون مشاركتهم. وقد عدد فروم ويتون(٦) Vroom and Yelton عدة شروط لابد من توافرها في عملية المشاركة في اتخاذ القرار:

- الرغبة الصادقة من القائد في إشراك مرؤوسيه في اتخاذ القرار.
- رغبة المرؤوسين في المشاركة في عملية اتخاذ القرار، لاقتناعهم بأهمية عملهم وجدواه، وليس على أنها عملية تمويه أو عملية صورية.
- الثقة المتبادلة بين الرئيس والمرؤوس في السعي إلى تحقيق الأهداف المشتركة.
- كفاية الوقت المتاح للمشاركة في اتخاذ القرار، إذ تتطلب المشاركة وقتاً أطول من الانفراد في اتخاذ القرار، وقد يجبر الوقت الضيق المدير على اتخاذ القرار بمفرده.
- سرية القرار، فالقرارات السرية تتعذر المشاركة فيها.
- نوعية القرار، فالقرارات البسيطة والعادية الرتيبة (الروتينية) لا تحتاج إلى المشاركة لأن القرارات تكون آلية، بعكس القرارات المهمة وذات التأثير في المرؤوسين.

المراجع والهوامش

١. حامد أحمد بدر، فعالية اتخاذ القرار بواسطة مجموعة، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، المجلد ١٣، العدد الأول، ١٩٨٥م.

٢. نواف كنعان، اتخاذ القرارات الإدارية بين النظرية والتطبيق، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣. المرجع السابق.

٤. سعود محمد النمر، السلوك الإداري، الرياض، جامعة الملك سعود، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، وفعالية اتخاذ القرار بواسطة مجموعة (مرجع سابق).

٥. فعالية اتخاذ القرار بواسطة مجموعة (مرجع سابق).

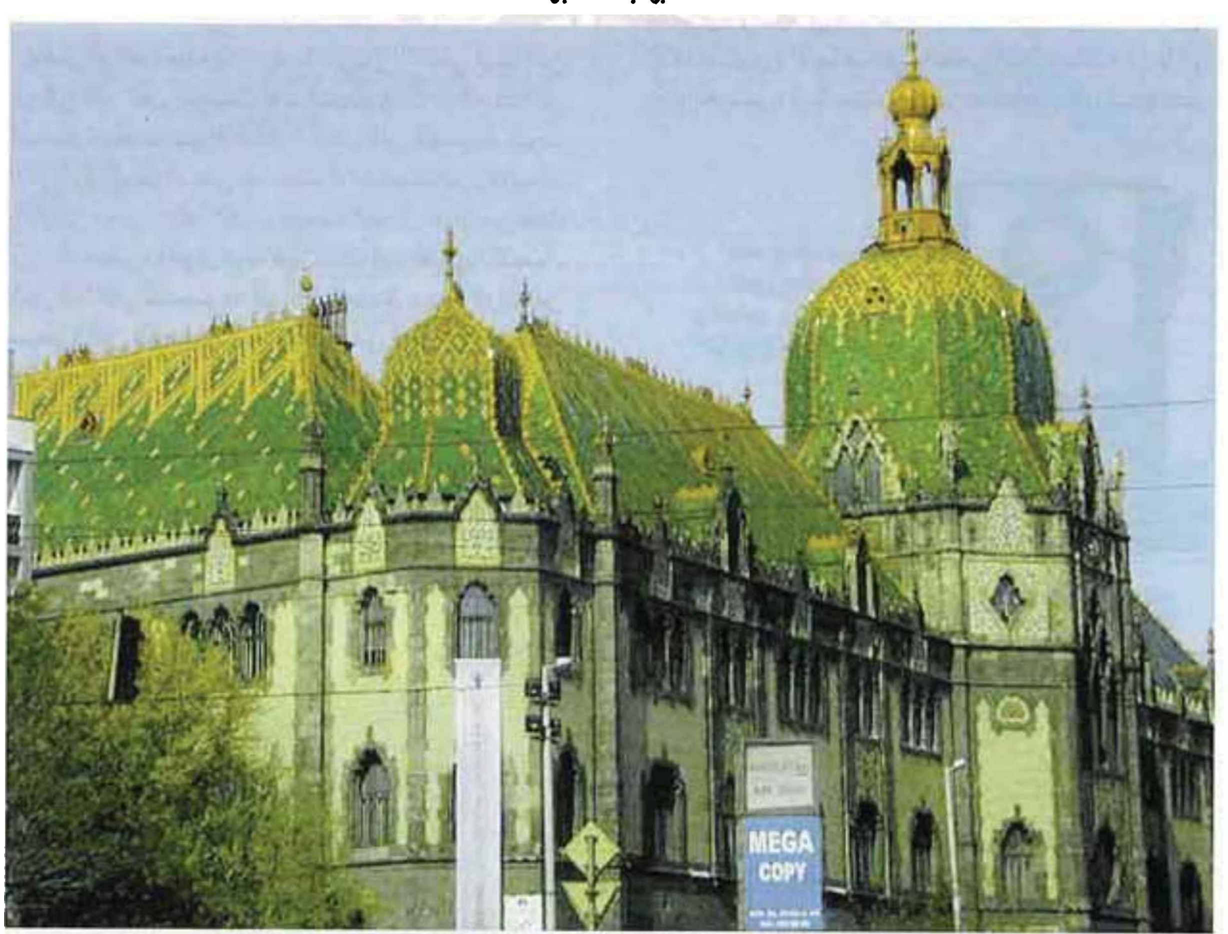
٦. السلوك الإداري (مرجع سابق).

- محمد عبدالله البرعي، مبادئ الإدارة والقيادة في الإسلام: دراسة مقارنة، الدمام: النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- محمد عبدالله البرعي، عدنان حمدي عابدين، الإدارة في التراث الإسلامي جدة: مكتبة الخدمات الحديثة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- محمد إبراهيم التويجري، محمد عبدالله البرعي، الأسلوب القويم في صنع القرار السليم، الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
- عبدالله أحمد قادري، الشورى، جدة: دار المجتمع للنشر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٧٦م.
- كمال نور الله، مهارات القائد الإداري، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩٢م.
- وليام مور، هربث مور، حلقات الجودة، الرياض: معهد الإدارة العامة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

في متحف الفنون الصناعية ببودابست:

ملامح من الفن الحديث

ثائر صالح
بودابست. المجر



بناية متحف الفنون الصناعية (التطبيقية) من الخارج

يقام في متحف الفنو ن الصناعية ببودابست معرض وقتي عن المدرسة الفنية المعروفة بالفن الحديث Art Nouveau، وهو الفن الذي ازدهر في أواخر القرن التاسع عشر، واستمر تأثيره حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، وبعدها بقليل. وقد قضت الحرب العالمية الأولى ببشاعتها على هذا الفن الأنيق الرقيق.

وتعدّ هذه المدرسة آخر المدارس الفنية العظيمة التي اكتسحت أوربا، وسادت فيها دون منازع قبل أن تتعدد المدارس والفرق الفنية بعد الحرب العالمية الأولى بظهور الواقعيات، ومدارس الحداثة المختلفة، كالسريالية، والتكعيبية وغيرها، ولا يمكن نكران الدور المهم للسياسة والأيديولوجيا في تغير الذوق الفني لأوربا بعد الحرب الأولى، نذكر بشكل خاص تأثير ثورة أكتوبر/تشرين الأول في روسيا القيصرية، وظهور الاتحاد السوفيتي، واشتداد الصراع بين الكادحين والرأسماليين، واندلاع الثورات الاشتراكية في ألمانيا والمجر في عامي ١٩١٨ و ١٩١٩م، وما عكسته هذه الظواهر والأحداث من نزعة إلى أدلجة الفن.

فنّ للأثرياء والفقراء

وكان لفرنسا وبلجيكا، وهما الموطن الأصلي لهذا الفن دور في نشر الفن الحديث، فقد أنتجت هناك روائع فنية في العمارة وتصميم الأثاث، إذ دخل الفن الحديث بيوت الأثرياء والفقراء على حد سواء. فالستائر والوسائد والأواني وحتى أغلفة الكتب اتبعت الطراز السائد، وتلقفت أوربا الوسطى، وأقوى دولة فيها آنئذ، إمبراطورية النمسا ـ المجر هذا الفن لتسمو به إلى آفاق بعيدة. وعلى الرغم من سيطرة الفن الحديث على الكثير من الفنون الصناعية كالعمارة والديكور، والطباعة، وصناعة الأثاث وغير ذلك، فإن تأثيره في الفنون التشكيلية والموسيقية كان ضعيفًا، ومع ذلك نكتشف في موسيقى الفرنسيين كلود ديبوسي ١٨٦٢ ـ ١٩١٨م، وموريس رافيل ١٨٧٥ ـ ١٩٣٧م، الكثير من ألوان الفن الحديث وخطوطه وأناقته وروحيته، ويبقى الفنان التشكيلي النمساوي غوستاف كليمت أعظم ممثلي الفن الحديث وأشهرهم. كما ارتبط الفنان الفرنسي الكبير تولوز لوتريك بهذا الفن في ملصقاته الشهيرة التي روجت لحانات باريس وملاهيها، مثل مولان روج.

ويمكن تصنيف الفن الحديث على أنه فرع من فروع المدرسة الانطباعية، إذ نلمس فيه أيضًا الأهمية القصوى للألوان، ولا يمكن فصل ظهور هذا الفن عن التطور الاقتصادي والاجتماعي والعلمي الذي وصلته أوربا في ذلك العصر؛ فالصناعة قد ترسخت وتطورت بفضل



مقعد بمسند من خشب الجوز مطعم بالنحاس والقصدير والعاج، إيطاليا، من بداية القرن العشرين

بناية فندق وحمام غليرت من الخارج

عاملين هما: تقدم التقنية، والنهب الاستعماري المتواصل والكثيف لثروات المستعمرات. وفي ذلك الوقت بدأت ثمرة الرخاء في أوربا تنضج بعد أن رويت بعرق شعوب المستعمرات وجيوش العمال ودموعهم ودمائهم، والذين كانوا يعيشون في ظروف حياتية بائسة. وأخذت الاكتشافات العلمية العظيمة في الكيمياء والفيزياء تتوالى في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومنها ما كان له صلة مباشرة بالفنون كابتكار التصوير الفوتوغرافي. ولا ننسى أن روحية العصر التي سادت عند ولادة القرن العشرين كانت نابعة من العلم والصناعة واشتداد الحراك الاجتماعي، وهي التي حددت معالم الاتجاهات الفنية أكثر من أي وقت مضى.


منضدة زينة فرنسية، تصميم بيير كليمن ١٨٩٥ - ١٩٠٠م


مزهرية من النحاس المطلي بالفضة والمينا، تصميم فرنسي وتنفيذ الفنان المجري باكاب رابابورت في ١٩٠٢م


مزهرية من تصميم ستيفان بوسيغ صنعت في المصنع الملكي الدانماركي للخزف، كوبنهاغن ١٨٩٧م


صورة فتاة من نحاس مطعم بالمينا الملونة

انحناءات أنثوية

يتميز الفن الحديث بحرية الخطوط وانحناءاتها الأنثوية وبحسيتها، وبالإكثار من استعمال درجات اللون الأحمر، والتركيز الخاص في اللونين الذهبي والأزرق الشذري في الرسم، واستعمل الفنانون الزهور والأوراق النباتية والطيور في الزخرفة، ووصل الفن الحديث أبعادا غير مطروقة في العمارة، مثل الأقواس الواطئة، ونبذت الزوايا القائمة التي استبدلت بالأقواس الصغيرة والانحناءات الليّنة والزوايا المنفرجة.. واستعمل المصممون المعماريون قبابا بيضوية الشكل للمباني لم تكن مستعملة في العصور الفنية السابقة، وجرى أحيانا كسر التناظر العمودي في البناء عن طريق تغيير شكل الشبابيك في الطوابق المتتالية، وكان المعماريون يزينون واجهات الأبنية بلوحات فنية من الفسيفساء الملونة إلى جانب السيراميك. وبتأثير من الحماسة التي عمت الغرب تجاه فنون الشرق وآدابه وحضاراته، استعمل الفن الحديث الكثير من المفردات الفنية الشرقية، وعالج مواضيع شرقية.

وتزخر بودابست بأبنية الفن الحديث، وذلك للنهضة العمرانية الهائلة التي شهدتها البلاد بعد الوفاق السياسي الذي حصل بين الأرستقراطية المجرية والحكم النمساوي في عام ١٨٦٧م؛ مما أدى إلى إعلان الحكم الثنائي (النمسوي - المجري)، وجاء الوفاق بعد عقدين من إخفاق الثورة التحررية المجرية ضد حكم آل هابسبورغ التي قامت في عامي ١٨٤٨ و ١٨٤٩م. كذلك صادف الاحتفال الكبير


واجهة محطة القطار الغربية

بالذكرى الألفية لقدوم القبائل المجرية إلى حوض جبال الكاربات في أواسط العقد الأخير من القرن التاسع عشر وصول الفن الحديث القمة. ومجد المجريون هذه الذكرى ببرنامج بناء واسع، فاق كل ما سبق وما تلا هذه المناسبة.

بنايات متميزة

ومن بين هذه الأبنية تعد بناية متحف الفنون الصناعية ذاتها واحدة من أروع أمثلة الفن الحديث في بودابست، دشنها إمبراطور النمسا - المجر فرانتس يوزف الثاني في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٨٩٦م.

صمم بناية أدن لشنر، ونفذ التصاميم عدد كبير من أشهر الفنانين المجريين، وتتميز واجهة البناية وقبتها بالآجر المطلي بالمواد الزجاجية الملونة «السيراميك، الفايانس أو ما يعرف عندنا بالقيشاني»، وقد تضررت بناية المتحف بشكل متعمد في نهاية العشرينيات عندما تم تدمير عدد من اللوحات الجدارية داخل المتحف، كما تدمر مدخله بشكل شديد خلال الحرب العالمية الثانية، ولم تتم إعادة النقوش الأصلية الجميلة بشكل كامل، ومن بين أشهر أبنية بودابست الأخرى المبنية وفق أسلوب الفن الحديث، حمام سيتشني للمياه المعدنية الساخنة في حديقة الشعب قرب ساحة الأبطال، وفندق حمام غليرت المعدني في بوادا الذي يطل على نهر الدانوب. أما بناية السوق الرئيسة في بودابست فهي واحدة من أهم المحطات التي يزورها السياح الأجانب، وتتميز بقرميدها الملون الذي يشبه قرميد سقف بناية متحف الفنون الصناعية. وتعد البناية الباريسية الواقعة في مركز المدينة عند ساحة الفرنسسكان، قرب جسر إليزابيث، بين أجمل أبنية بودابست، وتتميز باستعمال السيراميك الملون والزجاج، وفيها ممر داخلي صنع سقفه من الخشب والزجاج الملون، وشيدت هذه البناية في عام ١٩٠٩م، ولعل بناية محطة القطار الغربية هي الأشهر من بين الأبنية العامة في بودابست، وقد صممها المعماري الفرنسي الشهير إيفل، الذي صمم برج إيفل الشهير في باريس، واستعمل إيفل في بناء المحطة كميات كبيرة من الهياكل الحديدية، وهناك زخرفة باذخة صنعت من الحديد المطروق والمسبوك.

وتعد بناية بلدية مدينة كَتْشكَميت التي تبعد ٨٥كم جنوب شرق بودابست هي أيضاً من بين روائع هذا الطراز، وتزخر الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية النمسوية - المجرية بأمثلة قيمة من الأعمال الفنية التي أنتجها هذا الفن، عرض بعضها في المعرض الذي ضم الأثاث والأدوات المنزلية، مثل المصابيح الكهربائية والحلي والستائر وزجاج الشبابيك الملون. ويجيء هذا المعرض في بودابست بمنزلة تذكير بالجماليات التي أنتجها هذا الفن في أوربا بعد قرن كامل من وصوله القمة.

يضم المعرض نماذج من هذا الفن جمعت من مختلف البلدان، مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا وإيطاليا والدول الإسكندنافية وكندا وأمريكا واليابان علاوة على النمسا - المجر. ومن بين أثمن التحف المعروضة نجد عدداً من الشبابيك أو اللوحات الزجاجية الملونة، بينها لوحات من الزجاج الملون لكابينة تليفون كانت موجودة في المقهى الياباني ببودابست، صمم اللوحات الفنان المجري الشهير يوجف ربل - روناي، ونفذها أحد أشهر صانعي الزجاج الملون في أوربا الوسطى ميكشا روت في عام ١٩٠٤م. وميكشا روت (١٨٦٥ - ١٩٤٤م) هو الذي صنع زجاج الشبابيك الملون في أهم أبنية بودابست، مثل بناية البرلمان المجري، وحمام سيتشيني، ودار الوثائق المجرية، وأكاديمية فرنتس ليست للموسيقى، وامتدت شهرته خارج حدود إمبراطورية النمسا - المجر، فوصلت شبابيكه الملونة بعيداً لتزين المسرح الوطني في المكسيك، والقصر الملكي في هولندا.

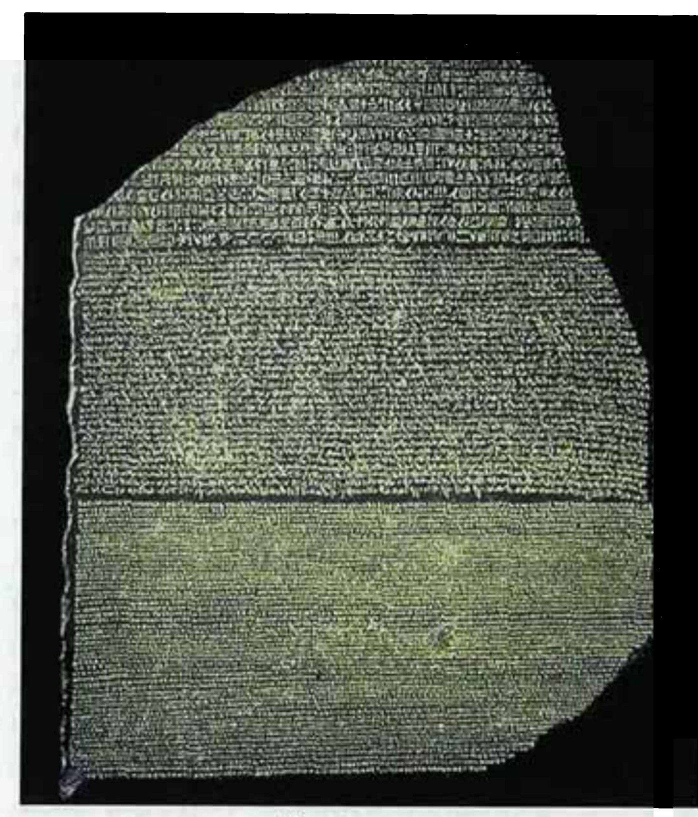
لكن أجمل ما يمكن رؤيته في المعرض هو وجه فتاة رسم باستعمال الطلاء بالزجاج على المعدن، وهو التكنيك الذي عرفه صاغة الذهب والفضة عندنا منذ قرون، ويسمونه الطلاء بالمينا. هذه اللوحة الصغيرة التي أطرت بالمخمل هي من روائع هذا الفن، صنعت في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، في بودابست.



حجر رشيد: انفتاح بعد الظلام

إيهاب فاروق محمد أحمد
القاهرة - مصر

لقد أهملت الآثار ودراساتها وانطوت في زوايا النسيان، بل تعرض جانب كبير منها للتدمير والاندثار، بعد أن انمحت الوثنية من مصر، وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام، وظل الأمر كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر إذ سلطت الأضواء على تلك الآثار، وبدأ العلماء في البحث والكشف عنها، ودراستها دراسة علمية حديثة، فوصلوا إلى الكثير من أسرار أصحابها، مما أتاح الفرصة لإعادة كتابة التاريخ المصري القديم، وكشف النقاب عن أصول الحضارة المصرية القديمة.



حجر رشيد

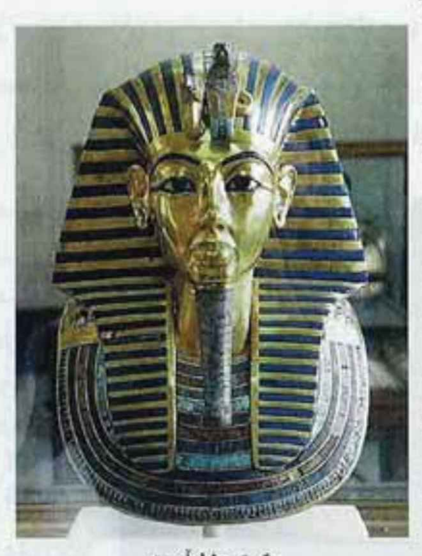
وقد تم ذلك في خطوات ثلاث متعاقبة، جاءت الخطوة الأولى منها في ركاب حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م والتي كانت تحوي مجموعة من علماء فرنسا الذين وفدوا إلى مصر بانتمائهم لهيئتين منفصلتين كان لكل منهما قوامها الخاص بها - ولا يربط بينهما سوى صلة العلم وتضافر الجهود العلمية فحسب، هما «لجنة العلوم والفنون» التي تألفت في فرنسا كجزء من الحملة الذاهبة إلى مصر، أما الثانية فهي هيئة «المجمع العلمي المصري» Instituted, Egypte وقد تم تشكيلها في مصر بعد أن دخل بونابرت القاهرة. وقد اختار بونابرت العالم مونج لرئاسة هيئة العلماء الذاهبة إلى مصر، التي شكلت من المتخصصين في علوم الفلك والرياضة والكيمياء والطبيعة كافة، ومن المعماريين، ومهندسي الطرق والجسور، والجغرافيين، ومهندسي السفن، وعلماء الحيوان، وعلماء النبات، والرسامين الموسيقيين، والأدباء، وعلماء الآثار، والاقتصاديين، وعمّال الطباعة، والمستشرقين، وكان إجمالي عدد من حضروا فعلاً إلى مصر من العلماء (١٧٥) عالمًا، وقد وصف هؤلاء العلماء ودرسوا جميع آثار البلاد

ومعالمها التاريخية، وأخرجوا نتيجة أبحاثهم جميعاً في كتاب علمي ضخم هو كتاب «وصف مصر» Description d, Egypt، ويعدّ ما جاء في هذا المؤلف الكبير عن آثار مصر، من وصف وشرح وتعليل ورسوم وصور وخرائط، إحدى الدعامات التي قامت عليها الدراسات المصرية Egyptology.

اكتشاف حجر رشيد

وبدأت الخطوة الثانية بالعثور على حجر رشيد، وحلّ رموز اللغة المصرية القديمة، فقد نزل زهاء عشرين عالمًا بمدينة رشيد بمنزل أحد التجار الفرنسيين بالمدينة للكشف عن الآثار القديمة في الوجهين البحري والقبلي، والذي يعنينا الآن ذكره ما عثر عليه هؤلاء العلماء من آثار في الوجه البحري وأبرزها على الإطلاق: «اكتشاف حجر رشيد».

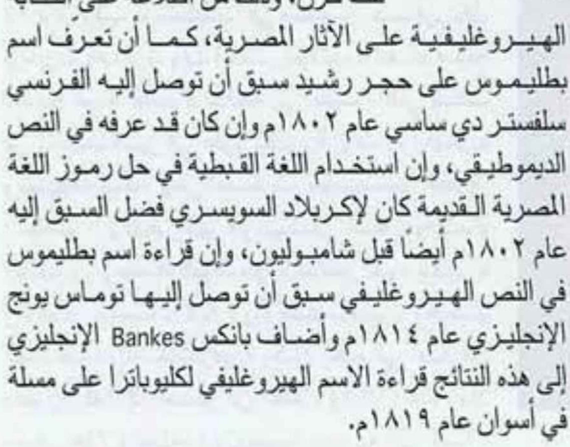
أمر نابليون بونابرت بعمل تحصينات في رشيد، وبناء قلعة على شاطئ النيل الأيسر في منطقة البوغاز، فذهب الضباط المهندسون إلى كشف شبه الجزيرة الصغيرة المحصورة بين النيل والبحر الأبيض، وبحيرة المعدية، وجرت الاستكشافات تحت إشراف دوتبول D'Hautpoul الضابط المهندس، والكابتن بوشار Bou-chard (١)، وقد اقتنع كلاهما بأن خير مكان لإنشاء هذه التحصينات هو موضع تلك القلعة القديمة التي بناها السلطان الأشرف قايتباي، والتي ظلت بقاياها تعرف باسم «برج رشيد»؛ وما إن تقرر ذلك حتى بدأ الحفر لإقامة القلعة، فعثروا على بقايا أبنية مصرية قديمة، كان السلطان شيد عليها قلعته، وبين خرائب هذه الأبنية المصرية القديمة عثر الكابتن بوشار على حجر رشيد نحو منتصف شهر يوليو/ تموز عام ١٧٩٩م، وهو حجر من البازلت الأسود طوله نحو ١١٤سم، وعرضه نحو ٧٧سم، وسمكه نحو ٢٨سم. وقد وجدوا نقوشاً على وجه واحد منه فقط تمثل ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن بعض، أما النقوش العليا فكانت أربعة عشر سطراً باللغة الهيروغليفية، يليها اثنان وثلاثون سطراً لم يعرف المكتشفون عنها شيئاً في بداية الأمر حتى اتضح أنها كتابة ديموطيقية، أما النقوش التي تليها فكانت في أربعة وخمسين سطراً باللغة اليونانية القديمة، وهي


توت عنخ آمون

لغة البلاط الرسمية وقتئذ، وقد تم إرسال هذا الحجر في النيل من رشيد إلى القاهرة في أواسط أغسطس/ آب من العام نفسه حتى يفحصه المجمع العلمي، وأنزل في بولاق، وقضى العلماء الموجودون في القاهرة أسابيع طويلة يحاولون حل رموزه، وشرع الرسامون يرسمون الحجر وما عليه من نقوش مصرية بدقة عظيمة، وحاول مارسيل بوصفه مديراً للمطبعة الأهلية أن يطبع النقوش الموجودة على هذا الحجر على عدة صور، ونجح في غرضه؛ وذلك بأن غسل الحجر بمحلول من الملح المخفف، ثم تركه، ثم صب عليه حبر الطباعة، ووضع عليه الورق وحصل على بروفات ناجحة في ٢٤ يناير/ كانون الثاني ١٨٠٠م.

علماء شاركوا في الإنجاز

وعندما تبيّن كونتيه Conte نجاح هذه العملية أراد أن يستخدم الطريقة المتبعة في طبع الصور والحروف المحفورة على المعادن «طريقة الكالكو جراف Chalcographie»، ونجحت هذه التجربة كذلك، وفي الحقيقة هناك مجموعة من العلماء كان لهم الفضل في بذل جهد متميز لتعرف أسرار الكتابة المصرية القديمة، وبنى عليها شامبوليون CHAMPOLLION وأكمل تلك الجهودات بعبقرية ذاتية من عنده.



إن معرفة الخراطيش المرسومة على حجر رشيد، والتي تحوي أسماء ملوك سبق أن توصل إليها ج بارتلمي عام ١٧٦٢م، أي قبل كشف حجر رشيد بنحو ثلث قرن، وذلك من اطلاعه على الكتابة الهيروغليفية على الآثار المصرية، كما أن تعرف اسم بطليموس على حجر رشيد سبق أن توصل إليه الفرنسي سلفستر دي ساسي عام ١٨٠٢م وإن كان قد عرفه في النص الديموطيقي، وإن استخدام اللغة القبطية في حل رموز اللغة المصرية القديمة كان لإكربلاد السويسري فضل السبق إليه عام ١٨٠٢م أيضاً قبل شامبوليون، وإن قراءة اسم بطليموس في النص الهيروغليفي سبق أن توصل إليها توماس يونج الإنجليزي عام ١٨١٤م وأضاف بانكس Bankes الإنجليزي إلى هذه النتائج قراءة الاسم الهيروغليفي لكليوباترا على مسلة في أسوان عام ١٨١٩م.

كل هذه النتائج وصلت إلى شامبوليون قبل أن يتوصل إلى إنجازاته في حل رموز اللغة المصرية القديمة، فقد كان هؤلاء العلماء يرسلون ما يتوصلون إليه إلى الهيئات العلمية في أوربا، فوصلت إلى يد شامبوليون واستعان بها فيما توصل إليه من إنجازاته الأولى، مثل قراءة أسماء بعض ملوك وملكات البطالمة، وأسماء أباطرة الرومان، وأرسل هذه النتائج في خطابه المشهور إلى أمين أكاديمية العلوم والفنون في عام ١٨٢٢م. والحقيقة أن هذه القراءات لم تكن أمراً صعباً أمام شامبوليون؛ لأن هذه الأسماء كانت كلها مكتوبة بالحروف الأبجدية الهيروغليفية، فقد كانت هذه الطريقة هي التي اتبعها الكهنة والكتاب المصريون القدماء في كتابة الأسماء الأجنبية من بطلمية ورومانية.

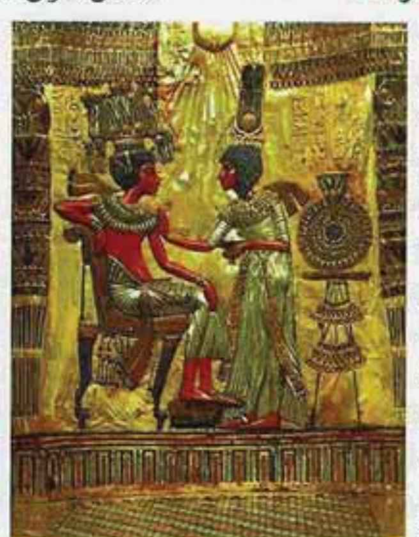
أول من قرأ أسماء ملوك الفراعنة

فإذا كان شامبوليون قد استفاد من جهود من سبقوه في التوصل إلى إنجازاته المبكرة، فماذا كان دوره إذن؟ وفيم كانت عبقريته؟ الحقيقة أن عبقرية شامبوليون تجلت أولاً في أنه أول من قرأ أسماء الفراعنة، لأن هذه الأسماء كتبت بعلامات هيروغليفية تختلف عن العلامات التي كتبت بها أسماء ملوك البطالمة وأباطرة الرومان (التي كانت علامات أبجدية). وثانياً؛ لأنه نبذ الفكرة التي كانت سائدة بين العلماء الذين سبقوه، والتي كانت سبباً في إخفاقهم في التقدم في قراءة الكتابة الهيروغليفية (أكثر من قراءتهم لأسماء البطالمة والرومان)، وهذه الفكرة هي اعتقادهم أن العلامات الهيروغليفية كلها هي علامات رمزية Symbalic، بمعنى أن العلامة الواحدة تعبر عن معنى كامل أو عن كلمة كاملة أو عن معنى متصل بشكلها ومثال ذلك العلامة التي ترسم على شكل «عين الإنسان» فهي تنطق «إر» وتعني العين نفسها أو معنى يتصل بها مثل الرؤية وما يشبه ذلك. ومن هنا أخفقت جهود هؤلاء العلماء في التقدم في حل رموز حجر رشيد؛ لأن العلامات الهيروغليفية على هذا الحجر لم تكن كلها علامات رمزية.

إن نجاح شامبوليون في قراءة أسماء الفراعنة التي أخفق في قراءتها من سبقوه؛ لأنها مكتوبة بعلامات تختلف عن العلامات الأبجدية التي كتبت بها أسماء ملوك البطالمة وأباطرة الرومان، إن نجاحه هذا قد اعتمد فيه على ثلاث وسائل هي:

أولاً: اسم الملك رمسيس المكتوب بالهيروغليفية على جدران معبد أبي سمبل (وقد وصلت إليه نسخة من نقوش هذا المعبد عن طريق أحد أصدقائه ممن زار مصر).

ثانياً: ترجمت مفردات هذا الاسم على حجر رشيد في النص اليوناني، وبالطبع فاسم رمسيس لم يرد على حجر رشيد، ولكن ورد بمفرداته ضمن كلمات أخرى، وهي كلمة «رع» وكلمة «م س»، إذ وجد شامبوليون أن ما يقابل كلمة رع الهيروغليفية في النص اليوناني هي كلمة Helios بمعنى «شمس»، وأن ما يقابل كلمة «م س» الهيروغليفية في النص اليوناني هي كلمة Genethlia بمعنى «ميلاد».



كنوز توت عنخ آمون لا تضارعها أي مجموعة أثرية

ثالثاً: مقابلة معاني هذه الكلمات في اللغة القبطية، إذ وجد أن الشمس تدعى في اللغة القبطية «رى» وأن الميلاد أو المولد يدعى في اللغة القبطية «م ى س ى» وعندئذ قفز إلى ذهن شامبوليون الاسم Ramses الذي أطلقه الكاهن المصري مانيتون على الملك رمسيس ضمن تاريخ مصر الفرعونية، الذي ألفه هذا الكاهن باللغة اليونانية في عصر البطالمة، وكانت تلك هي البداية التي عرف خلالها شامبوليون أن العلامات الهيروغليفية ليست كلها علامات أبجدية، وليست كلها علامات رمزية Symbolic، بل إن العلامة الواحدة يمكن أن تستخدم، بالإضافة إلى ذلك، علامةً صوتيةً، ومثال ذلك علامة العين التي ذكرناها والتي تنطق «إر»، فبالإضافة إلى استخدامها علامةً رمزية، أي بمعنى «عين» أو «الرؤية» يمكن أن تستخدم كعلامة صوتية مثل استخدامها في كلمة « إر ـ ت ت» بمعنى «لبن حليب» فهنا فقدت العلامة خاصيتها الرمزية تماماً، ولم يعد لها أي صلة بالعين أو الرؤية أو ما يتصل بهما، بل صارت مجرد صوت (أو صوتين) تنطق في نطاق كلمة «ارتت».



بهذه الطريقة عرف شامبوليون حقيقة الكتابة

الهيروغليفية، وأن علاماتها ليست كلها رمزية، وليست كلها أبجدية، وهنا تجلت عبقريته عندما تتبع العلامات الهيروغليفية على حجر رشيد، وأخذ يقرؤها على هذا الأساس، وتوصل بذلك إلى حل رموز الحجر، بل قراءة نصوص هيروغليفية أخرى، وأصدر عن ذلك كتابه المشهور «المختصر في نظام الكتابة الهيروغليفية عند قدماء المصريين» في عام ١٨٢٤م.

علماء وتلاميذ

وقد مهدت معرفة اللغة المصرية للخطوة الثالثة وهي اهتمام الجامعات والمؤسسات العلمية بالآثار المصرية مما أدى إلى ظهور عدد كبير من العلماء خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أنفقوا جهوداً جبارة في التنقيب عن الآثار، والقيام بالحفائر العلمية المنظمة، ثم تسجيل النقوش


شامبوليون


شامبوليون في زي عربي

والرسوم، ووصف الآثار، وقراءة النصوص، ثم دراسة ما وصفوه وسجلوه وكشفوه دراسة علمية تستهدف استنباط أصول التاريخ المصري القديم، ومقومات الحضارة المصرية القديمة.

ونذكر في هذا المقام من علماء الجيل الأول - على سبيل المثال - العالم الإيطالي روزليني Rosellin والعالم الألماني لبسيوس Lepsius، اللذين أشرفا على بعثتين قامتا عامي ١٨٢٨م و ١٨٤٥م على التوالي بتسجيل معظم الآثار المصرية ووصفها وصفاً منظماً.

وكذلك تجب الإشارة إلى العالم الفرنسي ماربيت Mariette الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء المتحف المصري، ثم العالم الألماني بروكش Brugsch الذي أنشأ في مصر مدرسة لتثقيف المصريين من الناحية الأثرية فخرّجت من العلماء المصريين أحمد كمال باشا، وأحمد نجيب بك، وقد أثارت بعض الكنوز التي كشفت عنها الحفائر دهشة العالم وإعجابه، مثل كنوز الفرعون الصغير توت عنخ آمون التي لا تضارعها أي مجموعة أثرية أخرى في العالم، والتي عثر عليها هوارد كارتر H. Carter في مقبرة بوادي الملوك.

وقد تأصل هذا الاهتمام، خصوصاً بنهاية هذا القرن، بالولع «الهوس» الفرنسي - الإيطالي (الأوربي عموماً) بالآثار المصرية القديمة(٢). وعن سر انتشار ظاهرة الولع بمصر في أوربا خلال السنوات الأخيرة، وفي فرنسا على وجه خاص، أكد روبير سوليه(٣) المولود في مصر الجديدة، أن الولع بمصر ليس «موضة» أو نزوة عابرة تجتاح أوروبا، وإنما هو تقدير يرجع إلى عصور سحيقة، وله عدد من المسوغات، فهناك - أولا - المنجز المادي للحضارة المصرية القديمة، إضافة إلى الموقع الجغرافي لمصر على شاطئ المتوسط، الذي يجعلها قريبة من أوربا، وفي الوقت نفسه يجعل منها الشريك الأساسي لصياغة أي خريطة للعلاقات الدولية على شاطئ المتوسط بالإضافة إلى أنها قلب «الشرق» الذي ظل عدة سنوات يرهب الغرب ويخيفه، ويسحره ويلهب خيال أجيال متتالية من الرومانسيين في الفن والأدب والمولعين بالتاريخ، كما أن فكرة الولع نفسها كانت وراء الأسئلة التي توالت على رأس سوليه، وفتحت من جديد ملف العلاقات المصرية الفرنسية، الذي دفعه إلى استعراض تاريخ تلك العلاقات بحيث أرجعه إلى تاريخ سابق على تاريخ الحملة الفرنسية التي قال عنها: إن وجهها العسكري هو وجه لا يمكن إخفاؤه أو التغاضي عنه، كما لا يمكن أيضاً إغفال الجوانب الثقافية والعلمية لها، والتي مهدت الطريق إلى إصلاحات محمد علي وخطواته التحديثية، وأشار سوليه إلى أن الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢م أعطى الفرصة لمزيد من التغلغل الفرنسي في الجوانب الثقافية، حتى إذا ما وصلنا إلى عام ١٩٣٧م نجد ٦٥ صحيفة ومجلة أجنبية كانت تصدر في مصر، منها نحو ٤٥ كانت تصدر بالفرنسية. وبفضل المدارس الفرنسية التي انتشرت في مصر، وبفضل توجه المثقفين والوطنيين من أصحاب النزعة الحرة (الليبرالية) إلى فرنسا أصبح هناك ولع فرنسي بمصر يمكن إدراكه من خلال الأعداد المتزايدة من السائحين الذين يفدون إلى مصر سنوياً، ومن خلال المشروعات التي تسعى فرنسا إلى دعمها

في مصر، لدرجة أن هناك فرنسيين يعتقدون الآن أن أجدادهم ليسوا من «الغال» فقط، وإنما هم أيضاً أحفاد للفراعنة، ومما قاله سوليه: إن المرحلة الحالية يجب أن تشهد دعماً للأوجه الإيجابية للولع الفرنسي بمصر من خلال تأكيد إنجازات حضارية تنتمي إلى الحاضر والمستقبل، ولا تتوقف عند الماضي.

وقد شهدت مدينة رشيد «غادة المتوسط»(٤) احتفالاً دولياً في ذكرى مرور ٢٠٠ عام على اكتشاف حجرها الشهير، وهو الاحتفال الذي أقيم بمشاركة عدد من العلماء المتخصصين في علوم المصريات والمهتمين بتاريخ رشيد في عصورها المختلفة.

وبدأ الاحتفال بكلمة الدكتور فاروق التلاوي محافظ البحيرة عارضاً فيها ما تم إنجازه من مشروعات لتحديث المحافظة وتنميتها، وواصفاً جانباً من الاحتفالات التي شهدتها مدينة فيجاك الفرنسية احتفالاً بالمناسبة ذاتها، وشارك فيها د. التلاوي، وشملت عروضاً للفنون الشعبية المصرية، إضافة إلى توقيع اتفاقية للتآخي بين مدينتي رشيد وفيجاك، وبدأ التفكير في تأسيس جمعية أهلية مصرية تأخذ على عاتقها مهمة إعادة اكتشاف مدينة رشيد لتكون بوابة لتنمية محافظة البحيرة ووضعها على خريطة الاهتمام لما تحتويه من آثار وإمكانات سياحية تجعل منها مدينة للمستقبل.

وبعد جولات سياحية للمشاركين في الندوة شملت زيارة عدد من البيوت الأثرية في رشيد مثل: منزل الأمصيلي، وحمام عزوز، وبيت زبيدة، وطاحونة شاهين، زار المشاركون في الاحتفالات قلعة قايتباي التي تم اكتشاف حجر رشيد في داخلها عام ١٧٩٩م.

ومن ناحية أخرى نظم المتحف البريطاني في لندن معرضاً ضخماً عن حجر رشيد بمناسبة مرور ٢٠٠ عام على اكتشافه. وفي حفل كبير حضره مئات من علماء الآثار وعشاق المصريات من جميع أنحاء العالم أزاح المتحف البريطاني الستار عن جناح خاص لا يحوي سوى حجر رشيد(٥).

وتقرر أن يكون عرض الحجر بشكله الجديد هو محور معرض يستمر حتى ١٩ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٠م بعنوان «فك الشفرات» ولأول مرة منذ دخول الحجر إلى المتحف البريطاني عام ١٨٠٢م ونجاح الباحث الفرنسي الشاب جان فرنسوا شامبوليون في فك رموزه عام ١٨٢٢م يعرض الحجر في جو أسطوري تاريخي يراه الرواد بعد دفع ٤ جنيهات إسترلينية. ومع أن عرض حجر رشيد يأتي ضمن مجموعة من المعروضات الأخرى في أماكن مختلفة من المتحف، وتتعلق بحضارات أخرى، فإن معظم الزوار الذين وصل عددهم إلى ٦ ملايين زائر يفدون إلى المتحف خصوصاً لرؤية حجر رشيد بعد تنظيفه ووضعه في مكان مميز، وأصبح المعرض بالنسبة إلى الزوار اكتشافاً للحجر التاريخي.

وفي الحقيقة نحن مدينون لشامبوليون الذي أطلق صيحة جديدة قال فيها: «انفتح كل شيء الآن بعد ثلاثة عشر قرناً من الظلام» وهو بالفعل قد أسدى أعظم خدمة للإنسانية بفك رموز حجر رشيد الذي أعطى إجابة عن سؤال ظل البشر يبحثون عن إجابته عدة قرون، وهو كيف تمكن المصريون القدماء من إنجاز كل هذه الصروح الحضارية الممتدة عبر القرون؟!!

الهوامش والمراجع

١. مدينة أورجوليه مسقط رأس الضابط الفرنسي بوشار مكتشف حجر رشيد احتفلت في ١٦ أكتوبر/تشرين الأول الماضي بمرور ٢٠٠ عام على اكتشاف حجر رشيد لتختتم بذلك سلسلة الاحتفالات التي شهدتها باريس، ومدينة فيجاك من قبل، وقالت هيلين مونوبار المستشار الثقافي للمدينة: إن الاحتفالات ستتضمن إزاحة الستار عن ميدان رشيد بالمدينة، وهو أكبر الميادين بها.

٢. في ظل الولع البريطاني الشديد بالآثار المصرية القديمة، أنشأ المتحف البريطاني أول موقع له على شبكة الإنترنت العالمية باسم «مصر القديمة» لخدمة الذين تستهويهم الأهرامات، وغموض المومياوات، والآثار القديمة على امتداد النيل. ويبث الموقع على عنوان - WWW. ancientegypt. CO. uk كما هائلاً من المعلومات والصور التي تغطي كل أوجه الحياة في مصر الفرعونية.

٣. هو الكاتب الصحفي الفرنسي مدير تحرير صحيفة «لوموند» وصاحب كتاب «مصر ولع فرنسي».

٤. يرجى قراءة تفصيلية عن تلك المدينة الأثرية الخلابة بمجلة الفيصل الزاهرة أعداد ١٤٧ - ١٦٩.

٥. نصت المادة (١٦) من معاهدة العريش عام ١٨٠١م على تسليم الفرنسيين للبريطانيين عدداً كبيراً من الآثار المهمة، سلم من بينها حجر رشيد الذي وصل إلى بريطانيا في فبراير/ شباط عام ١٨٠٢م حيث أودع في الجمعية الأثرية بلندن بضعة شهور، ثم نقل إلى المتحف البريطاني حيث يستقر الآن!!!

- تاريخ الحضارة المصرية «العصر الفرعوني» نخبة من العلماء، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية.
- عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر تأليف د. محمد فؤاد شكري، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، جماعة الأزهر الشريف للنشر والتأليف.
- مجلة الأهرام العربي عدد (١٣٢)، ٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٩م.
- عدة أعداد من جريدة الأهرام القاهرية [أرقام ٤١١٢٣ - ٤١١٢٧ - ٤١١٥٧ - ٤١١٩٤].

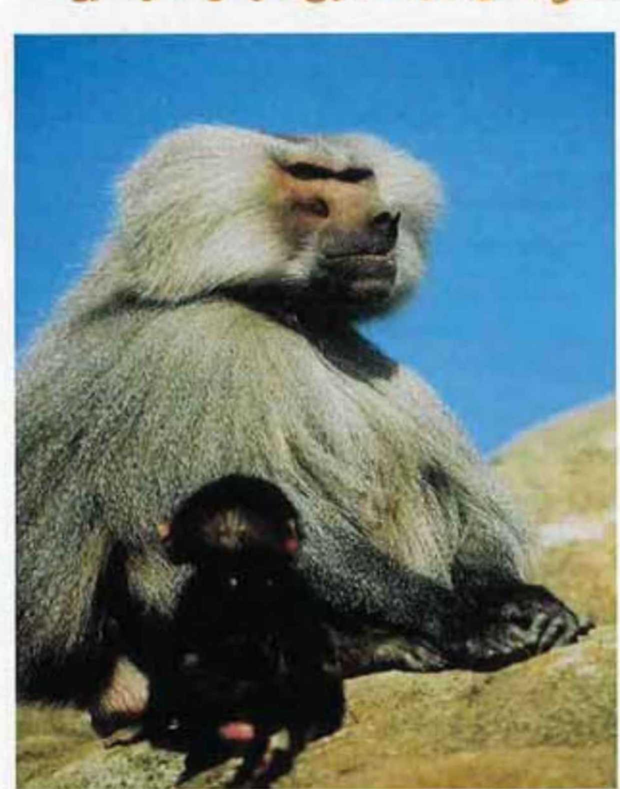
مجتمعات القرود

في الجزيرة العربية من التماسك إلى الانحلال

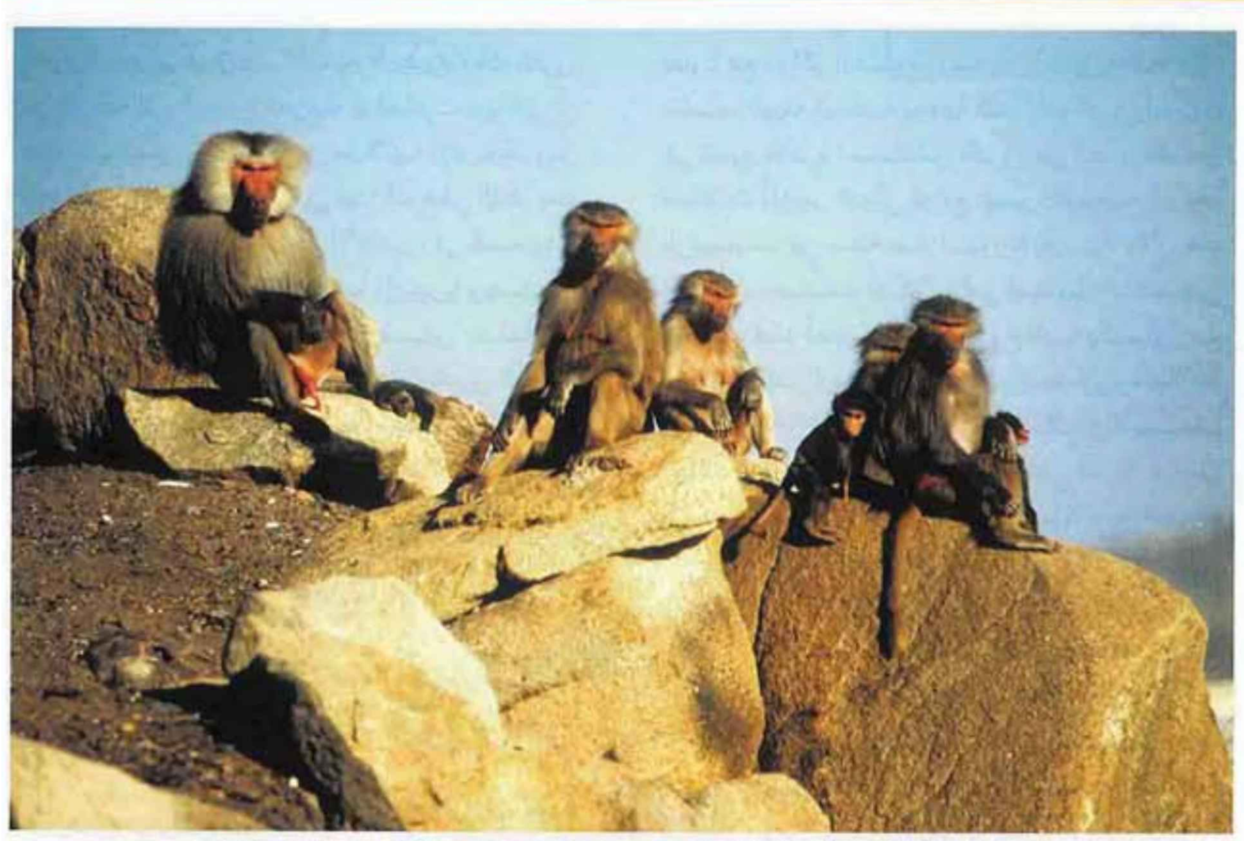
أحمد إبراهيم البوق
الرياض - السعودية

تصيبك حالة من الإرباك حين تعرف أكثر مما ينبغي لكتابة موضوع في مجلة، فأنت بالتأكيد لست أمام بحث علمي لتكون أكثر دقة في الطرح وتتجاوز المتشابه والمختلف في موضوع بحثك، كما أنك لست أمام كتابة عامة - بالمفهوم السائد للكلمة - لتركز على المثير والمدهش دون أن يكون للعمق نصيب فيما تقول، وإذا كان طريق الإخفاق - كما يقال - مملوءاً بالنيات الحسنة، فإنني لست مضطراً لتبييت سوء النية كي أبلغ حد النجاح في تناول موضوع في عشر صفحات - على أحسن حال - استغرق أكثر من عشر سنين.

الذين يحدّثونك عن البدايات الموغلة في القدم أشبه بمستكشفي الكهوف الذين يخوضون بك بحر الظلمات لمجرد أنهم يحملون مصادر للضوء مثبتة على جباههم، ورغبة جارفة للكشف ساكنةً في أعماقهم. فقبل أكثر من ربع قرن خرجنا في رحلة برية من المدينة المنورة قاصدين مدينة أبها في منطقة عسير، ولكن أبها في ذلك التاريخ منالها عسير، لا لأنها تقع في جبال عسير في ذلك الجزء القصي من جنوب غرب المملكة العربية السعودية، ولكن لأن خطوط (الإسفلت) لم تكن قد تجاوزت الباحة إلا قليلاً، وكان أمام هؤلاء الحضر ثلاثمئة كيلٍ من الطرق الجبلية العسيرة في جبال عسير كي يكحّلوا عيونهم بأنوار أبها، حين انتهى بنا المسير بعد ثلاثة أيام عسيرة، نصبنا خيامنا على تَلّة تطل على مدينة أبها حيث حزامها الطريق الدائري يمر بالقرب منها، هبطنا بخيامنا البيض على تلك التلال كما تهبط قطعان من السحاب على رؤوس السروات، تسامرنا كما يليق ببدو بلغوا مصادر الماء. وحين هبط المساء كان الضباب في معيّته، استسلمنا لنوم طويل متدثرين بألحفة



ذكر بالغ من قرود بابون الهامادرياس ويلاحظ لونه المائل إلى البياض ورضيع بلون أسود



الوحدة الذكرية أو الأسرة هي البنية الأساسية في التنظيم الاجتماعي وتتكون من ذكر وعدد من الإناث والصغار

غلاظ، على الرغم من أننا ما زلنا في منتصف الصيف. في الفجر استيقظنا فزعين على قطيع من القرود اقتحم علينا الخيام وبعثر أرزاقنا في المنحدرات القريبة. كانت تلك أول تجربة شخصية مع ظاهرة الاستئناس لقرود البابون في جنوب غرب المملكة التي أغرقتني في دراسات متواصلة منذ عام ١٩٨٨م حتى تاريخ كتابة المقال.

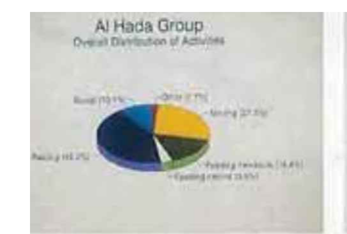
من أين جاءت هذه المساخيط؟

في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) إشارة إلى وجود مجموعات من القرود على الطريق الحجري الذي يربط الطائف بمكة المكرمة عبر عقبة الكُر، ولكن الطريق الذي أنشئ في مطلع القرن الخامس الهجري - أنشأه حسين بن سلامة في سنة ٤٣٠هـ - لا يذهب أبعد من تسعة قرون.

الباحثون البيئيون الذين يصنفون الجزيرة العربية ضمن حزام المناطق الجافة في العالم يُدهشون لوجود القرود فيها. فمن المعروف علميًا أن ٢٣٤ نوعًا من القرود تنتشر من أقصى شرق قارة آسيا إلى أقصى غرب قارة أمريكا الوسطى والجنوبية، مرورًا بإفريقية تستوطن بيئات الغابات ومناطق السافانا. وقد أشار الدكتور هانز كومر الباحث السويسري - مؤسس علم السلوك في هذا النوع من القرود - إلى فرضيات تضع تصورًا لانتقالها من إفريقية إلى الجزيرة العربية، ويذهب في أحد أبحاثه إلى توقع انتقالها قبل ثلاثة آلاف عام عندما كان الفراعنة ينقلون هذا النوع من القرود بابون Papio Hamadryas من شرق إفريقية إلى مصر عبر البحر الأحمر، وتحطمت بعض هذه السفن على شواطئ الجزيرة العربية فانتشرت فيها، وكان هذا النوع مقدسًا في مصر القديمة لارتباط همهماته بشروق الشمس تلك التي كانت رمزًا للحياة عند الفراعنة. أما الفرضية الثانية فترجع الانتقال إلى أكثر من عشرة آلاف عام عندما كان الجسر البرّي قائمًا بين إفريقية والجزيرة

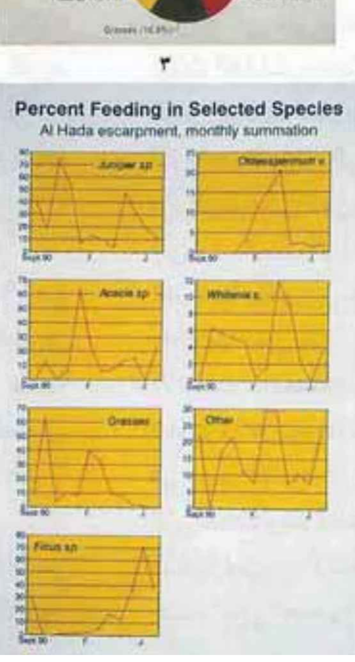
العربية عبر مضيق باب المندب، إذ عبرت هذه القرود من إفريقية إلى الجزيرة العربية ثم انتشرت فيها قبل أن يفصلها طغيان ماء البحر عن مثيلاتها الإفريقية. ومن المعروف أن التوزيع الجغرافي لهذا النوع في العالم يمتد شرق وغرب وجنوب البحر الأحمر، في السعودية واليمن شرقًا والسودان وإثيوبيا وإرتيريا وجيبوتي والصومال غربًا، ولكن هاتين الفرضيتين بحاجة إلى الفحص الوراثي لموازنة المجموعات شرق البحر الأحمر وغربه لتأكيدها أو رفضها. وكنا قد بدأنا محاولة الإجابة عن سؤال الجذور هذا منذ عام ١٩٩٢م عندما

تعاونا مع مراكز أبحاث سويسرية وإنجليزية، بعد ندوة نظمتها الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها، في تتبع ظاهرة استئناس القرود في العالم ضمن فعاليات المؤتمر الدولي الرابع عشر للجمعية العالمية للرئيسيات في مدينة ستراسبورغ بفرنسا. ولأن هذه الأبحاث تجمّدت لمشكلات في التمويل لمدة خمس سنوات، فقد أعيد طرح الموضوع ثانية بالتعاون مع مركز أبحاث الرئيسيات التابع لجامعة كيوتو اليابانية في عام ١٩٩٧م. وقمنا في بحث مشترك بسحب عينات الدم من مجموعات مختلفة على امتداد مناطق توزيعها الجغرافي في المملكة، من الحدود السعودية اليمنية جنوبًا إلى وادي الأكحل - ١٥٠كم شمال المدينة المنورة - شمالاً، وبعد المسوحات الوراثية الأولية كان التنوع الوراثي لمجموعات القرود في المملكة أكبر من تأييد إمكانية انتشارها في مجموعات صغيرة جاءت عبر سفن الشحن الفرعونية، ومن ثم استبعدت الفرضية الأولى، كما أن انتشار توزيعها الجغرافي وكثافتها في الجزيرة العربية واكتشاف وجود «أليلين»(١) في مورّثات القرود في المملكة عن مثيلاتها الإفريقية، وتماثلها مع نوع البابون الزيتوني الأقرب إلى النوع المحلي، استبعدت الفرضية الثانية؛ لأن هذا يعني أن تاريخ وجودها في الجزيرة العربية أقدم بكثير من عشرة آلاف عام. وتوصّل الدكتور تاكيوشي شوتاكي الباحث الرئيس في المشروع إلى تصور فرضية جديدة ترجع إلى أكثر من ثلاثمئة ألف سنة عندما عبر أصل مشترك للقرود المحلية «بابون الهامادرياس» والبابون الزيتوني Papio anubis الإفريقي إلى الجزيرة العربية، وتشكّل بصفته الحالية آلاف السنين، ثم عاد وانتقل إلى القارة الإفريقية عبر مضيق باب المندب، وهو ما يعني أن أصل هذا النوع من القرود الموجود



١ ٢

٣



٤

١ - رسم بياني يوضح نسبة الجنس والعمر لدى القرود البابون المستأنسة في المملكة ويلاحظ ارتفاع نسبة الإناث البالغة ٥١٪ موازنة بالذكور البالغة ١٠٪ وذلك بسبب الحوادث

٢ - رسم بياني يوضح توزيع النشاط لدى مجموعات القرود في جبل الهدا شمال الطائف، ويلاحظ سيادة سلوك الراحة، أما التغذية البشرية فتبلغ ١٥٪ والتغذية الطبيعية ٣٪.

٣ - نسبة تغذية القرود الطبيعية في جبل الهدا شمال الطائف ويلاحظ اعتمادها على العرعر ٢٣٪ والطلح ٢٠٪ والأعشاب ١٦٪ والتين البري ١٣٪

٤ - رسوم بيانية توضح توافر الأغذية الطبيعية واعتماد القرود عليها على مدار العام من الأعلى إلى الأسفل يسار: العرعر، الطلح، الأعشاب، التين البري، وغيرها من النباتات

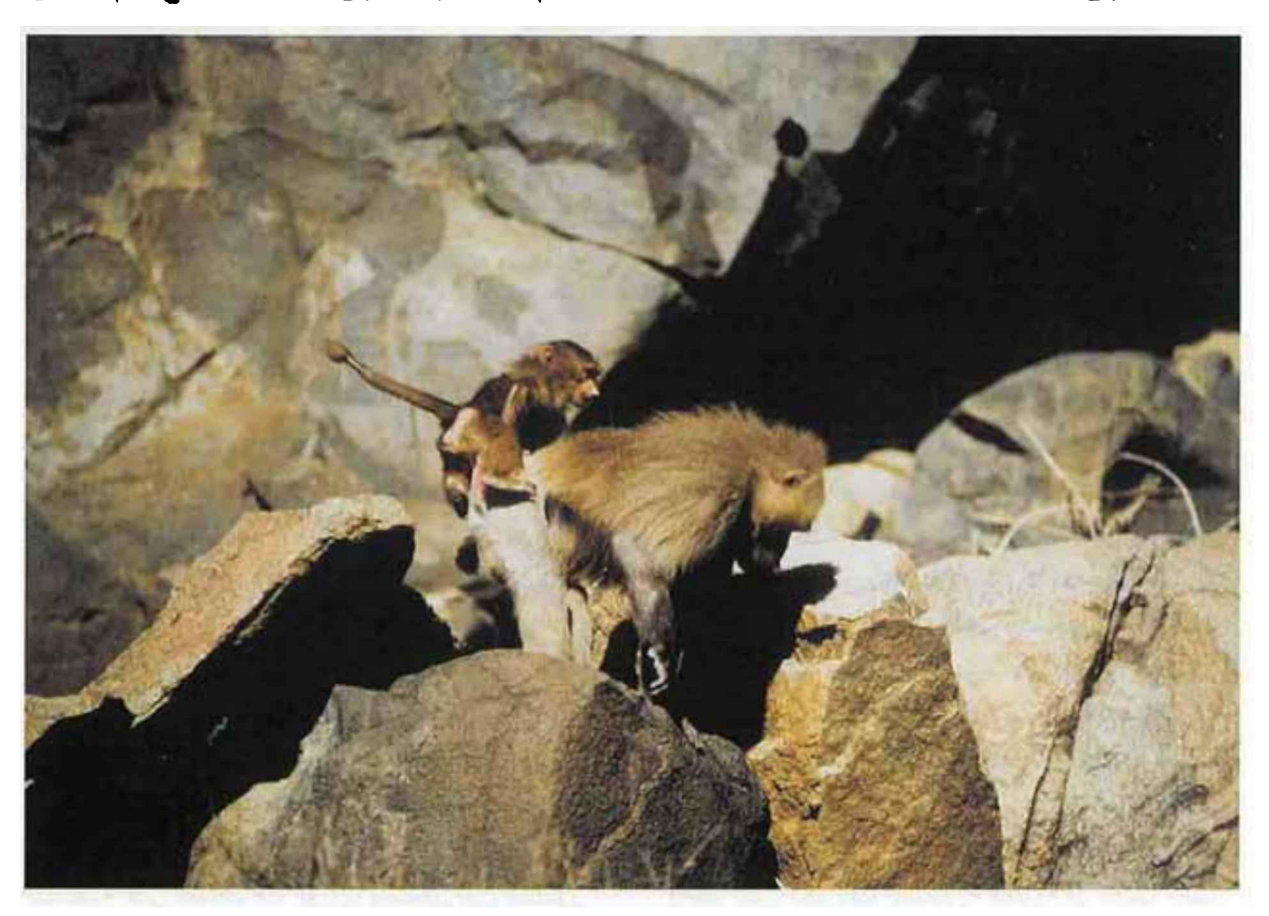

قرود النفايات تضخمت أعدادها نتيجة للتغذية الفائضة

في إفريقية من الجزيرة العربية، وليس العكس كما هو سائد في الفرضيات البيئية. هذا الكشف أكدّ مسألة مهمة هي: أن هذا النوع عبر مئات الآلاف من السنين تطور مظهراً وسلوكًا ليلائم البيئات الجافة في الجزيرة العربية، إذ ينتشر في نطاق توزيعه الشمالي في المملكة في مناطق يقل معدل هطول الأمطار فيها عن ١٠٠ ملم في العام.

كيف استجاب النوع مظهراً وسلوكًا للمعطيات البيئية المحلية؟

من ناحية المظهر تعدّ قرود الرباح المحلية - وهي النوع الوحيد المنتشر في الجزيرة العربية في المملكة واليمن - الأصغر حجمًا بين الأنواع الأربعة الأخرى القريبة الصلة به، والمنتشرة في القارة الإفريقية إضافة إلى هذا النوع، إذ لا يزيد وزن الذكر على ٢٤ كغم، والأنثى البالغة على نصف هذا الوزن، ويشكل لون الذكور البالغة المائل للبياض الفضي تأقلمًا جيداً لانعكاس حرارة الشمس كما هو الحال مع المها العربية الناصعة البياض، أما من ناحية التنظيم الاجتماعي Social Organization فإن لهذا النوع بشكل خاص نظاماً مميزاً يعتمد على نظام العوائل أو الأسر أو ما يسمى بنظام الوحدة الذكرية one male unite (o m u) وفيه ذكر واحد سائد في الأسر تتبع له في المتوسط أنثى إلى أربع إناث لا تتصل - غالبًا - مع ذكر غيره، فهن أقرب إلى الزوجات منهن إلى مجرد إناث. وإذا تجمعت ثلاث إلى أربع أسر تتحرك بشكل جماعي بحثًا عن الغذاء طوال اليوم، فإن هذا المستوى الاجتماعي يسمى: العشيرة Clan، وهي ذات ترابط وعلاقات وراثية ولّدها التزاوج بين أسرها، وإذا استخدمت أكثر من عشيرة نطاقًا مشتركًا، فإن هذا المستوى الاجتماعي يسمى: العصبة band، وتتجمع أكثر من عصبة لتستخدم موقع نوم واحداً على الجروف الصخرية العالية في تجمع يسمى بالقطيع Troop أو تجاوزاً بالقبيلة. وهذا النسق في

النظام الاجتماعي المحكم ساهم إلى حد بعيد في تخفيض الصراعات بين الذكور على مستويين: في الحصول على الإناث وفي الحصول على الغذاء. فبينما يصل حجم القطيع في المتوسط إلى ١٢٠ فرداً، فإنه قد يصل في بعض المجموعات إلى أكثر من سبعمئة فرد، وانقسامها إلى عشائر في التغذية يستجيب لظروف التوزيع المتناثر للغطاء النباتي في البيئات الجافة، ولا يمثل تداخل العشائر في الحصول على الماء في الصيف من مصدر مشترك في أوقات مختلفة، مشكلة في موسم الأمطار. أما السلوك الاجتماعي Social behaviour، وهو الذي يحكم العلاقات بين الأفراد داخل الأسر غالباً، وبين الأسر في العشيرة أو القبيلة، فإنه قد تم منذ الستينيات رصد نحو ٦٠ نوعاً من الأنماط السلوكية تم تصنيفها إلى فئات، كالسلوكيات العامة والعدائية والجنسية وسلوكيات الخضوع والتوتر والراحة والقيادة والأمومة والرضاع واللعب والأشعار والسلوكيات المفاجئة. ومن المهم الإشارة إلى أن الإناث البالغات داخل الأسرة تخضع لسيطرة محكمة من الذكر التابعة له بما يسمى بسلوكيات القيادة Herding Behaviour وهي أنماط سلوكية مميزة لهذا النوع من القرود تتنوع بين أنماط عدائية باستثناء العض في الكتف إضافة إلى عض الأنثى عند نشازها خلف الرقبة أو في الظهر أو الرّبض على الأنثى، وهي محاولات لاستبقاء الأنثى داخل نطاق الأسرة، وإذا ما حاولت الأنثى التمرد بالابتعاد عن الذكر، أو النظر إلى شريك آخر، فإن السلوكيات العدائية تكون لها بالمرصاد، وإذا لم تكتف بالتحديق ورفع الحواجب وتحريك الرأس إلى الأمام ولطم الأرض إشارة إلى التهديد، فإن فتح الفم لأقصى



سلوك تكوين الأسرة ويلاحظ ذكر «تحت بالغ» مع صغير بعمر سنة

درجة كفيل بأن يُفزع الأنثى عندما تبرز أنياب الذكر التي يصل طولها إلى ٥ر٢سم. وقد يتطور الغضب للصياح واللطم والعض في أقصى حالاته. ولكن الإناث غالبًا ما يكنّ أكثر ذكاء عبر تقديم فروض الطاعة والتقرب إلى الذكر أو الانحناء أو الربض على الأرض، أو إظهار صوت الخضوع أو الوجل أو حتى الهرب من وجهه إذا كان غاضبًا. كل تلك السلوكيات تساهم في خفض الطاقة التي مصدرها الغذاء الشحيح في البيئات الجافة، وهو تأقلم سلوكي غاية في الإتقان.

الإنسان وأثره في سلوكيات القرود

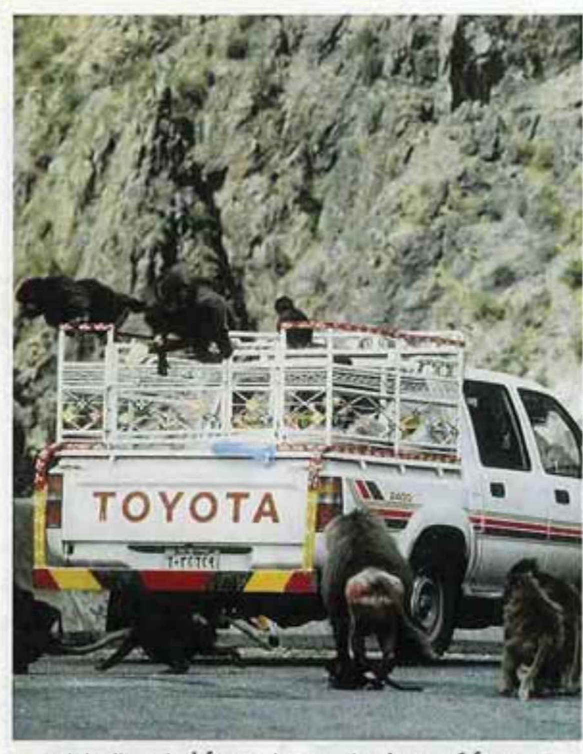
يبدو مهمًا أن نسأل ما الذي يفعله الإنسان عندما يتسلى بهذه القرود ، وكيف يؤثر في سلوكها بتقديم الأغذية لها مباشر، أو عبر النفايات؟

إن انجذاب مجموعات القرود البرية - التي قدّرت أعدادها في المملكة بأكثر من ربع مليون قرد في مطلع التسعينيات - إلى التجمعات السكانية على الطرق العامة وأطراف المدن والقرى والهجر زاد من كثافة أعدادها ومشكلاتها على المزارع والمناطق السكنية. وقد أظهرت المسوحات التي أجريناها مع فريق بحث فرنسي أن ٦٥٪ من مجموعات القرود في المملكة مجموعات برية لا ضرر منها، وتشكل عنصراً مهماً في النظام البيئي وأن ٣٥٪ منها تقسم بين ٣١٪ مرتادة للمزارع بشكل كثيف وأقل كثافة - أقل أو أكثر من خمسين مرة في العام - و٤٪ مرتادة لمرامي النفايات والطرق العامة. وفي الوقت الذي تحافظ فيه المجموعات البرية على توازن أعدادها تبعًا للوفرة الغذائية البرية - في المتوسط ١٢٠ فردًا للقطيع - فإن المجموعات المستأنسة حول مرامي النفايات وصلت أعدادها في بعض المواقع في المملكة إلى أكثر من سبعمئة فرد في القطيع. وأدى الغذاء الفائض إلى تخفيض الفترة بين الحمل والحمل الذي يليه عند الإناث، إذ يستغرق الحمل ستة أشهر، والرضاعة نحو عام، أي إنها تحصل على مولود كل عامين في الوضع الطبيعي. فانخفضت الفترات بين الحملين بما في ذلك



كاتب المقال في أثناء إجراء عمليات التخدير للقرود وسحب عينات الدم للفحص الوراثي

فترة الرضاعة، وتخلخل النظام الاجتماعي، وتفككت الأسر، وانتشرت لدى هذه المجموعات المكتظة - في أحدث دراسة أجريناها مع فريق البحث الياباني قبل عامين - ظاهرة استقلالية الإناث عن العوائل التي تسجل أول مرة في هذا النوع، وظهور مجموعات إناث سائبات لا يخضعن لسلطة أي ذكر. وازدادت نسبة الخيانات الزوجية، وانخفض ميل الذكور في العوائل للاحتفاظ بأكثر من أنثى، وارتفعت نسبة الذكور الأعزاب البالغين فوصلت إلى ١١٪ من عدد الذكور البالغة في القطيع، وأصبحت تتجمع مع بعض لتكون مصائد ذكرية للإيقاع بالإناث المتسببات والمتسربات من العوائل. وأدّت هذه الحالة من الانفلات الاجتماعي إلى إثارة حفيظة الذكور داخل العوائل فازدادت



مجموعة قرود تسطو على محصول مزرعة في إحدى السيارات

عدائيتها تجاه الإناث وتحديداً أولئك الشبقات(٢). وأصبحت تمسك بذيولهن ورقابهن في سلوك جديد صُنِّف ضمن السلوك القيادي في محاولة يائسة للمحافظة على تماسك الأسر. وقد لوحظ أن الإناث المتسيبات إما كبيرات في السن وإما صغيرات، أما الأخريات فكن ضمن تركيب العوائل. وبلغت نسبة الإناث دون ذكور ٠٦ر٠، ورافق ذلك ارتفاع نسبة الذكور الأعزاب إلى ٠٨ر٠ واختفى سلوك تكوين العوائل التقليدي، واستعيض عنه بعلاقات طارئة، وأصبح الذكور أكثر ميلاً للاحتفاظ بأنثى واحدة فقط. إذ بلغت نسبة العوائل بأنثى واحدة ٣٦٪ وهي الأعلى موازنة بالمجموعات الإفريقية والعربية الأخرى. وفي الوقت الذي بات فيه النظام والسلوك الاجتماعي لقرود البابون المستأنسة في المملكة مهددين بكارثة، فإن المخرج من عنق الزجاجة: العمل على إزالة الأسباب المؤدية إليه، والتي يشكل الإنسان محورها الأساسي. لقد اقتحمت شبكة الطرق معظم مناطقها الطبيعية، وهدَّد ضغط الرعي الجائر غذاءها الطبيعي المتمثل في الأعشاب وثمار النباتات البرية وأوراقها وبذورها وزهورها ولحائها، تلك التي سجلنا منها أكثر من ٦٠ نوعاً تعتمد عليها في التغذية، وكان السعي إلى قتل مفترساتها الطبيعية كالنمور والضباع والذئاب من قبل الرعاة قد فاقم من مشكلة الإخلال بتوازنها الطبيعي ذاك الذي جاءت مرامي النفايات والتغذية على الطرق العامة لتزيد طينه بلة، مما يستدعي وقفة تأملية جادة حتى لا تتحول المسألة من باحث مرتبك في كتابة مقال عن مشكلة بيئية - لأنه يعرف أكثر مما ينبغي - إلى مجتمع مرتبك في حلّها لأنه يجهل أكثر مما ينبغي.

الهوامش والمراجع

١ - أليل ALLELE: هو واحدة من صور بديلة متعددة للجين، ويشغل موقعاً محدداً على الكروموزوم. يرث الفرد أليلاً واحداً لكل موقع من كل من الأبوين، وبذا يحمل كل فرد أليلين لكل جين.

٢ - فترة الشبق: كل شهر تنتفخ خلفية الإناث الناضجات كإشارة إلى أفضل فترة للتكاثر.

- الشفرة الوراثية للإنسان (القضايا العلمية والاجتماعية لمشروع الجينوم البشري) تحرير دانييل كيفلس، وليروي هود، ترجمة د. أحمد مستجير، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢١٧ تاريخ ١٩٩٧م، الكويت.

- أحمد إبراهيم البوق، دراسات على السلوك البيئي لقرود السعدان في جبل الهدا بالمملكة العربية السعودية. رسالة ماجستير، كلية العلوم، جامعة الملك عبدالعزيز، ١٩٩٥م.

- الطرق والنقل في منطقة عسير، حقائق وأرقام ١٩٩٧م، المملكة العربية السعودية، وزارة المواصلات.

-A. BOUG, S. BIQUND, V. BIA UND - GUYAT, K. KAMAL REV, ECOLL VOL49. 1994.

- THE RESPONSE OF COMMENSAL HAMADRYAS BABOONS TO SEASONAL REDUCTION IN FOOD PROVISIONING.

- S.BIAUAND. A.BOUG. V AND. J.P. GAUTIER REV. ECAL. VOL. 49. 1994 MANAGEMEUT OF COMMENSAL BABOONS IN SAUDI ARABIA.

- A. MORI, A. BOUG, N.W.R.c ANNUAL REPORT, 1997.

- REPORT ON SOCIAL ECOLOGICAL STUDY OF HAMADRYAS BABOONS IN SAUDI ARABIA

- KUMMER, H. BANAJA, A.A, ABA - KHATWA, A-N, AND GHANDOUR, A.M, (1981). DIFFERENCES IN SOCIAL BEHAVIOR BETWEEN ETHIOPIAN AND ARABIAN HAMADRYAS BABOONS, FOLIA PRIMATOL, 45,

- REPORT ON GENETIC DIFFERENTIATION BETWEEN ETHIOPIAN AND ARABIAN HAMADRYAS BUBOONS.

- TAKAYASHISHOTAKE AND AHMED BOUG. N.W.R.C ANUUAL REPORT 1999.

في مفهوم الحداثة

شلتاغ عبّود
سبها - ليبيا

مرت على أمة الإسلام مرحلة عصيبة امتُحِنَت فيها بأسس ثقافتها وثوابت تفكيرها، وكان لهذا نتائج خطيرة في الفهم والتصور والسلوك والتخطيط للمستقبل، تلك هي آثار الفترة الاستعمارية المباشرة المدمرة، وفترة الحكومات «الوطنية» التي لاتزال تمارس هيمنتها على الأمة بحسميات شتى، وتدجن نشاطات الحياة الفكرية والمادية في ضوء نشاطات «المثل الأعلى الذي تقتدي به.. المثل الذي لم يكن لها حرية اختيار في أخذه، بل فرض عليها فرضًا، ولكنها توحي لنفسها أنها تتخذه طوعًا على أساس أنه طابع العصر، أو روح العصر.

ومن أراد أن يتصدى لإيقاف هذا النزيف عن جسم الأمة، فلابد من أن يرسم تصورًا أو مخططًا لتوجيه الثقافة وفق الرؤية التي تنسجم مع التكوين الحضاري للأمة، ووفق الواقع وضغوطه ومستجداته كذلك.

وموضوع الحداثة كتب عنه الكثير، واختلط فيه الحق بالباطل، واستخدمت فيه أدوات المعارك النفسية كلها، وكانت الضحية الأولى هي ثقافة هذه الأمة التي يراد لها ألا تكون أمة؛ بل شبح أمة!!

كتب الأوربيون عن الحداثة بصفتها صناعة أوربية ضمن ظروف تاريخية معينة، وتطورات شهدتها أوربا منذ عصر نهضتها وتنويرها الخاص حتى اليوم. ولا غرابة في هذا، فهم يدونون تاريخهم الفكري ومسار الثقافة عندهم، بل إنهم يتحدثون اليوم عن مرحلة ما بعد الحداثة، وهذا شأن خاص بنسق التطور الفكري عندهم أيضًا.

العمل الأصيل ما كان مرتبطًا بشخصية مبدعة

ولكن ما بالنا كلما رصدوا محطات الصراع الثقافي في بيئاتهم سارعنا إلى نقل ما يدور عندهم إلى ساحتنا الفكرية والثقافية مع أن الساحتين مختلفتان، وصور الصراع مختلفة، واستجابة واقعنا لنقل موضوعات الصراع الغربية غير ميسرة؟!

ولكن هذا الذي كان.. ومن يعش أجواء الصراع الثقافي يدرك لماذا كان هذا؟. والذي نريد الوقوف عنده هو هذا الغبش الذي رافق الحديث عن (الحداثة)

الحداثة بطابعها الأوربي ليست مطلقة، ولا صالحة لكل زمان ولكل بيئة، بل هي نسبية خاصة بسياقها الأوربي، وليست قدرًا للشعوب أو البيئات غير الأوربية على الإطلاق

لتمرير بضاعتها، والترويج لها في المجتمعات غير الأوربية، وفي ديار الإسلام خاصة.

ومن الضروري - بداية - الوقوف عند مجموعة من المصطلحات التي تذكر عند الحديث عن الحداثة، وهي: التراث، والقديم، والأصالة، والتقليد، مقابل الحداثة، والمعاصرة، والجديد أو التجديد. أي إننا أمام عائلتين من المصطلحات يراد لهما أن تتدابرا في التصور والتطبيق على الرغم من وجود الاختلافات والفروق بين دلالات المصطلحات في العائلة الواحدة ذاتها.

هل التراث والقِدَم والأصالة والتقليد بمعنى واحد حقًا؟

الواقع ليس كذلك تمامًا. فالتراث هو ما أبدعته أمة من الأمم سواء أكان إبداعًا ماديًا أم فكريًا ضمن مرحلة تاريخية من مراحل حياتها. وهذا ينطبق على أمة الإسلام وعلى غيرها. ولسنا بصدد الحديث عما نأخذ من هذا التراث في مرحلتنا المعاصرة وما ندع، فلهذا مكانه من البحث، ولكن الذي له خصوصية متميزة في حضارتنا هو أنّ الدين قرآنًا وسنة ليس مما أبدعته الأمة حتى يجري عليه اسم التراث، وتنطبق عليه صورة التعامل مع التراث. بل إن الدين بصورته المنزلة هو شريعة سماوية تمّ إبداع التراث على هداها، وتم ما تم من رقي وحضارة في ديار الإسلام بوحي من توجيهاتها(١).

أما القِدم والقديم فهو معيار زمني لا يرتبط بأمة معينة، ولا يتحدث عن زمن معين. فالأزمان المتعددة كل سابق للاحق منها يعد قديمًا، وأمس هو قديم بالنسبة إلى اليوم، وما قبل مليون سنة هو قديم بالنسبة إلى ما قبل نصف مليون. والتقليد موقف إنساني من القديم والحديث معًا، فقد يقلد المرء إنسانًا قديمًا أو حديثًا، أو حضارة قديمة أو حديثة، فيسمى مقلدًا حتى لو قلد نتاج آخر «تقليعة» في «الموضات».

والأمر مختلف مع الأصالة فهي لا ترتبط بزمن معين، بل ترتبط بقيمة عمل معين. فالعمل الأصيل ما كان مرتبطًا بشخصية مبدعة، ولم يكن فيه عالة على غيره. والعمل الأصيل - من جهة أخرى - مرتبط بالأصل «وأصل كل شيء نسبه الذي إليه يرجع، وله ينتسب. وجوهره وحقيقته وثوابته الباقية، والمستعصية على الفناء والزوال؛ فالأصالة في ثقافة ما، هي هويتها المتمثلة بـ «البصمة» التي تميزها عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات الأخرى»(٢).

هذه هي مصطلحات العائلة الأولى. ولقد رأينا أنها جمعت في سلة واحدة، لغايات ترتبط بالتمويه وتمرير المصطلحات المقابلة لها في العائلة الثانية وهي الحداثة، المعاصرة، التجديد والجديد.

والحداثة حالة أو موقف من الحالة الفكرية أو الثقافية التي تسبق الحالة التالية. وهي لا تخص زمنًا معينًا، أو بيئة معينة. فالإسلام، مثلاً يمثل حالة حداثة بالنسبة إلى المرحلة التي سبقته من الجاهلية، ومثله الأديان الأخرى، وموقف أوربا في عصر (التنوير) حالة حداثة، لأنه موقف من الكنيسة والإقطاع والدين نفسه. ولسنا هنا إزاء معيار صحة أو خطأ. المهم أنك أمام حالة تالية زمنيًا ترفض مقولات حالة سابقة زمنيًا. ومثلما تختلف الأزمان في تعاقب حداثتها، تختلف البيئات كذلك، فلكل حداثة بيئتها وظروفها ومقولاتها.

والحداثة التي تتداولها الألسن بيننا اليوم هي الحداثة الأوربية ضمن خصوصياتها التاريخية

والبيئية التي تتلخص في الثورة على قيم ما قبل النهضة الأوربية، وهي قيم ذات أبعاد اجتماعية وسياسية ودينية ارتبطت بالإقطاع والملكية والكنيسة، فكان أن جاءت الحداثة بمعطياتها في مجالات الحياة كافة، وكان من أسسها: الفردية، والعقلانية، والوضعية الفردية وما تلاها من حرية في الاقتصاد والاجتماع والسياسة، والعقلانية في المنهج العلمي في الكشف عن حقائق المادة، والوضعية في التعامل مع الواقع فحسب، بعيداً عن منطق الدين والغيب والميتافيزيقا(٣).

ولسنا، هنا بصدد القول المفصل عن الحداثة في تعريفاتها وأسسها وتجلياتها، وإنجازاتها وعيوبها، بل في معرض الحديث عن موقعها من المصطلحات الأخرى ضمن عائلاتها، وقُبالة العائلة الثانية المضادة لها. قلنا: إنها حالة مرتبطة بزمن معين وبيئة معينة، وهي البيئة الأوربية، والزمن الأوربي من القرون الثلاثة السابقة، ولم تكن باقية دائمة، بل إن الفكر الأوربي يتجه الآن إلى ما يسمونه ما بعد الحداثة(٤). والمهم الإشارة إلى أن هذه الحداثة بطابعها الأوربي ليست مطلقة ولا صالحة لكل زمان ولكل بيئة، بل هي نسبية خاصة بسياقها الأوربي، وليست قدراً للشعوب أو البيئات غير الأوروبية على الإطلاق. وهذا هو أساس الخلاف بين الشعوب التي تريد أن تفهم الحداثة ضمن ظروفها الخاصة، وأوربا التي تريد فرض حداثتها فرضاً بالإغواء حيناً، وبالقسر حيناً آخر.

أما المعاصرة فهي ليست الحداثة بما لها من مفهوم معبر عن مرحلة من تاريخ الفكر الأوربي الحديث، بل هي تعبير عن النتاج الفكري للحالة الزمنية الحاضرة، وهي - كالحداثة - ليست مطلقة بل خاضعة لمؤثرات الزمان والمكان، كما هي خاضعة لما يعتري البشر من زلل أو قصور، فزمانيتها الراهنة لا تعطيها صفة القداسة أو الصواب.

ولا يظنن ظان أن المعاصرة مجرد انتماء للزمن الحاضر، بل هي ذات خصوصية وتميّز. فلكل أمة طريقة خاصة في معايشة العصر والتفاعل معه. فمثلما تتمايز الأمم في ثقافتها، تتمايز في تفاعلها مع العصر الذي تعيش فيه. فالأمم المتمايزة في الهويات الثقافية معاصرات متميزة، وليست هناك في العصر الواحد معاصرة واحدة لكل الأمم والثقافات والحضارات، كما يزعم الذين يحسبون أن المعاصرة هي استعارة الثقافة السائدة والمهيمنة في عصر ما(٥).

والجديد - كذلك - لا يرتبط بعصر معين، كارتباط المعاصرة بالزمن الحاضر، فكل فكر يعد جديداً بالقياس إلى ما قبله من فكر، حتى لو كان الأمر يتعلق بوقوع الفكر القديم والذي يليه من الجديد في العصور السحيقة من التاريخ، ولكن الجدة لها طابع سحري في النفوس، ولذلك تستخدم في معرض الترويج للأفكار، حتى لو كانت غير صحيحة، فأنت بمجرد وصفك لفكرة أنها قديمة، وأخرى جديدة، تكون قد أعطيت حكماً بالصواب للفكرة الجديدة، بينما واقع الأمر ليس كذلك؛ فكم من فكرة قديمة


أرنولد توينبي

أثبتت واقعيتها وصلاحها، وكم من فكرة جديدة حملت جرثومة فنائها وفسادها معها! وقد يكون العكس.

المهم أن يكون مقياس الصواب والخطأ في الموضوعية والعلمية والواقعية، وليس في القدم أو الجدة في حد ذاتهما، كما يفعل المروّجون للجديد في كل زمان ومكان(٦).

مواقف العمل والحركة

هذه جولة في عالم المصطلحات مفهوماً ومعنى، وإزالة لحالات الغبش والخلط في التصور، ننتقل منها إلى مواقف العمل والحركة إزاء مصداقية هذه المصطلحات في أرض الواقع، ونحن بسبيل توجيه الثقافة إلى أن تأخذ طريقها إلى الفاعلية والبناء في المجتمع الإسلامي.

وقبل هذا لابد من الإشارات إلى خارطة المواقف الفكرية السائدة إزاء هاتين الأسرتين من المصطلحات، ونستطيع أن نلخصها بمصطلحي الحداثة والأصالة.

يتحدث الباحثون والمفكرون عن ثلاثة مواقف أو اتجاهات من الفكر الحداثي العربي خاصة:

أولاً: الموقف المعارض للغرب وحداثته ومفاهيمه عن الكون والإنسان والحياة.

ثانيًا: الموقف المنبهر انبهاراً تاماً بالغرب، الآخذ منه كل شيء: محاسنه وسيئاته.

ثالثا: ما يطلق عليه بالاتجاه التوفيقي، الذي يأخذ من التراث ما يراه مناسبا، ويأخذ من الغرب ما يراه صالحا كذلك.

هذا ما عليه أغلب من كتب عن الحداثة والأصالة، والموقف من الغرب(٧)؛ ولا يكادون يخرجون عن هذا التقسيم، مع الإشارة إلى التداخلات القائمة بين ممثلي كل تيار، تداخلات قد تبلغ حد التناقض في بعض الأحيان. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التيار التوفيقي على المستوى العملي صار أكثر ميلاً إلى الثقافة الغربية بدعوى التعريف بها دون أخذ أي موقف منها؛ وربما صار التيار الأوسع مساحة؛ لأنه لا ينطلق من العداء للتراث، ولكنه ـ عمليًا ـ يندفع إلى الحداثة الغربية بنشاط، ويبدو أنه يؤمن بسياسة الخطوة خطوة نحو التغريب(٨).

ومن المعلوم أن لكل تيار من هذه التيارات مسوّغاته، وهذا لا يعني أن من يتصدى للحديث عن العلاقة بالتراث أو الغرب لابد أن يضع نفسه في واحدة من هذه الخانات الثلاث بالضرورة، وإلا فإننا سنبقى في الدوامة نفسها التي اعتدنا أن نواجهها منذ أن اتصلنا بالطارئ الغربي في العصر الاستعماري الحديث.

والحديث عن الخروج من هذه التقسيمات لا يعني أن نفتعل المواقف، ونلعب بالألفاظ، بل لابد من طرح متميز يأخذ بالحسبان التجارب المستفادة سواء في العلاقة بالتراث، أو العلاقة بالغرب في ضوء أكثر من قرنين من الزمن.

الفرضية التي أريد أن أنطلق منها، والتي أريد أن أمتحن مصداقيتها هي: كيف يمكن أن أكون معاصراً وحداثيًا ومجدّدا دون أن ألغي التراث ودون أن ألغي العلاقة بأوربا، ودون أن أكون توفيقيًا كذلك؟!!

كما يبدو حقًا، أنها فرضية صعبة، والذي يقدم على دراستها يقبل على عمل خطير.

مقدمات لابد منها

ولكننا قبل أن نقوم بهذا العمل، لابد من الحديث عن مقدمات نراها ضرورية من التمهيد الذي يُساعد على وضوح النظرية. وهذه المقدمات تتمثل في الإيضاحات الآتية:

أولاً: من قال: إن تراث أمة من الأمم هو عقبة في طريق تحررها وتفوقها؟

إن واقع الحال في نهضات الأمم يثبت أن تراثها كان سر قوتها، ومكمن تفردها، والمنار لمسيرتها. والأمر نفسه ينطبق على أوربا النهضة التي انطلقت من التراث اليوناني، بل والمسيحي، ولم تتخل عنهما في أحدث انطلاقاتها المعاصرة. وليس

التجديد في الفكر والحضارة بدأ بالإسلام نفسه، ونما وتطور على يد معتنقيه الذين ساروا على هديه وتوجيهه، ولكنه لا يعدّ كل جديد صالحًا بالضرورة

انطلقت النهضة الأوربية من التراث اليوناني، بل المسيحي، وليس غريبًا القول: إن الدين يلوّن طوابع الحياة السياسية والفكرية في أوربا وأمريكا اليوم

غريبًا القول: إن الدين يلوّن طوابع الحياة السياسية والفكرية في أوربا وأمريكا اليوم.

ثانيًا: هناك مقولة صار يكررها كثير من المفكرين المتغربين، وهي أنه لا حلول وسطى من التراث، فإما أن نقبله كله أو نرفضه كله. وهذه - في الواقع - مصادرة لمصلحة مقولة رفض التراث كله، ثم قبول الغرب كله.. وهي مغالطة التقطها هؤلاء من المؤرخ الإنجليزي آرنولد توينبي الذي قال: إن الحضارات تؤخذ كلها أو تترك كلها(٩). والحق أنه على المستوى العملي والواقعي لا الحضارة الإسلامية في تعاملها مع حضارة اليونان رفضت كل شيء، أو أخذت كل شيء، ولا الحضارة الأوربية في عصر نهضتها رفضت كل شيء من الإسلام، أو أخذت كل شيء، بل مارس كل منهما الانتقاء، فقد رفض كل منهما ما يتنافى مع الأسس والثوابت المميزة لكل من حضارتيهما.

ثالثًا: لقد ذكرنا من قبل أن الدين الموحى به والنص الثابت ليس من التراث، بل هو صانع التراث، وصانع الحاضر والمستقبل كذلك، وهو الأصل الخالد الثابت في الحضارة الإسلامية. وتبقى في التراث متغيرات ليست ملزمة لأحد، بل هي منطقة فراغ يملؤها المشرع والحاكم والمصالح المرسلة والمقاصد النافعة. والذي قال إن هناك فئة تؤمن بالتراث كله ولا تتجاوزه، فهو يريد من وراء حديثه التمويه والمصادرة والتصويت لمصلحة التيار الذي يريد الغرب كله. إنهم يصنّفون من يلتفت إلى التراث على أنه سلفي أشعري!! لماذا لابد أن يكون الملتفت إلى التراث أشعريًا؟ لماذا لا يكون معتزليًا؟ لماذا لا يكون عقلانيًا؟ وهل التراث كله خرافة؟!(١٠).

وإذا قال الإمام الغزالي بشيء من الخرافة، فهل كان هو المسؤول أو الذين قلدوه هم المسؤولون؟!(١١). وهل على الناظر منا إلى التراث اليوم أن يأخذ مقولات الغزالي أو غيره على أنها مقولات صادقة لا تقبل المناقشة أو الرفض؟

رابعًا: الحق الذي لا مراء فيه، أن الحاضر بكل تعقيداته نسيج متشابك من الماضي والواقع بل المستورد، ولا يمكن لسياسي أو لموجه للثقافة أو مغيّر أن يتجاوز تأثير التراث والماضي سواء في حضارتنا، أو في حضارات الأمم الأخرى، وإن الأمر فيما يتعلق بحضارتنا وصلتها ببيئتنا وتفكيرنا وتاريخنا ربما يكون أكثر رسوخًا، وأوضح بروزًا. وإنك لو حاولت أن تزيل خيوط التراث من هذا النسيج لبدت لك عملية التغيير صعبة وغير واقعة؛ لأنك تكون قد سرت ضد طبائع الأشياء، وركبت الأمور من غير أبوابها ومراكبها، والتاريخ الحديث والمعاصر شاهد على ذلك، فقد ضاعت أدراج الرياح محاولات رضا بهلوي في إيران، وأمان خان في أفغانستان ومصطفى أتاتورك في تركيا، أقصد محاولاتهم في تغريب بلدانهم وسلخها عن الماضي، وكانت الحصيلة مزيدًا من التمسك بالتراث، ومزيدًا من رفض الغرب.

خامسًا: على الرغم من كل السلبيات التي يجرها الاستسلام للتراث وغض النظر عن عيوبه، فإنه لا يزال بأيدينا، نتعامل معه تعاملاً ذاتيًا نفرز منه ما نشاء، ونرفض منه ما نشاء، والضغوط التي يشكلها على نفوسنا بسحره ومثاليته يمكن تجاوزها بالنقد الذاتي، وإبراز الضغط الواقعي في حالة تعارض بعض موضوعات التراث مع هذا الواقع.

مشكلتنا الكبرى هي في التعامل مع الحداثة الغربية التي تفرض نفسها من الخارج فرضاً بالإغواء ووسائل الترفيه تارة، وبالقسر والإكراه تارة أخرى عن طريق البرامج المطبقة في السياسة والتعليم والاجتماع، وهي البرامج المفروضة بحد السلاح على أيدي الحكومات الوطنية الموالية للغرب. هذه هي المشكلة!!

سادساً: إن الطريقة التي نتصورها للتعامل مع التراث هي أننا لا نرحل إليه نعرض عليه مشكلاتنا، ليحلها بطريقة سحرية، بل هو الذي يرحل إلينا ليقدم لنا ما نراه أكثر معاصرة من معاصرتنا، فليس كل الذي في التراث قديماً، بل منه ما هو جديد، وقد يبقى جديداً؛ فهناك قيم وثوابت في تراث الأمم تعبر عن ملامحها وخصائصها وعناصر الإبداع فيها. ومن الجدير بالذكر أن الموضوعات التي يرحل إلينا بها التراث ليست كل ما فيه وما عنده، بل هي الموضوعات التي لها قوة ضغط وصلاح وحيوية في حياتنا المعاصرة، ولن يجدينا أن نشرق أو نغرب في حلها. وما من شك في أننا نتخلى بكل حرية عن موضوعات كثيرة من التراث؛ لأنها بنت عصرها، وليس لها صفة الديمومة أو الحيوية التي تخولها الولوج إلى عصرنا، ومساعدتنا على حل مشكلاته.

ولهذا يصح القول: إن بعض التقليد لعناصر الماضي، أو التراث مستحسن ومفيد، خاصة حينما يؤخذ بوعي واجتهاد. إنك في هذه الحالة تجتهد في دراسة القديم فترى أنه جزء من وجودك وكيانك المعاصر، وأنه شفاء للحالة المرضية الراهنة في بعض الأحيان(١٢).

التيار التوفيقي على المستوى العملي صار أكثر ميلاً إلى الثقافة الغربية بدعوى التعريف بها دون أخذ أي موقف منها؛ وربما صار التيار الأوسع مساحة؛ لأنه لا ينطلق من العداء للتراث

ونحن لا نتحدث - بطبيعة الحال - عن الوحي والنص الإلهي والنبوي لأن هذا من الثوابت التي لا اجتهاد فيها إلا في حالة الفهم والتفسير.

سابعاً: إن الحداثة التي يلحد إليها الذين يرون إلحاقنا حاضراً ومستقبلاً بالغرب، لا يمكن أن تكون حداثة لكل العصور والأمكنة، بل هي حداثة ذات خصوصية أوربية بكل ما لأوربا من خصائص، وما فيها من مشكلات أفرزتها البيئة الكنسية والسياسية. فإذا كانت حداثتهم من دون دين أو ماض فلا يعني هذا أن تكون حداثة الأمم الأخرى بمكوناتها الفكرية ومؤثرات بيئاتها، حداثة من دون ماض، أو دين كذلك. أضف إلى ذلك أن حداثة مجتمع منتج وغني ومستكبر ومهيمن ومالك لمقدرات الأمم بقاراتها كلها، ليست هي بالضرورة حداثة مجتمعات مستهلكة وفقيرة ومقيدة ومغلوبة على أمرها، وتُحكم بغير إرادتها، وتنفذ ما يملى عليها(١٣).

والحق الذي لا شك فيه هو أن حداثة أوربا هي العقبة التي تقف أمام نمونا وتقدمنا؛ لأن حداثة أوربا هي قوتها وهيمنتها واستكبارها، ومحاولة جعل منجزاتها ذات صفات مطلقة، فقد بلغ بهم الغرور أن صاروا يتحدثون عن نهاية التاريخ على أيدي الحداثة الأوربية بوصفها نموذجاً خالداً رست عند شاطئه سفن الحضارات كلها، وأنه لا مفر ولا ملجأ إلا بالرسو عند الشاطئ الأوربي، شاطئ الأمان والعلم والتحضر، وإنه لقدر كل الشعوب والحضارات أن تنتهي إلى ما انتهت إليه الحضارة الأوربية بالاستسلام، أو بالصراع الذي ينتهي لا محالة بغلبة القوة الأوربية والعلم الأوربي(١٤).

وإن الأمم والحضارات لعلى موعد مع هذا التحدي الكبير، فإما الرضا بالواقع والاستسلام، وإما

الوقــوف بما لديهــا من طاقــات حضارية متميزة تصنع من خلالها نموذجها وحداثتها الخاصة بها، وعندئذ لن ينتهي التاريخ بنموذج حضــاري واحد وحداثة غــالبة وأبدية وقاهرة.

ثامنًا: لابد من الـتـذكـيـر على الدوام بأن الأصـــالـة لا تعني الارتباط بالماضي، بل هي وعي بالواقع واتحــاد به، وتوظيف للماضي لكونه جزءًا من الواقع. وبهـذا تصبح الأصالة مـرادفة للمعـاصـرة، بل إنها مـعـاصـرة أعمق جذورًا وأكثر تحقيقًا للقوة في الشـخـصـيـة والإنتـاج وبناء الأسس الحضارية الفاعلة(١٥).

نعود إلى الفرضية التي انطلقنا منها وهي: كيف أكون معاصرًا وحداثيًا ومجددًا؛ دون أن ألغي التـراث، ودون أن ألغي العلاقـة بأوربا، ودون أن أكون توفيقيًا بين التراث وأوربا كذلك؟

الحق أن تحقيق هذه الفرضية بعدما قدّمنا ليس بالصعوبة التي يتصورها بعض الذين يحيطونها بشيء من التـعـقـيـد، ويلفونـها بأسلاك شائكة يجعلون مـعـها التفكير حائرًا مترددًا، وهم يلقون بأوهامهم لينتهوا إلى ما يريدون ألا وهو: الحداثة بمفهومها الأوربي وحــده. وهم بـهـذا يقــولون: إن الإسـلامـيين يريدون أن يعـودوا بالناس إلى الوراء أربعـة عشـر قرنًا، وإنهم يريدون العودة إلى أبي لهب والنجاشي وكسرى وقيصر، ويريدون إعادة الأصنام ثانية حتى يطبقوا الشريعة الإسلامية، فضلاً عن أنـهم يريدون الـعـودة بالناس إلى وسائل العيش البدائية، وإنكار إنجازات العلم والترف المعاصر!!

والحق أنه ما من عـاقل يدعو إلى الأخذ بالإسلام إلا ويدرك تمام الإدراك أنه يواجه وضعًا مختلفًا عن الأوضـاع القديمـة، ويعلم أن عليه الإجابة من خلال الإسلام عن قــضــايا الزمن القــائم ومــــشكلاته(١٦). وهذه هي الحقيقة التي يريد أن يعترف بها أعداء الإسلام للإسلاميين.

إن الإســلام والداعين إليــه في هذا العصر، وهذه الحداثة وامتلاء الحياة بألوان الجديد، لا يغمضون أعينهم عن حركة الواقع المعاصر، ويرحلون إلى ما قبل أربعة عشر قرنًا. بل هم يعالجون الواقع بما يناسبه من أدوات ومفاهيم. على أن هذا يحــتـــاج إلى بعض الإيضاح.

إن الأمــر الذي يسكت عنه المتحدثون عن القديم والتراث، وربما الأصالة، هو أن الدين عقيدة وشريعة ليس محل نظر بالنسبة إلى الإسلاميين، أي إنهم يأخذون به أو لا يأخــذون، بل هو الواقع نفسه، وهو الذي صاغ الواقع منذ خمسة عشر قرنًا، وأن حلول الدين وأطروحاته مرتبطة بالواقع وليـسـت غــريبــة عنه، وهي موضوعية وواقعية لأنها تنسجم مع الطبيعة البشرية الفطرية من جانب، وهي ذات عراقة وعمق تاريخي في هذا الواقع، مما يجعلها أكثر تناغمًا مع مسيرته، وأكثر فاعلية في تحريكه.

إن الآخـذين بالإسلام اليوم ينطلقون من الخطوط العريضة للإسلام، وهي ثوابته في العقيدة والتشريع، ثم ينظرون إلى الواقع

المُشتَرَك الإنساني غالبًا ما يكون في وسائل الحيــاة وحــاجــاتهــا، وليس في ثوابت الحضــارات وأســسـهــا، وهويات الأمم وشخصياتها

الذي يعيشون فيه، ويحيطهم بمشكلاته وضغوطاته، فلا هم مع العقيدة والشريعة في الهواء دونما واقع، ولا هم مع واقع يفرضونه على العـقـيـدة، ويحكّمـونه في التشريع.

فالله سبحانه وتعالى ـ حين وجه البشرية بقوله: *ويُعلّمهم الكتاب والحكمة*. البقرة:١٢٩، أراد لها عـقـيـدة ربانية وشـريعـة وأحكامًا(١٧) تستهدي بها من هذه العقيدة، دون أن تتنافى مع الواقع المادي للحياة، والواقع النفسي

للإنسان. فالأحكام والشرائع الإلهية لها مقاصد ترتقي بالإنسان، وتُصلِحُ واقعه، وتعالج مشكلاته، فليست هي أحكامًا وشرائع لما فوق الواقع، ولو كان الأمر كذلك لما كان هناك أسباب لنزول القرآن كتاب العقيدة والأحكام معًا.

والوحي، على الرغم من مصدريته السماوية، فهو للأرض ومن عليها، توجيهًا وهداية، وإعمارًا، وإسعادًا.

والإنسان في مسيرته الحياتية يستهدي بالوحي وتوجيهاته الواقع، ولا يستجيب لحركة الحياة من المتغيِّرات الكثيرة في هذه الحياة. فالتجديد في الفكر والحضارة بدأ بالإسلام نفسه، ونما وتطور على يد معتنقيه الذين ساروا على هديه وتوجيهه، ولكنه لا يعد كل جديد صالحًا بالضرورة. فهناك جديد سيِّئ، وهناك قديم صالح، وهناك جديد صالح، وقديم فاسد.. المعيار ليس في قدم الفكرة أو جِدَّتها، بل في صلاحها أو فسادها. والصلاح والفساد معياران يقررهما العقل الإنساني

الحداثة ليست ظاهرة أوربية، بل هي ظاهرة تاريخية إنسانية عامة، توجد حيثما يوجد عمل إبداعي، كما توجد حيث توجد عقلانية، واستثمار أمثل لموارد الطبيعة

ويتكيف وفق متغيرات حياته كذلك. وقد أعطي مساحة من التحرك واسعة، ينظر فيها إلى المصالح، ويدرأ بها المفاسد، ويطور أدواته، ويستثمر الأرض ويعمرها، ويذلِّل صعوبات الطبيعة من حوله، ويتعاون مع بني جنسه من البشر دون أن يغير مقاصد الوحي ومرتكزات الشريعة، ودون أن يكون هو إلهًا، أو مفسدًا في الأرض، كما رأينا من حركة الإنسان الأوربي في حداثته الجديدة.

إن الإسلام هو «الثورة الدائمة»(١٨) على ما يُستهلك من ومدركاته ومصالحه مستهديًا بذلك وحي الخالق وشرعه.

الموضوع - إذًا - ليس رفضًا للتراث أو أخذًا به كله، ولا رفضًا لأوربا أو ترحيبًا بإنجازاتها، ولا هو حركة توفيق ومزج بين التراث وأوربا. بل هو: الاستهداء بالدين لمعالجة الواقع. فبعد الأخذ بالأصل الأول، الدين وقَيُّوميته عقيدة وشريعة ومنهجًا، تبقى الحرية والمساحة واسعة في التعامل مع الواقع وعلاج مشكلاته. فقد يعالج ببعض أطروحات التراث، وقد يعالج ببعض أطروحات الصين، أو اليابان، أو أوربا اليوم.

هناك ثابت هو الدين، وهناك مشترك إنساني عام بين الإنسان المسلم والإنسان الهندي والأمريكي الجنوبي، والأوربي. والمشترك الإنساني غالبًا ما يكون في وسائل الحياة وحاجاتها، وليس في ثوابت الحضارات وأسسها، وهويات الأمم وشخصياتها(١٩).

والحكمة - حسب التوجيه النبوي - ضالة المؤمن، أينما وجدها التقطها وطبقها على سلوكه، وأفاد منها في حركة الواقع، بشرط أن تكون حكمة حقًا، ومفيدة حقًا، وهي قد تكون وسيلة مادية أو فكرة عملية.

والحقيقة الجليلة من هذا الحديث أن الإسلام معاصر، أي يعيش هذا العصر، ويعالج مشكلاته القائمة، ومجدِّد، لأنه لا يعالج المشكلات الجديدة بالأساليب نفسها التي عالج بها القضايا القديمة، وهو حداثي لأن الحداثة خصوصية سلوكية للإنسان وصفة لأعماله(٢٠). ولكل مجتمع سلوكياته المتميزة ضمن سياقه التاريخي والاجتماعي والقومي؛ وبهذا يكون هناك مجتمع أمريكي حداثي، ومجتمع إسلامي حداثي.

هذه هي الحقيقة التي لا يريد أن يقر بها «العلمانيون» أو الحداثيون المتغربون. ويريدون من الإسلام، لكي يكون حداثيًا، أن يلبس لبوس الحداثة الأوربية التي من جملة أسسها نفي الدين نفسه، أي نفي الإسلام نفسه!! أي إنك، لكي

تكون حداثيًا، لابد أن تسلخ جلدك، وتلبس جلد غيرك، بل تغير ذاتك أيضًا!!

إنهم يتحدثون عن المجتمع المدني، ولا يريدون به إلا المجتمع الحداثي الذي تقوم أسسه على رفض الدين أو استبعاده عن الواقع العملي للحياة. بينما واقع الحال بالنسبة إلينا - نحن المسلمين - يثبت أن لنا مجتمعنا المدني الإسلامي الذي لا يتنافى مع العقلانية، ولا يرفض مقولات العلم، ويسترشد بأقصى طاقات الوعي الإنساني وفاعليته، ويبذل قصارى جهده في الاستخدام الأمثل للطبيعة والفكر والمادة لتحسين أوضاع الإنسان والرقي بعلاقاته ووسائله، ولكنه يبقى مجتمعًا مدنيًا إسلاميًا مستهديًا برؤية الإسلام وخطوطه العريضة، وليس بالضرورة أن يكون مجتمعًا مدنيًا أوربيًا(٢١).

إن الحداثة - في مفهومنا - ليست ظاهرة أوربية أو قدرًا أوربيًا لقارات الأرض كلها، وللشعوب كلها، بل هي ظاهرة تاريخية إنسانية عامة، توجد حيثما يوجد عمل إبداعي، كما توجد حيث توجد عقلانية، واستثمار أمثل لموارد الطبيعة، بل حيث نجد إنسانية الإنسان متحققة نجد عملاً حداثيًا (٢٢). ولهذا فلسنا أمام حداثة واحدة مقرها أوربا، بل يمكن أن نجد حداثات متعددة في الصين واليابان وأرض الإسلام وبهدى الإسلام، ويبقى - من ثم - التفاوت في عطاء هذه الحداثات وتنافسها، فليفتح كلٌ كتابه، وليقدم برهانه، وليطرح مقولاته، ليظهر من هو أهدى سبيلاً، وأصوب رأيًا، وأعدل حكمًا، وأوضح منهجًا، وأحسن عملاً، وأقوم أخلاقًا!!(٢٣). هذه هي المعايير، وليس لزمن فضلٌ على زمن، وليس لبيئة ميزة على بيئة أخرى.

هذا حديث عن المبادئ، وليس خطة عمل لحداثة إسلامية ذات خصوصية إسلامية. وحين يتم الحديث عن الخطة يكون هناك حديث آخر عن المحفزات ذات الخصوصية من الدين، والوسائل ذات العمومية من العلم.

المراجع والهوامش

١. الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩١م، ص٢٠.
٢. الهوية الثقافية بين الأصالة والمعاصرة، بحث للدكتور محمد عمارة في مجلة الجهاد، مالطا، ع١٠٠، ١٩٩١م، ص٩٣.
٣. الحداثة وما بعد الحداثة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، د.ت، د.ط ص١٢، وما بعدها.
٤. المصدر نفسه، ص١٢٣.
٥. د. محمد عمارة، مجلة الجهاد، ع١٠٠، ١٩٩١م، ص٩٣.
٦. الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، دار الكلمة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص١١١.
٧. ينظر على سبيل المثال:
أ. د. حسن حنفي، في فكرنا المعاصر، دار التنوير، ط٢، ١٩٨٣م، ص٦٣.
ب - د. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، ط١، ١٩٨٢م، ص٣٤.
٨. الإسلام في معركة الحضارة، ص١٢٢.
٩. في كتابه: الإسلام والغرب والمستقبل، ص٢٣، نقلاً عن كتاب: رحلة الفكر الإسلامي من التأثر إلى التأزم، د. السيد محمد الشاهد، دار المنتخب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، ص١١٧. وتجد هذا التوجيه في ضرورة أخذ الحضارة كلها من الغرب في فترة مبكرة من أطروحات المتغربين من أمثال طه حسين، وسلامة موسى، ثم الجيل التالي لهم من مثل الدكتور زكي نجيب محمود وغيره.
١٠. ينظر مثلاً، الخطاب العربي المعاصر، محمد عابد الجابري، ص٣٥.
١١. مجلة المسلم المعاصر، مقال «إشكالية الأصالة والمعاصرة»، د. أحمد محمود صبحي، ع ٨١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ص١٠٣.
١٢. رحلة الفكر الإسلامي، د. السيد محمد الشاهد، ص١١٠.
١٣. ينظر مقال حسن بن عامر «الشعر والحداثة»، مجلة الثقافة العربية، بنغازي، ليبيا ع ٦، ١٩٩١م، ص١٢٣.
١٤. الإسلام وصراع الحضارات، د. أحمد قديدي، كتاب الأمة، قطر، ط١، ١٩٨٥م، ص١٤٠. ومن المعلوم أن فكرة «نهاية التاريخ» من أفكار الكاتب الياباني الأمريكي الأصل «يوكوهاما»، أما فكرة صراع الحضارات فللكاتب اليهودي الأمريكي «هنتجتون».
١٥. ينظر في فكرنا المعاصر، د. حسن حنفي، ص٥١.
١٦. الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، ص١٠٩.
١٧. فسر الزمخشري الحكمة بالشريعة والأحكام، ينظر، الكشاف جـ١، ص٢٣٩.
١٨. بحث «رسالة الجهاد والحداثة»، سالم المعوش، مجلة الجهاد، ع١٠٠، ١٩٩١م ص١٢٤.
١٩. الغزو الفكري: وهم أم حقيقة، د. محمد عمارة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط٣، ١٩٩٠م، ص٢١.
٢٠. بحث الدكتور محمد جواد لاريجاني «المجتمع الديني والحداثة»، التوحيد، ع٧٧، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، ص١٠٢.
٢١. ينظر الملف الخاص بـ «المجتمع المدني»، مجلة التوحيد ع ٩٧، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
٢٢. ينظر بحث «المجتمع الديني والحداثة» للدكتور محمد جواد لاريجاني، مجلة التوحيد، ع ٧٧، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، ص١٠١.
٢٣. الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، ص١١٤.

مسرحية هاملت بين فرويد والحكيم

مصطفى العدوي
دمشق - سورية

تعدُّ مسرحية هاملت من أكثر المسرحيات غموضًا في إبداع شكسبير، وقد انكب عشرات، بل مئات الباحثين والدارسين على فك رموز ألغازها، فعلماء النفس والاجتماع والمسرحيون والفلاسفة، كل في مجال اختصاصه وعلمه قارب هذه المسرحية وفق مداخل متباينة.

ولا شك أن تفوق عالم شكسبير المسرحي على سواه من ضروب المسرح يكمن في هذه العبقرية الفريدة الخالدة التي تمتع بها. وإذا حاولنا معرفة الأسباب والدوافع القابعة خلف هذه الأعمال الخالدة، وجدنا اطّلاع شكسبير على التاريخ الأوربي عامة، وعلى تاريخ بريطانيا والشعوب التي تضمها خاصة.

ليس هذا فحسب، بل المعرفة الموسوعية العميقة، بالآداب الكلاسيكية، وما انطوت عليه المسارح الإغريقية والرومانية والأوربية في العصور الوسطى، فهو بذلك وريث أرقى كتّاب التراجيديا والكوميديا العالمية. ولم ينقل لنا شكسبير التاريخ بحرفيته وواقعيته، بل كان يعيد نسجه من جديد، ويغير ويبدل في بعض العناصر والمكونات التاريخية ليعيد بناءها وفق رؤية درامية مبدعة تتصف بالجدة والأصالة والابتكار الفني دون أن يُخل بالسياق العام لجملة الظروف التاريخية والاجتماعية والفكرية. فلا تثريب علينا أن نشبّه عمله بالنحلة التي ترتشف مختلف صنوف الرحيق من الأزهار والأوراد كافة لتشكل منها أحلى أقراص العسل المسرحي. تتجلى العقدة في مسرحية هاملت في ذلك التردد الطويل وغير المقنع، المنصبّ على شخصية هاملت لإنفاذ الانتقام من عمه، فقد علم البطل أن هذا العم قتل أباه وتزوج أمه، ويعلم بهذا الأمر من ظهور شبح أبيه، وإخباره بكل ذلك، ولا يقدم هاملت على الانتقام بسرعة، على الرغم من تأكده ووصوله إلى حافة اليقين الكامل، إلى أن يحقق انتقامه أخيرًا من العم والأم في نهاية المسرحية، بعد تأمل وتمعن وتحقق ومن جنون إلى هلوسة، ومنها إلى هذيان واضطراب وتأملات فلسفية معذبة. وشكسبير في ذلك هو سليل سوفوكليس وإيسخليوس ويوريبيديس، ويكاد هاملت يرث أورست في «الأورستية»، أو أوديب في «أوديب ملكًا»، وتتحول آلهات الأسطورة في المسرح الإغريقي العظيم إلى جملة من الساحرات والأشباح في المسرح الشكسبيري الأحدث.

فرويد ومسرحية هاملت

يعتقد فرويد أن أعظم مسرحيتين عرفتهما كل العصور هما مسرحية «أوديب ملكًا» لسوفوكليس ومسرحية «هاملت» لشكسبير.

ويحلو له أن يوازن بين هذين العملين عبر العصور التاريخية المختلفة، وربطهما بآلية عمل الكبت في شخصيتي «أوديب» و«هاملت». ويرى أن مسرحية «هاملت» مأثرة من مآثر الشعر المأسوي تضرب جذورها في التربة ذاتها التي تضرب فيها مسرحية «أوديب ملكًا». بيد أن المعالجة المختلفة للمادة الواحدة تجلو لنا كل الفرق في الحياة النفسية بين هذين العصرين من عصور الحضارة المتباعدين، تباعدًا كبيرًا ، ويعني هذا الفرق تقدم الكبت عبر القرون في الحياة العاطفية للبشرية. ففي «أوديب ملكًا» يظهر جهارًا ذلك التخيل الذي يجيب رغبة الطفل، والذي تقوم عليه المأسوية، ويحقق كما قد يتحقق في حلم، أما في «هاملت» فيظل فيها هذا التخيّل مكبوتًا، ولا نعلم عن وجوده شيئًا إلا بما يظهر من عواقب كفه «منعه» . شأن الحال مع العصابيين . والعجيب أنه يتبين أن ما تملكه المأسوية الأحدث من وقع طاغ في نفوس الناس لا يتعارض مع بقائهم من أمر طبع البطل في ظلمة مطلقة. فالمسرحية تقوم على تردد هاملت في إنفاذ الانتقام الذي أوكل إليه، ولكن ما أسباب هذا التردد أو دواعيه؟ ذلك ما لا ينبس النص بحرف عنه، وبذلت في تفسيره محاولات لا تحصى ما أتت بطائل. فهاملت في نظرة أصلها جوته . ولا تزال لها الغلبة حتى اليوم . يمثل هذا الطراز من الرجال الذين شُلت عندهم القدرة على العمل المباشر؛ شلها نمو العقل نموًا مفرطًا، أي أسقمه الفكر الشاحب. وفي نظرة أخرى أن الشاعر المسرحي قد أراد أن يصور لنا طبعًا مريضًا مذبذبًا شارف النوراستانيا (الوهن العصبي).

بيد أن المسرحية ترينا هاملت بعيدًا كل البعد عن أن يصوَّر في صورة إنسان فقد كل قدرة على العمل. فنحن نراه يعمل مرتين: الأولى فورة مباغتة حين يطعن السامع المسترق من وراء الستار. وأما الثانية فعن قصد مبيت بل في مكر جم، وذلك حين يرسل برجلي البلاط إلى الموت الذي كان هو المدبّر له مُبديًا في ذلك التحلل الخلقي الذي يمكن أن يتصف به أمير من أمراء عصر النهضة.

فما الذي يوقفه على هذا النحو في إنفاذ المهمة التي كلفه شبح أبيه إياها؟ الجواب نجده مرة أخرى في الطبيعة الخاصة لتلك المهمة. إن هاملت يستطيع أن يأتي كل شيء إلا أن يثأر من الرجل الذي أزاح أباه واحتل مكانته عند أمه. الرجل الذي يريه . إذًا . رغباته الطفولية وقد تحققت، وهكذا يحل عنده محل الاستبشاع الذي كان كفيلاً أن يدفعه إلى الانتقام، تأنيب النفس وتخوف الضمير، يذكرانه أنه لا يفضل بحرف ذلك الخاطئ الذي كلف عقابه. ففرويد بذلك يترجم في عبارة شعورية ما كان مقرًا بقاؤه لا شعوريًا في نفس البطل. فإذا أراد بعضهم أن يدعو هاملت هستيريًا، لم أجد إلا أن أسلم بأن تلك نتيجة تخرج من تفسيري. ويتسق وذلك أحسن الاتساق مع ما يعرب عنه هاملت في حديثه مع أوفيليا من نفوره من الحياة الجنسية، هذا النفور

الذي كان مقدراً أن يزيد على الدوام تمكناً من نفس الشاعر في مستأنف سنواته حتى بلغ التعبير عنه أقصاه في مسرحية «تيمون الأثني». فما يطالعنا في هاملت ليس إلا الحياة النفسية للشاعر «شكسبير». والملاحظ في كتاب جورج براندس في عام ١٨٩٦م قوله: إن شكسبير كتب هذه المسرحية فور موت أبيه عام ١٦٠١م، أي حين كانت وطأة حزنه على أبيه على أشدها.

ومن الأمور المعلومة كذلك أن شكسبير قد رزق بطفل مات في سن مبكرة، كان يحمل اسم هامنت، وهو ما يطابق اسم هاملت، وكما أن مسرحية هاملت تعالج العلاقة بين الابن والوالدين، كذلك تدور مسرحية «ماكبث» المكتوبة قرب تلك الفترة حول موضوع العقم من الخلف. يقول آخر: إن هاملت الشكسبيري هو أوديب سوفوكليس، وقد خلع الرداء الإغريقي الشفاف وارتدى القبعة الإنجليزية، لكن الدوافع والميول والاتجاهات هي نفسها تعتور كلتا الشخصيتين، ولا يألو شكسبير جهدًا، ولا يدخر ما في وسعه لإحكام الأقنعة على وجوه شخصياته، والأقنعة هنا تبدلت من الوجه عند سوفوكليس إلى عمل آليات الشخصية ومكوناتها لدى شكسبير. كان هذا التقنع كان في العصور الإغريقية والرومانية يتسم بقدر ما من الوضوح، على الرغم من الغمز واللمز والترميز، وذهب إلى أقصى درجات الغموض والضبابية في مسرحيات شكسبير. وارتبطت مجمل هذه التطورات بالعوامل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية من جهة، وبطرائق التطهير والكبت من جهة أخرى.

لقد شغلت العلاقات الأسرية ذهن شكسبير الجبار، فتجد أن أغلب عقد وحبكات مسرحياته تنصب حول أنماط هذه العلاقة وأشكالها. في «الملك لير» تتمحور العقدة المسرحية في علاقة الملك مع بناته، و«بيركليس» أمير صور يقصد أنطاكية طلبًا ليد ابنة مليكها، ثم يتحول عن مقصده لما رأى في القصر من فسق وشرور تتصل بالملك وابنته، وتبلغ ذروة «بيركليس» المسرحية في ضياع الابنة، ونهاية العقدة لا تتم إلا بعد العثور على الابنة «مارينا» هكذا مصادفة على غرار الأفلام العربية الهابطة.

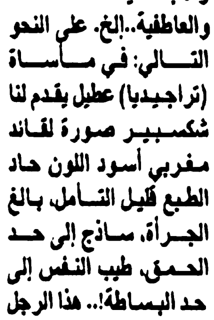
يبدو شكسبير في الغالب من مسرحياته وكأنه يتحين الفرص ويتصيدها ليكتب عن العصور الكلاسيكية الذهبية الأولى أكثر بكثير من ميله لعصره القريب، أو رصد واقعه الاجتماعي المباشر.

توفيق الحكيم ومسرحية هاملت

يبدو أن الأديب توفيق الحكيم قد عشق المسرح بكل جوارحه، خاصة المسرح الإغريقي، وعلى وجه الخصوص سوفوكليس، الذي يعده أعظم شاعر مسرحي منذ نشأة المسرح حتى الآن..! فكيف يناوش الحكيم الأعمال الشكسبيرية، وكيف يحللها..؟

في كتابه «فن الأدب» بدأ الحكيم منصرفًا بكل ذهنه لتفسير مسرحية «هاملت» وربطها مع مسرحيات أخرى لشكسبير حتى يجلو غموضها، لذلك نراه يوازن بين هاملت و«عطيل» مرجعًا التباين في الشخصية لاختلاف الطبائع والأمزجة، ومكونات الشخصية العقلية والاجتماعية والعاطفية..إلخ. على النحو التالي: في مأساة (تراجيديا) عطيل يقدم لنا شكسبير صورة لقائد مغربي أسود اللون حاد الطبع قليل التأمل، بالغ الجرأة، ساذج إلى حد الحمق، طيب النفس إلى حد البساطة!.. هذا الرجل قد أحب زوجته «ديدمونة» حبًا مبرحًا، فلما سعى بينهما الدساس المخادع «إياغو» بالوقيعة، وأوهم الزوج الطيب أن زوجته تخونه، تحالفت كل عناصر تلك الطبيعة المركبة في «عطيل»، وتجمعت أجزاء شخصيته من جنسه الحار وطبعه الحاد ورعونته وجرأته، إلى غباوته وسذاجته، فأدى كل ذلك إلى الكارثة، وكان ينبغي أن تؤدي إليها، فهو لم يحاسب نفسه طويلاً، ولم يتردد كثيرًا، ولم يقلب الأمر على وجوهه، ولم يتأمل ولم يتشكك، بل هجم على زوجته الرقيقة البريئة فيقتلها ويقتل نفسه، وقد علم ببراءتها بعد فوات الأوان، وإن المشاهد يرى كل هذا يجري إلى هذا المصير، ويكاد يصيح به: «أيها الأحمق!.. تمهل..! ابحث..! حقق..!». ولكنه لو سمع إلى هذا القول وتأمل وبحث كان شخصًا آخر غير «عطيل» بطبيعته التي عرف بها.





شكسبير

الآن انظر النقلة النوعية الجبارة التي قفزها عقل الحكيم مستمرًا في التأمل، مأساة (تراجيديا) أخرى لشكسبير، تصور لنا شخصًا آخر هو «هاملت».. كل ما فيه يناقض شخصية «عطيل» فهو من أبناء الشمال، بارد الطبع، أشقر الشعر، عميق الاطلاع، كثير التأمل، معقد النفس..! هذا الرجل قد علم أن عمه قتل أباه وتزوج من أمه!.. علم ذلك من شبح أبيه نفسه! ظهر له ورآه بعينه، مع الرفاق والحراس وسمع صوته وهو يهيب به أن ينتقم له من قاتله.. ويستحلفه بقسم رهيب، ثلاث مرات، أن يثأر.. والمشاهد يرى كل هذا التردد ويكاد يصيح به: «فيم كل هذا التأمل والتفكير؟.. أقدم!.. انتقم!».. ولكنه لو أصغى إلى هذا القول، وأقدم من الفور دون تأمل أو بحث، لكان شخصًا آخر غير «هاملت» بطبعه الذي عرف به! لاحظ الآن الخواطر والروابط والأبدال التي تناوبت على عقل الحكيم: لطالما خطر لي هذا السؤال: ترى ماذا كان يحدث لو أن هاملت بطبعه هذا هو الذي كان زوجًا «لديدمونة»؟.. وكان عطيل.. بطبعه ذاك الذي كان ابن الملك المقتول؟ أغلب ظني أن «ديدمونة» ما كانت تقتل..! فإن زوجها، بطباع «هاملت» وما فيها من مزاج هادئ، واطلاع عميق، وتأمل طويل، كان يتناول إفك الدساس بشك وحذر، وكان يبحث كل كلمة من بهتانه، ويحقق ويدقق ويسأل الناس، ويتردد في اتخاذ القرار الفاجع، إلى أن تتكشف له الحقيقة في آخر الأمر!.. بانكشافها تبرأ «ديدمونة» وتبطل المأساة!

كما أن عطيلاً بطبعه الحاد وخلقه الأرعن وعقله البسيط، وشخصه المقدام، ما يكاد يظهر له شبح أبيه يدعوه إلى الانتقام، حتى يهرع لساعته، والسيف في يده إلى عمه، فيغمد النصل في صدره دون تردد أو تأمل أو تفكير! وبذلك تنتهي المسرحية في الفصل الأول، وتبطل المأساة. مأساة النفس المعقدة. بما فيها من درس وغوص وتحليل! ها هنا إذن عبقرية شكسبير! إنه قبل أن يخلق الشخصية، خلق الطباع التي لابد أن يصدر عنها تصرف الشخصية. لقد أدرك هذا الفنان الخالد هذه الحقيقة البشرية النفسية العميقة وهي: «أن الأقدار والمصائر أجنة في بطون الطبائع!». ولكن يبقى السؤال معلقًا: لو حدث ما تخيل توفيق الحكيم فإننا. بالحق. نتجنب مأساة قتل «ديدمونة» ولمصارع عم «هاملت» في تلقي مصيره جزاء وفاقًا!.. ولكن هل نقبل أن يحدث هذا مقابل خسارتنا لهذا الفن العظيم عبر العصور؟!.

المعجم الآلي:

أهميته وسبل تطويره ومقارنته بالمعجم الورقي

أحمد محمد المعتوق
الظهران - السعودية

لقد بلغ الحاسب الآلي (الكومبيوتر) - كما هو مشاهد ومعروف - درجة كبيرة من الذيوع والانتشار، ومن التطور في الاستخدام في مجالات الإحصاء والفهرسة، وإيصال المعارف بمختلف أنواعها وأشكالها، وتخزين المعلومات والبيانات وتحليلها ومعالجتها وتبويبها وتصنيفها بمنتهى الأمانة والدقة والسعة والعمق والشمول، وهذا ما جعل هذا الجهاز موضع اهتمام العلماء والباحثين في حقول المعرفة، وميادين الحياة المختلفة.

وقد تنبه الباحثون اللغويون، منذ بدايات انتشار هذا الجهاز، لما يمكن أن يقوم به من دور حيوي فعال في مجال تعليم اللغة، وتلقين مفرداتها على مختلف المستويات؛ ولذلك اتخذت منه المؤسسات اللغوية، ومراكز تعليم اللغات، والدوائر المهتمة باللغويات، وما يتعلق بها من موضوعات في البلدان المتقدمة وسيلة مهمة، واستخدمته على نطاق واسع، ليس في مجالات البحث اللغوي، وأعمال الترجمة، ومعالجة المصطلحات العلمية والفنية وتخزينها وتنميطها، وفي إعداد البرامج المنظمة والفعاليات التي ترمي إلى تلقين مجموعات من المفردات اللغوية، وتعليم كيفية نطقها، وتعرف مدلولاتها وإيحاءاتها ومقابلاتها وأضدادها، وطرائق استعمالاتها، والجمع في ذلك كله بين المتعة والفائدة فقط. بل شمل ذلك عدداً كبيراً آخر من الأنشطة التي تساعد على تطوير المهارات اللغوية لدى النشء، وعلى تنمية حصائلهم اللفظية، وتنمية الرصيد اللغوي القومي عامة، ومن بينها عمل قواعد بيانية ضخمة للمفردات اللغوية تتخذ لتصنيف المعاجم الورقية على اختلاف أشكالها وأحجامها ومستوياتها، كما تساعد - في الوقت نفسه - على إعداد المعاجم اللغوية الآلية الكبيرة: الأحادية والثنائية أو المتعددة اللغة، والمعاجم اللغوية العامة والخاصة، ومعاجم المترادفات والأضداد وغيرها.

تسجل هذه المعاجم على أقراص ممغنطة ذات سعة عالية CD - ROM ليتم استخدامها آلياً إلى جانب المعاجم الورقية. حتى لقد أصبح من الأساسيات أن يزود كل جهاز معد للاستخدام الرسمي الجماعي أو الشخصي المحدود بمعاجم أو قوائم لغوية مثبتة لأكثر من لغة عالمية، وبأكثر من وجه أو طريقة، يستعين بها المستخدم في أعمال الترجمة والبحث أو الأعمال الكتابية بنحو عام.

المعاجم العربية

أما في اللغة العربية فإن الاهتمام قائم في الوقت الحاضر بإعداد معاجم آلية قطاعية جزئية للمصطلحات العلمية العربية، على نحو ما يسعى إليه مكتب تنسيق التعريب بالرباط، ثمة قوائم آلية منظمة تصنف هذه المصطلحات وتقسمها حسب حقولها أو موضوعاتها، على نحو ما يعده البنك الآلي السعودي للمصطلحات العلمية والتقنية (باسم) الذي تبنته مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بالرياض، وما زالت تسعى إلى تطويره. كما أن هناك مساعي لإعداد معاجم لغوية مختلفة المستويات والأشكال والأغراض على وسائط إلكترونية CDs مستمدة من مكنز عصري واسع شامل لمفردات اللغة العربية، على نحو ما تطمح إليه وتسعى في الوقت الحاضر إلى تحقيقه مؤسسة صخر للإلكترونيات.

ثمة مجهودات فردية في غالبها تسعى

إلى وضع معاجم آلية عربية ثنائية أو ثلاثية اللغة تخدم بالدرجة الأولى أغراض الترجمة الآلية، لم ينجز منها حتى وقتنا الحاضر في الواقع سوى قوائم قاصرة عن أن تكون معاجم بالمفهوم الكامل الصحيح للمعجم، بالإضافة إلى نقصانها أو محدوديتها وافتقارها الدقة، أو امتلائها بالأخطاء والهفوات. أما المعاجم اللغوية العامة الشاملة أحادية اللغة، ومعاجم المترادفات والأضداد فلم تلق - على حد علمي - العناية المطلوبة أو الاهتمام الملحوظ بعد.

إن الحاجة ماسة إلى المعاجم اللغوية العربية الآلية الواسعة التي تمد مستخدم الحاسب أو (الكومبيوتر) بما يحتاج إليه من الألفاظ والمعاني والصيغ اللغوية العربية على اختلافها. ليس لما لهذه المعاجم من دور كبير في نشر اللغة، وفي تسهيل التعبير بها فحسب، وإنما لما لوجودها في حد ذاته من أثر في بث روح الاعتزاز باللغة القومية والتوجه إليها، وإشعار النشء بأنها لغة مسايرة لتطورات الحياة ومستحدثات العصر جديرة بالعناية والاهتمام، شأنها في ذلك شأن لغات العالم المتقدمة الأخرى.

الحاجة قائمة

يرى الناشئ الحديث المستخدم لهذا الجهاز أن بإمكانه بنقرة خفيفة واحدة على هذا الجهاز أن يتعرف معنى الكلمة الأجنبية أو صيغها ومرادفها أو ضدها أو مقابلها في لغة أخرى، وربما طريقة نطقها، وكيفية استخدامها، والمفهوم المناسب لها في الاستعمال اللغوي الخاص والعام، بينما لا يرى ذلك ميسراً بالنسبة إلى مفردات اللغة العربية. وإن تيسر فبنحو قاصر متعثر محدود، أو أنه مقصور على إيراد المقابلات الأجنبية لطوائف قليلة منها، وترجمتها ترجمات سقيمة أو قاصرة في كثير من الحالات؛ لأنها موضوعة بجهود فردية ومن قبل أشخاص غير متمكنين من اللغة العربية على النحو المطلوب. للأسباب السابقة الذكر وغيرها تبقى الحاجة قائمة والطلب حثيثاً مستمراً على معجم آلي لغوي عربي أحادي اللغة ثري محكم النظام، مواكب للتطورات والتغييرات اللغوية المستمرة، يمكن أن يرجع إليه المستخدم لهذا الجهاز في حالة احتياجه إلى لفظ أو إلى معناه أو مرادفه أو ضده أو إلى طريقة نطقه وتلفظه، أو كيفية استعماله... هذا بالإضافة إلى حاجتنا إلى معاجم ثنائية اللغة رصينة دقيقة واسعة يمكن الاعتماد عليها ليس في مجالات تعلم اللغة أو اللغات الأجنبية فحسب، وإنما في ترجمة النصوص والوثائق المهمة أيضاً. وحاجتنا أيضاً إلى معاجم للتصحيح النحوي والإملائي والتهذيب اللغوي عامة.

الناشىء في حاجة إلى معجم لغوي آلي ييسر له معرفة مفردات اللغة العربية

إن المحاولات السابقة لإيجاد المعاجم العربية الآلية المذكورة لم تحقق النجاح المطلوب؛ لأنها قامت في الغالب على جهود فردية محدودة الإمكانات، كما أنها لم تنطلق من قواعد بيانية رصينة واسعة أو وافية للعناصر اللغوية. وهكذا فلا يعتقد أنها ستحقق هذا النجاح إذا بقيت على هذه الصورة.

إن المعجم اللغوي الآلي الذي نتطلع إليه، مهما كان نوعه ومستواه وغرضه، مثله كمثل المعجم اللغوي الورقي الجامع الرصين الذي نتطلع إليه، لا يمكن أن يتحقق وجوده الأمثل بجهود فردية، ولا يتحقق بجهود المتخصصين في البرمجة الآلية وحدهم، ولا بجهود الباحثين اللغويين أو المعجمين على انفراد، وإنما يمكن أن يتم إنجازه بتضافر جهود مشتركة يتعاون فيها هؤلاء جميعهم، بالإضافة إلى جهود بعض الخبراء في شؤون الإدارة والتعليم والثقافة والإعلام والعمل والاقتصاد وغيرهم ممن يشاركون ضمن هيئات ودوائر استشارية جانبية.

إن المعجم الآلي الذي نتطلع إليه لا يتحقق إلا بجهود لجنة أو لجان متفرعة مؤهلة مهيأة، موحدة الهدف، متنوعة الخبرات، متكاملة الأعضاء، تقوم بالإشراف عليها وتنسيق أعمالها إحدى المؤسسات اللغوية، العلمية المعتمدة على المستوى القومي. كالمجامع، والجمعيات اللغوية ومعاهد البحوث العلمية، وتدعمها مادياً ومعنوياً جهة أو جهات حكومية رسمية، أو مؤسسات اقتصادية ممولة قادرة وملتزمة.

والعمل في إعداد هذا المعجم يفترض أن ينفذ وفق مخطط مدروس وحوارات رصينة جادة متعددة بين كامل الأعضاء المشتركين في المشروع، وعلى أساس قواعد شاملة للبيانات اللغوية، وإحصاءات وافية دقيقة لألفاظ الشيوع، ومفردات اللغة

الحاضرة وتراكيبها وصيغها المستخدمة في المجالات التعليمية، والأعمال الكتابية والوظيفية، والأنشطة الحياتية عامة على اختلاف أنواعها وأشكالها ومستوياتها. وهكذا كل نوع من المعاجم الآلية تستقى له مادته المكونة من مصادرها الخاصة والعامة، وتستكمل وفقاً لغرضه والدور المنوط به.

بعد استخلاص الألفاظ والصيغ والتراكيب أو (الوحدات المعجمية) بنحو عام من النصوص المختلفة وغيرها، وبعد جردها ومعالجتها وفق النظم الإحصائية والتحليلية الحديثة، يتم ترتيبها وتصنيفها وتنميطها كلها وفق منهج محكم، ونظام حيوي دقيق يمكن مستخدم الحاسب الآلي من استحضارها، واسترجاع معانيها أو مرادفاتها، وتعرف طرائق نطقها، وكيفيات تركيبها واستعمالها في دقة ومرونة ويسر، ويتمشى مع ما بلغته نظم الحواسيب الآلية من تطور في استرجاع المعلومات وربطها وتحديدها وإخضاعها للمستخدم في أسرع وقت ممكن، مستفيداً في كل ذلك من الإمكانات الآلية المتاحة، والوسائل المسموعة والمقروءة والمرئية التي لها أثرها الإيجابي في التوضيح والتقريب، وتحقيق التفاعل الذهني المثمر، والاستيعاب والتمثل الكامل للعناصر اللغوية المقدمة، ولطرائق التعامل بها في أنشطة التعبير المختلفة، ولا سيما الكتابية منها.

المعاجم اللغوية ليس لها دور كبير في نشر اللغة، وفي تسهيل التعبير بها فحسب، وإنما لوجودها أثر في بث روح الاعتزاز باللغة القومية والتوجه إليها، وإشعار النشء بأنها لغة مسايرة لتطورات الحياة ومستحدثات العصر

حتى يتحقق الهدف

إن مجرد إفراغ معجم قديم أو حديث جاهز مطبوع في أقراص أو إسطوانات ممغنطة CD - ROM، على نحو ما في بعض المعاجم القديمة كالصحاح للجوهري ولسان العرب لابن منظور وغيرهما، هذا الإجراء لا يحقق الأغراض المنشودة من المعجم الآلي المقصود على النحو المطلوب لأسباب كثيرة منها:

ـ لقد ثبت أن المعاجم الورقية الجاهزة حالياً القديم منها والحديث، رهين إشكالات متعددة، ومعظمها ـ إن لم يكن كلها ـ يحتاج إلى غربلة و تهذيب وتنقية من الشوائب، وترتيب دقيق محكم للألفاظ والمعاني والشواهد المتعلقة بها..(١)

إن الباحث عن معنى كلمة في معجم قديم مفرغ على القرص الإلكتروني على هيئته وصورته الأصلية سيجد هذا المعنى مقحماً بين حشد من المعاني والتفسيرات والشواهد والفوائد اللغوية، تماماً كما يجده في المعجم في صورته الأصلية الورقية، ولا فارق هنا إلا في التحديد أو الكشف السريع عن مكان الكلمة من المعجم. أما ما يتعلق بها من شروح وتفسيرات وشواهد فستحضر معها أمام بصره على صورتها وكثافتها في الأصل، ويبقى المراجع يفتش ويبحث بينها عن ضالته، إن كانت معنى أو شاهداً على الاستعمال أو غيره.. مما قد ينفره ويصرفه عن استخدام المعجم المختزن في القرص؛ لأنه يجد فيه إجراء غير عملي ومغايراً لما يقتضيه استخدام الحاسب من الدقة والسرعة في إنجاز العمل.

ـ وحتى لو تهيأ للمراجع أن يرى معنى الكلمة بالنحو السريع المألوف من الحاسوب في الاسترجاع، فإنه قد لا يجد هذا المعنى موافقاً لما هو مألوف في لغة العصر؛ لأن معاجمنا القديمة تحوي الكثير من الكلمات والمعاني والاستعمالات الغريبة أو الشاذة النادرة التي لم تعد سارية المفعول، أو جارية على الألسن في الوقت الحاضر. ومن ثم فإن المعنى أو الكلمة التي يحصل عليها هي بدورها تحتاج إلى تفسير وشرح.

ـ إن المعاجم المدونة أو الورقية لها اهتماماتها المفترضة بلغة التدوين والكتابة، ولغة القراءة ولغة الحوار على حد سواء، أي بكل ما يتعلق بالنشاطات اللغوية على اختلافها من مفردات اللغة وصيغها، بينما يفترض أن يكون للمعجم الإلكتروني ـ كما يمكن أن يتصور ـ اهتمامه الخاص، والأكبر بلغة التدوين؛ لأنه يستخدم في مجالات الكتابة أكثر مما يستخدم في قراءة النصوص. فالقارئ لا يضع أمامه الحاسب الآلي مفتوحاً ليبحث فيه عن معنى كلمة غريبة تواجهه في نص يقرؤه أو نشاط كلامي يمارسه!

ـ إن المعاجم الورقية المدونة لها مستوياتها المختلفة من حيث المادة والمنهج وأسلوب التفسير والشرح والاستشهاد أو التمثيل، وكل فئة من المجتمع يمكن أن ترجع إلى ما يناسبها من هذه المعاجم. بينما المعجم الآلي يستخدم ـ كما هو الغالب أو الحاصل ـ من قبل كل الفئات، وعلى جميع المستويات، ولابد له إذا كان الأمر كذلك من نظام موحد، ومستوى يوفق بين حاجات مختلف الفئات. إلا أن يكون للمعجم الآلي مستويات مرحلية على غرار المعاجم المرحلية الورقية التي سبق الحديث عنها في كتاب «الحصيلة اللغوية: أهميتها ـ مصادرها ـ وسائل تنميتها»(٢).

هذه بعض الملاحظات الموجزة التي لم تستق من مصدر، ولم يرجع فيها إلى مرجع خاص غير التجربة الشخصية في مجال استخدام الحاسب الآلي، ومعاينة بعض القوائم اللغوية العربية الآلية المتوافرة والموازنة بينها بنحو مبدئي سريع نسبياً، بله تحسس بعض المواقف الخاصة والعامة

تجاه هذه القوائم، وتجاه فاعليتها من خلال التدريس والمعايشة للأفراد عامة، وللطلبة الذين أدرسهم بصورة خاصة. وما استفدته من خلال هذه التجارب جميعها كثير في واقع الأمر، لا يسع المجال هنا للإفاضة في طرحه أو الحديث عنه، ولكنني سأعود بإذن الله تعالى إلى طرحه والنظر فيه بتأمل أكثر، وتمحيص أدق، وعلى ضوء الدراسات النظرية الحديثة ذات العلاقة، حيث تتعمق التجربة، ويتسع الطرح، ويبعد النظر، وتنضج الثمرة، ويزداد النفع بإذن الله. ولكن هناك سؤال كثيراً ما يتبادر إلى الذهن، ويلح على الإجابة وهو: هل المعجم الآلي المنتظر - على فرض تحققه - سيغني عن المعجم الورقي، كما قد يتصور بعض الناس، ويفي بحاجة مستخدم اللغة، ومن ثم هل ستنسحب المعاجم الورقية من الساحة، أو تقل فاعليتها في هذا العصر الذي نشهد فيه تطوراً سريعاً للحاسب الآلي وأنظمته وبرامجه؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ربما تكون مستغربة لدى بعضهم، وفي حالة النظر السطحي السريع، وتحت وطأة الانبهار الشديد بما وصل إليه الحاسب الآلي وبرامجه من تطور؛ ولهذا فإن الإجابة عن السؤال المذكور تحتاج إلى عرض جاد متأن يتناول مختلف الأسباب والاعتبارات، ويستوعب جميع التفاصيل والأسئلة المتفرعة، إلا أنه يمكن القول - بنحو موجز سريع مدرك في أغلب الظن من قبل عامة المثقفين غير المتخصصين - بأن المعجم اللغوي الآلي - مهما كان مستواه ومدى تطوره - لا يغني عن المعجم الورقي - وفي الوقت الراهن على الأقل؛ لأنه لو كان الأمر خلاف ذلك لتوقفت المؤسسات اللغوية ودور النشر في الدول المتقدمة عن إصدار المعاجم الورقية، وهي على ما هي عليه من تقدم كبير في استخدام إمكانات الحاسب الآلي، وهذا الأمر لم يحدث - على ما نعلم - في أية دولة من هذه الدول. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى هذه الدول، فإنه أولى بالنسبة إلى عالمنا العربي؛ وذلك لأسباب كثيرة منها:

- أن قطاعات كثيرة من المحتاجين إلى مراجعة المعاجم اللغوية في مجتمعنا العربي لا يستخدمون الحاسب الآلي، لعدم وجود القدرة مادياً على شرائه، أو لعدم التمكن فنياً أو صحياً من استخدامه، أو لعدم توافر كل آلياته ومستلزمات استخدامه. ويجب هنا ألا يقاس فقط على دول الخليج أو دول النفط الثرية وما تعيشه من ظروف اقتصادية وتجارية مساعدة على توفير مختلف المناخات المهنية لانتشار الحاسب الآلي ومستلزماته وبرامجه ولوازم التدريب على استخدامه، ففي البلدان العربية مجتمعات فقيرة نسبياً لا تتوافر فيها مثل هذه الظروف.

إن مجرد إفراغ معجم قديم أو حديث جاهز مطبوع في أقراص أو أسطوانات ممغنطة CD - ROM، لا يحقق الأغراض المنشودة من المعجم الآلي المقصود على النحو المطلوب

علماً بأن نسبة كبيرة من المتعلمين والمهتمين بالثقافة واللغة من غير أبناء الجيل الجديد وشبابه حتى في دول الخليج لا تستخدم الحاسب الآلي أو لا تتمكن من استخدامه، وبتعبير آخر «ليست من جيل الكومبيوتر». وليس هناك إحصائية ثابتة دقيقة يمكن أن يستند إليها في ذلك، ولكن يمكن إدراك ذلك من خلال المعايشة. وبناء على ذلك فلا غنى لهؤلاء عن المعجم الورقي.

- أن البحث عن الكلمة في المعجم الآلي يستلزم القرب من الحاسب الآلي نفسه، ويتطلب فتحه ثم فتح ملف المعجم الذي توجد الكلمة فيه واستعراض قوائم الكلمات، ويترتب على ذلك عدة أمور منها:

أ- أن الباحث عن الكلمة لا يستفيد من المعجم الآلي إذا كان بعيداً عن الجهاز. ولا يستطيع التنقل أين يشاء به، كما يتنقل بالمعجم الورقي.

ولا يعتد في الوقت الراهن على الأقل بتلك الحاسبات أو الأجهزة الصغيرة المتنقلة التي تشتمل على معاجم لغوية صغيرة؛ لأن هذه المعاجم - على فرض وجود ما خصص للعربية منها - قاصرة عن استيعاب الكثير من الكلمات والصيغ اللغوية التي يحتاج إليها مستخدم اللغة العربية، فهي لا تستوعب إلا مجموعات قليلة منها، ولم يصدر حتى الآن - كما أعلم - جهاز مستوعب لجميع الألفاظ العربية التي يحتاج إليها طالب اللغة الحديث أولاً. وثانياً، لأن معظم هذه الحاسبات مشتمل على ما يشبه معاجم الترجمة أو المعاجم الثنائية اللغة، أي على قوائم من الألفاظ الإنجليزية مثلاً مع مقابلاتها العربية، ولذلك فهي يمكن أن تكون وافية بعض الشيء للأغراض التجارية، أو للمترجمين والدارسين باللغات الأجنبية من الطلاب العرب.

ب- إن فتح الجهاز، ثم فتح الملف الخاص بالمعجم فيه واستعراض قوائم الكلمات الموجودة المختزنة تتطلب في العادة وقتاً أطول من الوقت الذي يتطلبه البحث عن الكلمة في المعجم الورقي، مع افتراض المهارة في استخدام المعجمين.

وقد يقال: إن المعجم الورقي يقتضي تعرف منهج المعجم نفسه وأصل الكلمة أو جذورها والبحث بين المشتقات - كما هو الحال بالنسبة إلى المعاجم التي ترتب الكلمات فيها بحسب أصولها - وهذا يستغرق من الوقت أكثر مما يستغرقه البحث في المعجم الآلي، إلا أن كثرة ممارسة استخدام المعجم الورقي - كما هو الشأن في استخدام المعجم الآلي - تمكن المستخدم من الإسراع في العثور

على الكلمة. إضافة إلى أن هناك معاجم عربية نطقية ترتب الكلمات كما هي مكتوبة أو منطوقة، وبذلك فلا تتطلب من الباحث تجريدها ولا سلخها ولا البحث بين مشتقاتها.

- إن المعجم الآلي في الغالب يتيح للباحث الاطلاع على الكلمة أو الصيغة اللغوية وحدها، بينما يتيح المعجم الورقي للباحث الاطلاع على جميع الاشتقاقات والصيغ المرتبطة بها، ولاسيما إذا كان المعجم متبعاً للنظام الجذري في ترتيب أصول كلماته. كما يتعرف فيه الباحث الأمثلة والشواهد السياقية التي قد تذكر لشرح الكلمة أو الصيغة اللغوية أو التمثيل عليها أو بيان طريقة استعمالها في التراكيب التعبيرية المختلفة، وإن كان يمكن تطبيق ذلك في المعجم الآلي وفق برمجات معينة.

- لا يتيح المعجم الآلي فرصة التركيز في معنى الكلمة والتأمل في ما قد توحيه استعمالاتها أو حروفها وتركيب هذه الحروف من دلالات انفعالية أو عاطفية إلا إذا كان المعجم الآلي أساساً آخذاً في الحسبان أداء هذا الغرض.

- يجنب المعجم الورقي ما يتعرض له الباحث في المعجم الآلي من أشعة مرهقة للبصر ومن إجهاد للبدن ناتج من الالتزام بجلسة خاصة في مواجهة الجهاز، في الوقت الذي لا يتطلب فيه المعجم الورقي التعرض لإشعاعات الشاشة، ولا الالتزام بجلسة معينة، فبإمكان مستخدمه أن يبحث فيه وهو جالس أو واقف أو ماش أو مستلق.. ولا سيما إذا كان هذا المعجم معتدل الحجم، حديث التصنيف، مناسباً لمستوى المراجع الزمني والثقافي أو المرحلي.

المعجم اللغوي الآلي - مهما كان مستواه ومدى تطوره - لا يغني عن المعجم الورقي؛ لأنه لو كان الأمر خلاف ذلك لتوقفت المؤسسات اللغوية ودور النشر في الدول المتقدمة عن إصدار المعاجم الورقية

إن ما سبق قوله أو استثناؤه لا يعني - بأية حال من الأحوال - التقليل من أهمية الحاسب الآلي وما يمكن أن يقوم به من دور كبير في خدمة اللغة وفي نشرها، وتسهيل تعلمها وتعليمها. إن المعجم الآلي يكتسب أهميته من أهمية الحاسب الآلي نفسه، ودوره الكبير في تطوير الدراسات والبحوث والأعمال في معظم مجالات المعرفة، وميادين الحياة على نحو ما نبين. إن لكل من المعجم الآلي والمعجم الورقي دوره الذي لا ينكر في مجاله، وفي حدوده المعرفية والاجتماعية الخاصة، وهذا يعني أن المعجم الآلي لا يلغي دور المعجم الورقي، ولا يدعو إلى القول ولا إلى مجرد التصور أن هذا الدور قد انتهى أو تراجع. وإنما يبقى لكل من المعجم الورقي والمعجم الآلي دوره ومجاله وفاعليته.

وإذا كان للمعجم الورقي دوره المألوف وفاعليته الملموسة في مختلف النشاطات اللغوية الثقافية فإن للمعجم الآلي دوره الكبير في مجال الكتابة والتحرير الآلي بنحو خاص، إذ يمكن للمعجم المطور من هذا النوع - على سبيل المثال - أن يراجع نصاً مكتوباً، ويصحح ما فيه من أخطاء لغوية وإملائية وصرفية عن طريق موازنة هذه الأخطاء بما هو مختزن في الحاسوب من كلمات وتراكيب وصيغ وأساليب بنحو خاطف سريع لا يتيحه استخدام المعجم الورقي.

وقد يقترح الحاسب الآلي على المحرر كلمات بديلة إذا رأى أن هناك كلمات تتكرر في النص، وذلك عن طريق عرض طائفة من الألفاظ والصيغ المرادفة لهذه الكلمات أو المشابهة أو المقاربة لها في المعنى، كما هو موجود في المعاجم الآلية الأجنبية، مما لا يتيحه معجم اللغة العام بشكله الورقي المألوف. ويحتاج المحرر فيه إلى أن يرجع إلى معجم ذي وظيفة أخرى، وهو المعجم الخاص بالمترادفات.

وكثيراً ما يتوقف الفرد عن الكتابة لمحاولته استرجاع مصطلح متعلق بموضوعه أو استذكاره، وقد يضطر إلى استشارة معاجم ورقية متعددة لكي يحصل على ضالته. وفي هذه الحالة يمكن للمعجم الآلي أن يسعفه ويوفر عليه جهد البحث والتفتيش والاستذكار، إذ يضع أمامه بإمكاناته التخزينية والبحثية المتاحة قوائم من الألفاظ والاصطلاحات والصيغ الصرفية والمترادفات والأضداد ذات العلاقة الوثيقة بالموضوع، كلها في وعاء واحد، فيختار منها ما يناسبه أو يسد حاجته في التعبير.

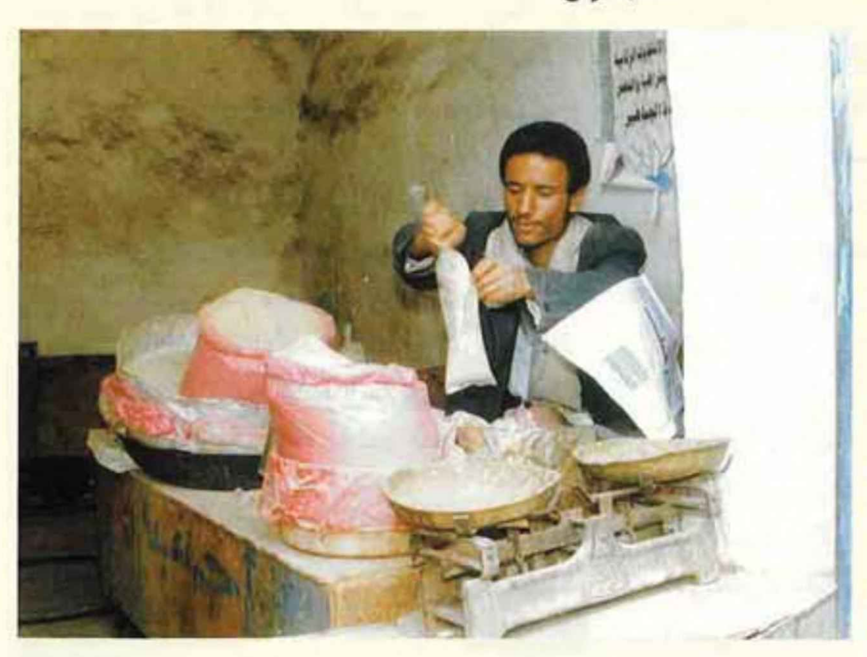
بهذا النحو يصبح المعجم الآلي بمنزلة مجموعة من المعاجم المختلفة مجتمعة في معجم واحد، مما يجعله مختلف الأدوار، متعدد الأغراض، متشعب الوظائف، متنوع الفوائد، قد لا يرتقي المعجم الورقي العام إليه من حيث الفاعلية في مجال التحرير الآلي.

المراجع

١. د. أحمد محمد المعتوق، المعاجم اللغوية العربية: المعاجم العامة: وظائفها ومستوياتها وأثرها في تنمية لغة الناشئة، دراسة وصفية تحليلية نقدية، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٩م)، ص ١٩٥ - ١٩٨، وانظر الجزء الخامس ص ٢٠١ - ٢٥٥.
٢. د. أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية: أهميتها - مصادرها - وسائل تنميتها، عالم المعرفة (٢١٢)، ربيع الأول ١٤١٧هـ - أغسطس/ آب ١٩٩٦م، ص ٢٢٥ - ٢٢٨.

صناعة «الشمة» في اليمن

حمود علي منصور
صنعاء - اليمن



كنت مستأجراً مسكناً في حي شعبي(١)، وعلى أحد الشوارع الفرعية المؤدية إليه توجد مجموعة من الدكاكين تقوم بصناعة «الشمة»(٢) وكثيراً ما كنت أسير في الشارع، وأشاهد التبغ معرضاً للشمس، وتأتي الرياح الخفيفة لتسحب جزءاً منه، وتضيف إليه ما تحمله من أتربة قذرة ومخلفات صغيرة متنوعة، وقيل لي: إن الكلاب تمر عليه، وقد تبول فوقه.

هذا المنظر ولقطات أخرى جعلتني أفكر في أبعاد هذه المادة، وأوجدت في نفسي أسئلة كثيرة لا يشبعها إلا استطلاع صحفي. ولتكون المعلومات دقيقة كان لابد من الدخول إلى دكاكين صناعة الشمة وتصويرها والحديث مع منتجيها..

معامل الشمة

وقد فوجئت بتخوف المنتجين وعدم ترحيبهم بمثل هذه الزيارة، لربطهم إياها بحملة يقوم بها سكان الحي ضدهم بالتعاون مع «صحة البيئة»، وقد وصل الخلاف إلى درجة ساخنة جعلت المنتجين في حالة

استنفار وشك من زيارة أي غريب (مثلي)، وقد تجمع المنتجون لمواجهتنا، وعرفنا أنهم جميعاً تربط بينهم صلة القرابة وهم وافدون إلى صنعاء وليسوا من أبنائها الأصليين.

إذن: التصوير ممنوع، ولا إجابة على الأسئلة.

والإصرار على« البقاء في المنطقة معناه التحدي.. ونتيجة لا تحمد عقباها!. وكان علينا أن نستخدم طرقاً غير مباشرة للحصول على صور ومعلومات حتى لا يكون الاستطلاع مبتوراً.

إدارة صحة البيئة بأمانة العاصمة قامت بإغلاق هذه الدكاكين في ٢٥ أبريل/نيسان عام ٢٠٠٠م بناءً على شكاوى أهالي الحارات المحيطة بالمعامل إلى أمين العاصمة.. ولكن جهات رسمية أخرى سمحت لهم بفتح معاملهم ومزاولة إنتاجهم دون إبداء الأسباب.

وأشير إلى أن أحد المسؤولين سبق أن رفع مذكرة رسمية إلى وكيل نيابة الإسكان وضّح فيها أضرار الشمة، وما تسببه معاملها من أضرار للسكان المجاورين، ولاسيما الأطفال وكبار السن. وكذلك الاهتزازات الأرضية الناتجة من حركة المطاحن. إلاّ أن الموضوع لم يجد حماسةً لدى بعض من بيدهم القرار.

ويلاحظ القارئ - من خلال الصور - أن معامل الشمة بسيطة جداً، فكل منها حانوت صغير لا يتعدى ٣×٣ م، فيه طاحونة يدوية تصنع محليّاً رُبطت بمحرك كهربائي.. ولا يحتاج المنتج إلى مخازن لمنتجاته، فالسوق تستوعب المنتجات أولاً بأول بحيث لا يوجد فائض، ولا توجد أزمة طلب.

القائمون على هذه المعامل عمال بسطاء هم مُلاكها، أما المواد الخام فيشترونها من المحل المجاورلهم بقدر الحاجة، ومن ثمّ، فهم ليسوا في حاجة إلى تخزينها، وليسوا في حاجة إلى وسائل لنقلها. أما الوضع الصحي للعاملين فيبدو أنه لا يسر، وإن كانوا قد اكتسبوا بعض المناعة، وأصيبت أجهزة الإنذار لديهم بالتبلد، فلم تعد تعمل! وما يهم المنتج هو الربح الذي تدره هذه المهنة، وترفع عنه وعن أسرته معاناة المتطلبات المادية للمعيشة.

كان اليهود اليمنيون محتكرين لصناعة الشمة.. كما كانوا محتكرين لعدد من الصناعات التقليدية التي كانت مزاولتها تعد في حكم «العيب» في نظر المجتمع اليمني، مثل دباغة الجلود، وصناعة الأحذية.

المكونات

المكونات الظاهرة هي التبغ المستورد من الهند على شكل رزم كبيرة، ويسمى «السرّات» وقد تكون اسم المنطقة التي يزرع فيها التبغ في الهند، وهو الأرخص سعراً، ومن الأنواع الرديئة، بينما التبغ المحلي مرتفع السعر. يضاف إلى التبغ كمية كبيرة من نوع معين من الحجر الجيري يطلق عليه اسم «النورة» - متوافر محليّاً - وكمية من الملح البحري.. وقد تضاف مواد لا يفصح عنها صنّاعها؛ لأنها من أسرار المهنة - كما هو الحال في صناعة السجائر، وتدخل ضمن هذه المكونات الأتربة والقاذورات التي تنتقل إلى هذه المادة عند تعريضها لأشعة الشمس على الشارع الذي لا يزوره عمال النظافة إلاّ في المناسبات.



نموذج لموضع الشمة وآثار الطبقة الطلائية على الغشاء المخاطي للشفة السفلية وانحسار اللثة والتصبغ

يأخذ العامل عصا غليظة يضرب بها تلك المكونات ليمتزج بعضها ببعض من جهة، ولتتفتت أوراق التبغ العريض، وتصبح صغيرة الحجم خالية من الرطوبة ليسهل مرورها في الطواحين البدائية من جهة أخرى؛ يطحن هذا الخليط عدة مرات حتى يصير ناعماً، وهو ما يسمى «الشمة البيضاء»، وهي الأكثر انتشاراً، والأرخص سعراً.

وعجيب هذا الخبر

«كان الناس في الماضي يقبلون على السعوط إقبالاً شديداً لدرجة أن نصف التبغ المتحصل عليه في العالم كان يخصص لصنع السعوط، ولكن هذه العادة خفت كثيراً مع الزمن، واتجه الناس إلى السيجارة، فأصبح اليوم لا يستعمل من تبغ العالم في صنع السعوط إلا ٢٪ فقط(٣).

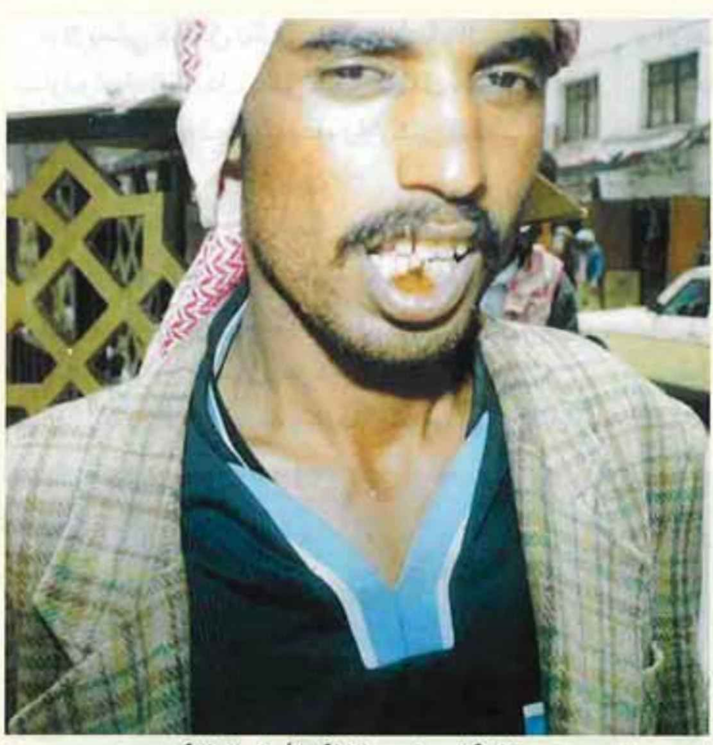
أسماؤها في اليمن

للشمة في اليمن أسماء متعددة منها:

- **الكبير**: تصنع في مدينة باجل إحدى أكبر المدن التهامية، وتقع في محافظة الحديدة. وتعدّ الأولى في نظر مستخدميها.
- **السوداء**: سوداء اللون تقل نسبة الملح فيها، وكذلك الحجر الجيري. وينتشر استخدامها في محافظة تعز.
- **الجيشي**: نسبة إلى موزعها المقيم في صنعاء.
- **الحرضي**: نسبة إلى مدينة حرض القريبة من الحدود الجنوبية الغربية للمملكة العربية السعودية.
- **الدودي**: نسبة إلى موزعها.
- **الشرسي**: نسبة إلى منتجها.

الشمة أو المضغة أو السعوط

«الشمة هي الاسم المتداول في مناطق تهامة اليمن وتهامة الحجاز للتبغ الذي يوضع في الفم بين الشفة



الشمة السوداء بين الشفة والأسنان السفلية

السفلى واللثة.. أما اسم المضغة فهو منتشر في حضرموت وما حولها.. واسم السعوط ينتشر في السودان»(٤).

«والواقع أن اسم «الشمة» غير دقيق فهي لا تشم أبداً، وإنما توضع في الفم ما بين الشفة السفلى وجذور الأسنان الأمامية.. وتمتص امتصاصاً من الغشاء المخاطي للفم. وأقرب الأسماء إلى الصحة هو اسم «المضغة»، وإن كانت لا تمضغ مضغاً، بل تترك لتمتص بالتدريج من غشاء الفم المخاطي»(٥).

من يستخدمها؟

قد يُدهَش القارئ عندما يعلم أن واحداً من أبرز شعراء اليمن كانت الشمة لا تفارقه حتى في سفرياته الخارجية لحضور الملتقيات الأدبية والمؤتمرات الشعرية، ولذلك كان السواد واضحاً في أسنانه، مع أن السواد ليس بالضرورة دليلاً على استخدام الشمة.

ولا يعني هذا أن المثقفين والأدباء اليمنيين يتناولونها، إنما يدل على مدى تغلغل هذه العادة وصعوبة التخلص منها، وإن كان انتشارها محدودًا.

ففي باب اليمن الذي أطلق عليه بعد الثورة اسم باب الحرية، وهو أحد أهم المداخل لمدينة صنعاء الأثرية، والذي كان يفترض أن يكون خاليًا من الباعة المتجولين لتسهيل حركة السياح والراغبين في دخول المدينة التي أصبحت متحفًا مفتوحًا يضم كثيرا


استعمال الشمة شائع بين طلبة المدارس

من المعالم التي يحرص زائر صنعاء على مشاهدتها، في مدخل هذا الباب تجد عددًا كبيرًا من بائعي الشمة، وعددًا أكبر من الزبائن والمتسكعين، وهم في الغالب من البسطاء الذين لم يعترضوا على تصويرهم، وأبدوا استعدادا للحوار.

أحد الشباب (١٨عامًا) تعلم حتى الثالث الإعدادي، ثم ترك الدراسة، وانتقل إلى صنعاء ليبحث عن عمل، يتعاطى الشمة من عامين، قال: إنه لا يستطيع تركها، ولو فعل ذلك لأصيب بالجنون.

آخر يستخدم الشمة السوداء من خمس سنوات، قال: إنه لجأ لاستخدامها لتعوضه عن السجائر التي ارتفعت أسعارها، ولم يعد قادرًا على توفير ثمنها، ويقول: إنه يبعد الملل والضجر بإلقاء كمية بسيطة في فمه!

الشائعات تقول: إن الشمة تقوي الأسنان، وتمنع التسوس عنها، وتهدئ آلامها.. هذا السبب يدفع كثيرًا من البسطاء - ذكورًا وإناثًا - لاستخدامها، ومن ثم إدمانها.

شيخ قبيلة مشهورة في اليمن - كبير السن والمقام - وجدته في مكة يستخدم الشمة ، لم أستغرب استخدامه لها، بل استغربت كيف يحصل عليها في بلد تمنع استيرادها وتجارتها.. فقال: إنه يشتريها بأسعار مرتفعة من بائعين سريين يهربونها من اليمن.

وعمومًا مثل هذه الظاهرة يندر أن تجدها بين طلاب الجامعة أو حتى طلاب الثانوية، وهي ظاهرة منبوذة في هذا الجو، لا بسبب التوعية، ولكن لمنظرها المقزز.

لقد شعرت بالتقزز وأنا أشتري الخبز من رجل يحدثني وفمه مملوء بالشمة، وأمامه الخبز مكشوف، ويمسكه بيده التي قذفت الشمة في فمه ولم يغسلها!.

التبغ في اليمن

إن ما لفت نظري وأنا أقرأ في كتاب «الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان»(٦)، مع أن الكتاب يهتم بتاريخ الأمراء العثمانيين في اليمن عامة، وفي منطقة «تعز» خاصة، تطرق المؤلف إلى دخول التبغ إلى اليمن، ومشاهدة دخوله أول مرة، يقول في ذلك:

«وصل إلى اليمن شجر الطنباق (التنباك) الذي انهمك الناس في شرب دخانه، وأول من وصل به إلى ديار اليمن، الشيخ علي المغربي الحكيم، قيل من أرض المغرب، وقيل من أرض الهند، وجاء المذكور بشيء من بذره، فاستنبت في أرض اليمن، فنبت وصلح وثبت، وكانت الأوقية منه أول ظهوره، تباع بقرش فضة أبو مشط عن أربعة وستين كبيراً فضة، وبيع بأكثر من ذلك، ولما استنبت في جميع البقاع، وملأ البلاد وشاع، بيع الرطل منه، وهو ست عشرة أوقية بنصف كبير، وغلبت عليه التسمية بالتتن، بتاءين ثم نون ساكنة، وهي كلمة تركية معناها بالعربية الدخان.

وأخبر الحكماء أن في شرب دخان الطنباق المذكور منافع، منها: أنه يذهب الغشاوة الحاصلة في العينين من الرطوبة، وينبت لحم اللثة بين الأسنان، ويحلل النزلة الحاصلة في الرأس، ويدفع الريح من البطن، ويهضم العيش، ويقطع البلغم الكامن في الصدر، وناهيك به نفعاً في ذلك. واتخذ الناس لشربه آلات، واخترعوا لذلك هيئات، فمنهم من يشربه مجرداً من الماء، ومنهم من يشربه بالماء، ولكن الهيئة المجردة عن الماء أنفع وأسرع إلى النفع وأقطع، وهي التي كان يستعملها الحكيم الذي جاء به، والحكم فيه أنه مباح» أ.هـ. كان هذا قبل أربعمئة عام.

وعند قراءتي لكتاب رحلة في بلاد العربية السعيدة(٧) بغرض الاستمتاع وجدت المؤلف - الذي زار اليمن أربع مرات أولاها عام ١٩٢٧م - قد خصص صفحتين عن «الشمة» وما تسمى «البردقان» وهو الأديب الوحيد - حسب علمي - الذي تحدث عن تلك المادة بذلك التوسع، وإن كان بعضهم قد ذكرها بصورة عابرة، مثل الفرنسية كلودي فايان التي قالت: «إن القات في العادة يخصص للجمعة والمناسبات الهامة، أما في الأيام الأخرى فإنهم يدخنون ويضعون في أفواهم البردقان أو مسحوق التنباك»(٨).

مع الأطباء

على بعد عشرات الأمتار من معامل الشمة توجد عيادة لطب الأسنان، وفيها عرَّفت الطبيب بغرضي من الزيارة، وقد أبدى تحمسه للموضوع، وأخذ يعدد أضرار الشمة على الفم والأسنان.. ولكون المرضى في الانتظار بموجب مواعيد سابقة حدد الدكتور جبر محمد الفقيه موعداً آخر خصصه لهذا الغرض، كما أشار بوجود دراسة ميدانية، ووعد بالبحث عنها لتدعم الموضوع، كما وعد بتوفير شرائح مصورة «سلايدات» لعينات تضررت بالشمة.

وفي الموعد والمكان المحددين تم الاجتماع بالدكتور جبر ومعه الدكتور عادل الأديمي (ماجستير في طب الفم والأسنان).. ومع أن الشمة توفر لأطباء الأسنان زبائن كثيرين إلاّ أن الطبيبين تحدثا عن الشمة بحسرة وكأنهما مسؤولان عن القضاء على هذه الظاهرة.

هل الشمة تمنع تسوس الأسنان؟

سؤال أجاب عنه الدكتور /جبر قائلاً:

«هذا المفهوم الشائع بين متعاطي الشمة خاطئ؛ لأن مادة التبغ تسبب تصبغ الأسنان التي تصعب إزالتها بأدوات طبيب الأسنان العادية، كما تعمل على تصبغ طبقة الجير المتكونة حول الأسنان مما يزيدها صلابة فتكون سبباً رئيساً في انحسار اللثة، وتكوين الفراغات اللثوية؛ مما يؤدي إلى سقوط الأسنان في وقت مبكر».

الدكتور محمد أحمد رجاء ـ المدير العام لمكتب الصحة بمحافظة صعدة سابقًا ـ أكد للفيصل أنه لا يوجد أي مسوّغ لتناول مثل هذه السموم والمهلكات التي تسمى الشمة، وأشار إلى أنها «تعدّ مادة متعفنة تحوي كثيرًا من السموم من ابتكارات الإنسان، فهي تحتوي على التبغ الذي لا يخفى ضرره، إضافة إلى الجير الحي (النورة) وهو مادة حارة يمكنها أن تحدث حروقًا للجلد الذي تلامسه (جلد الفم الداخلي) ومع طول الاستخدام يحدث التهاب دائم قد يؤدي إلى حدوث تغيير «طفرة» في الأحماض النووية للخلايا التي تتعرض له مما يعجل بظهور أورام التهابية قد تتطور إلى أورام خبيثة».

لم أكتف بما قاله أطباء يمنيون، بل رجعت إلى بعض المراجع التي تحدثت عن الشمة فوجدت الآتي:

يقول د. محمد علي البار(٩):

«مستخدم الشمة لا يعاني إلا القليل من الأمراض التي تصيب الجهاز التنفسي عند المدخنين (...) ولكن مستخدم الشمة يعاني من أمراض الجهاز الهضمي، والفم، والأسنان بأضعاف أضعاف ما يعانيه مستخدمو السجائر والسيجار والشيشة».

ويقول أيضًا(١٠): «وقد وجدنا زيادة كبيرة في التهابات المريء والمعدة وقرحة المعدة والاثنى عشري نتيجة استخدام الشمة.. كما وجدنا أن هذه الالتهابات لا تشفى رغم استخدام الأدوية والعقاقير الجيدة مادام المريض مستمرًا في تعاطي الشمة».

الشمة والسرطان

لم أكن أتوقع أن تكون الشمة أحد أسباب سرطان الفم.. ولم يكن أطباءُ اليمن الوحيدين الذين توصلوا إلى ذلك.

يقول د. محمد أحمد رجاء: «... وهذا ما يفسر انتشار حالات سرطان الفم واللثة والحلق بين متعاطي الشمة والقات، وتساقط الأسنان أيضًا».

ويقول د. عادل الأديمي: «موضع الشمة في فم شخص يستعملها تجد فيه طبقة حمراء دموية تتكون هذه الطبقة خلال السنوات الخمس الأولى لتعاطي الشمة، وخلال عشر سنوات تتكون طبقة طلائية بيضاء تعرف ما قبل السرطان، وإذا استمر الشخص في استعمال الشمة فإن هذه الطبقة ستتحول إلى سرطان في الفم».

وكان الدكتور عادل الأديمي قد أجرى دراسة ميدانية بمشاركة الدكتور ميسرة الشواف من كلية طب الأسنان بجامعة الملك سعود في الرياض حيث فحصا ٨٠٠ مريض في مستشفى الثورة بمدينة صنعاء، ومستشفى الثورة بمدينة تعز، واختارا ١٣٤ حالة ممن يستخدمون القات والشمة والسيجارة والتنبل، فوجدا أن الحالات التي قبل السرطان (١٣) حالة، كما وجدا حالتين بهما سرطان في موضع الشمة.

الدكتورة سعاد الحبيشي من مستشفى الثورة بصنعاء قامت بحصر حالات السرطان المعروضة على المستشفى فوجدت أن مجموعها (١٠٤) حالات خلال سنتين فقط، صنفتها فوجدت (١٨) حالة لأشخاص يستخدمون الشمة و (٤٦) حالة لأشخاص يستخدمون الشمة والقات والتدخين.

د. جبر الفقيه قام مشكورًا بإمدادنا بنسخة من المجلة الطبية السعودية الصادرة باللغة الإنجليزية التي نشرت بحثًا في عددها السادس المجلد (٢١) صفحات ٥٦٥ ـ ٥٦٨ للدكتور عبدالوهاب نصر، و د. بشرى كاتري وهما طبيبان في المستشفى السعودي بحجة، أكدا فيه أن الغرض من الدراسة كان تحليل الجانب السريري للمرضى المصابين بسرطان الخلايا القشرية في الرأس والعنق، مع تقويم ذلك، وإمكانية وجود علاقة بينه وبين مضغ القات والشمة.

ذكرت الدراسة أنه بمساعدة نظام خاص تم

تسـجـيل مـرضـى سـرطان الـرأس والعنق مـا بين أكتـوبر/ تشرين الأول وحتـى ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٨م.

مـجمـوع المرضى (٣٥) جمـيـعهم يمنيـون. (٢٤) منهم يتعـاطون الشمة إضافة إلـى القات. (١٧) حالة كان الورم السرطاني منحصراً في تجويف الفم، منها حـالة واحـدة في الحلقوم، (١٥) في الـبلعـوم الأنفي، و(٣) في الحنجرة.

ويقول د. مـحمد علي البار(١١): «نرى التـهابات الفم والجـهـاز الـهـضـمي تكثر بصـورة مـروّعـة لدى مـسـتـخـدمي «الشمـة».. ليس ذلك فـحـسب، ولكنهم يعـانون من زيادة كـبـيـرة في سـرطـان الفم واللسـان والحنك والبلعوم والمريء (...) وقد قامت كلية الطب بجامـعـة الملك عبدالعـزيز بجدة بإجراء بحث مـيداني حـول عـلاقـة الشـمـة بسـرطـان الفم واللسـان.. وقـد وجـدت أن هناك علاقـة وثيقـة بين اسـتـخـدام الشمـة وسـرطان الفم واللسـان.. كـمـا وجـدت أن إصـابـة الرجـال هي أربعـة أضـعـاف إصـابة النسـاء. وذلك لانتـشـار اسـتـخـدام الـشـمـة بـين الرجـال، وقلة استخدامها بين النساء».

وتحت عـنوان «المضغ» يـقـول الدكـتـور هـاني عـرمـوش(١٢): «تنتـشـر هذه المادة (الصـادة) في جنوب شرق آسيا وأواسطها حيث اعتاد الناس هناك على مـضـغ التـبغ بوضع كـمـيـة منـه بين الخـد والأسنان، وهذا ما يسـمى «المضغة»، وتركـها في الفم مـدة من الزمن، أو بوضـعـهـا تحت اللسـان في قاع الفم، وهذا ما يسمى السويكة.

وكلتـا الطريقـتين تحـدث في الفم رائحـة كريهـة جداً، وتسـاعد علـى الإصابة بالسرطان الفـموي بشكل كبير، كمـا أثبتت الدراسات التي أجريت في مدينة بومـباي ومناطق جنوب شرق آسيـا عامة». ا.هـ.

الإدمان والمرض النفسي

ولكن كيف يصبح الشخص مدمناً على الشمة؟

يجيب عن هذا السؤال الدكتـور محمد علي البار بقـوله: «إن الشـمـة، كـمـا أسلفنا، هي أسـاسـاً تبغ مسحـوق.. وسرعان ما تُمْتَصُّ المواد الموجودة في التبغ وخـاصـة النيكوتين من الغشـاء المخاطي للفم، وتـصل إلـى الدم، ومـنه إلـى الـدمـاغ.. وبمـا أن النيكوتين هو المـادة المسببـة للإدمـان في السـجـائر والسيـجار وغيـرهما.. فإن اسـتـخدام الشـمـة يؤدي إلى وصول النيكوتين إلى الدمـاغ.. وبالتالي تسبب الإدمان»(١٣).

ولإعطـاء الموضوع حـقه من جميع جـوانبه تمت مـقـابلة طبـيـب نفسـاني مـعـروف في اليـمن هو



تكرار الطحن لضمان الجودة

الدكتور عبدالمجيد الخليدي عضو المؤتمر الدولي للأمراض النفسية والعصبية، ووجهنا له السؤال الآتي:

- هل لتناول الشمة آثار نفسية في متعاطيها؟

وقد أجاب قائلاً:

«الشمة - بحكم تركيبها المكون من مادة التنباك والحجر الجيري - تؤدي إلى تنشيط وامتصاص سريع لمادة التنباك في الجهاز العصبي، وتلك المواد المكونة للشمة تسبب نوعاً من القلق والتوتر، وتقود إلى نوع من مشاعر الفصام عند مستخدميها».

وقال: إننا - ومن خلال العمل في الطب النفسي على مدى ثلاثين عاماً - وجدنا أن علاج المرضى النفسيين الذين يتعاطون الشمة لا يتم بشكل نهائي في حالة استمرارهم في تعاطيها.

وتتحسن حالة المرضى مع العلاج في حالة انقطاعهم عن تناول الشمة، موضحاً أن المقصود بتحسن المريض هو تحسنه من حالة الشكوك والأوهام والضلالات، واضطراب النوم، فضلاً عن القلق والتوتر النفسي الذي يحصل عند متعاطي الشمة في حالة انقطاعهم عن تناولها.

وأكد الدكتور الخليدي أن الشمة تسبب نوعاً من الهيجان والهوس والاضطراب عند الانقطاع عن تناولها فترة طويلة دون الخضوع للعلاج، والإشراف الطبي.

الموقف الرسمي من الشمة

بمقابلة المسؤول الأول عن التوعية الصحية بوزارة الصحة اليمنية الدكتور عبدالوهاب بن محمد الأنسي، ومحاولة مقابلة الدكتور عبدالله العماري مستشار الصحة لشؤون الفم والأسنان - الذي يئسنا من العثور عليه - عرفنا أن وزارة الصحة مشغولة بأمراض وأوبئة أخرى ليست الشمة منها.. وعليه ستظل الشمة تسرح وتمرح في اليمن بحرية حتى يدق ناقوس الخطر بعنف حينها سيتنبه المسؤولون، ويعرفون أنهم أمام خطر حقيقي أضعاف خطر شلل الأطفال، ولا يقل أهمية عن وباء الملاريا.

فمرضى سرطان الفم الذين يذهبون إلى الأردن وغيرها لاستئصاله أعدادهم غير قليلة.

ولا يعني هذا أن الشمة يمنية ١٠٠٪ بل تشاركها بلدان كثيرة، ولكن بنسب ضئيلة جداً بحيث لا تشكل ظاهرة كما هي الحال في اليمن.. وإن كانت المملكة العربية السعودية قد حددت موقفاً رسمياً من الشمة، فأعلنت منع استيرادها والاتجار بها، ويدخل في ذلك - ضمناً - صناعتها، وذلك من قبل أكثر من ستة عشر عاماً. يناير/ كانون الثاني ١٩٨٤م.

اختتم الحديث عن موضوع الشمة بالقول المأثور: «الوقاية خير من العلاج».

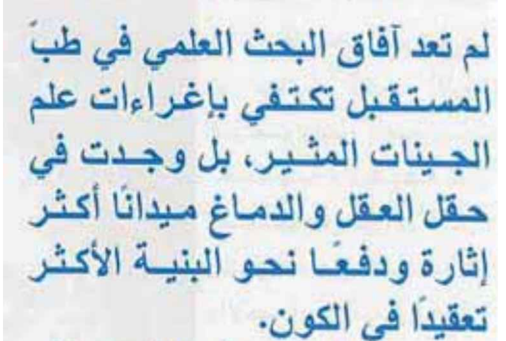
الهوامش والمراجع

١. حي مُسَيك المنسوب إلى الصحابي الجليل فروة بن مُسَيك المرادي (ت نحو ٣٠هـ)، وفي هذا الحي يقع مسجده الذي أمر الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - بترميمه وتوسيعه.
٢. لم أجد لكلمة «الشمة» ذكراً في المنجد في اللغة.. وكذلك الكلمة الشعبية «بردقان».

٣. التدخين بين المؤيدين والمعارضين، د. هاني عرموش ص٣٦، دار النفائس - بيروت ١٩٨٦م - ط٤.
٤. التدخين وأثره على الصحة، د. محمد علي البار ص١١٧، الدار السعودية للنشر.. جدة ١٩٨٤م - ط٤.
٥. المرجع نفسه، ص١١٧ - ١١٨.
٦. الإحسان في دخول مملكة اليمن في ظل آل عثمان: القاضي عبدالصمد بن إسماعيل الموزعي، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ص٩٩، منشورات وزارة الأوقاف والإرشاد اليمنية - من دون تاريخ.
٧. رحلة في بلاد العربية السعيدة، نزيه مؤيد العظم، ص١٤٧ - ١٤٩، دار قتيبة - بيروت ١٩٨٥م، ط٢.
٨. كنت طبيبة في اليمن كلودي فايان، ص١٣٢، تعريب: محسن العيني، دار الكلمة صنعاء ١٩٨٥م. [زارت اليمن عام ١٩٥١م، وقضت فيه عاماً ونصف العام].
٩. التدخين، البار، ص ١٢٠.
١٠. المرجع نفسه، ص١١٩.
١١. المرجع نفسه، ص١١٨.
١٢. التدخين، عرموش، ص ٢٧.
١٣. المرجع السابق، ص١٢٠.

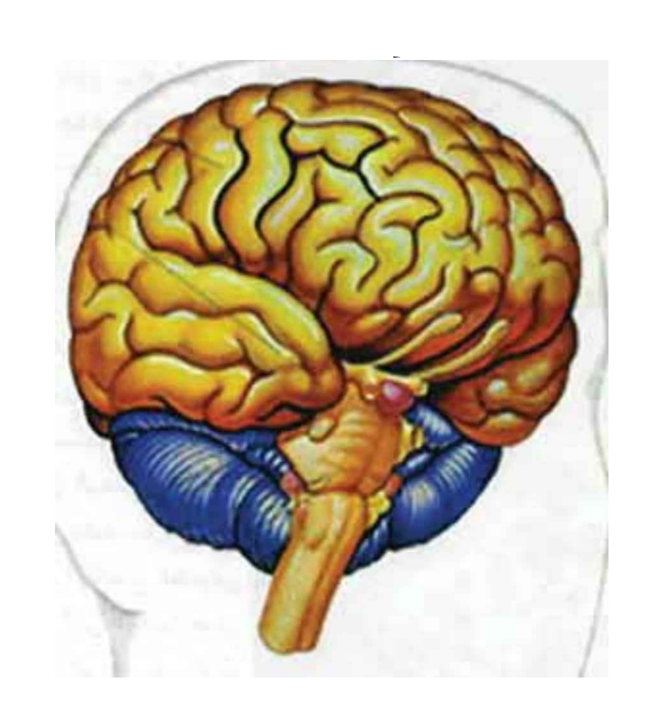
الفراشات الخفية تكشف أسرار العقل والدماغ

محمّد حسن بدرالدّين
مسقط - عُمان



لم تعد آفاق البحث العلمي في طبّ المستقبل تكتفي بإغراءات علم الجينات المثير، بل وجدت في حقل العقل والدماغ ميدانًا أكثر إثارة ودفعًا نحو البنية الأكثر تعقيدًا في الكون.

لقد قطع الروّاد الأوائل في مباحث الأعصاب شوطًا جريئًا في فكّ رموز العقل، وكشف بعض أسراره التي لا تنتهي. لقد توصّلوا إلى معرفة خصائص بعض المناطق الدّماغيّة وكيف يعمل الدّماغ؟ ثم سلّطوا أضواء معتبرة للكشف عن المواد الجوهرية التي تتحكم في النّوم والسّهر، وتوجّه العواطف والانفعالات والآلام والمسرّات وغير ذلك من الأسرار والرموز التي لا تزال ألغازًا غير قابلة للتّمحيص والحسم.



إنّ أعظم ما في العقل أنّه يتعقّل ذاته، ولكنّه لا يحيط بذاته، إنّ العقل لا يستطيع الإحاطة الكاملة بنفسه، هذه مسألة علمية وفلسفية معقّدة ، فلكونه آلة كيماوية وكهربائية، وجهازًا مركزيًا خارقًا ومدهشًا، يمكن تفحّص أعماله وكيف يفكّر؟ ولكن إذا نظرنا إليه بوصفه عقلاً وروحًا خلاّقة تتجاوز حدود المكان والزمان عبر معطيات معقّدة من

التذكّر والخيال والإرادة والحدس، فهذا ما لا يمكن استيعابه أو تبسيطه ، فالعلم لا يزال بعيداً عن مرحلة الغوص الكاملة في رحاب العقل وأسراره.

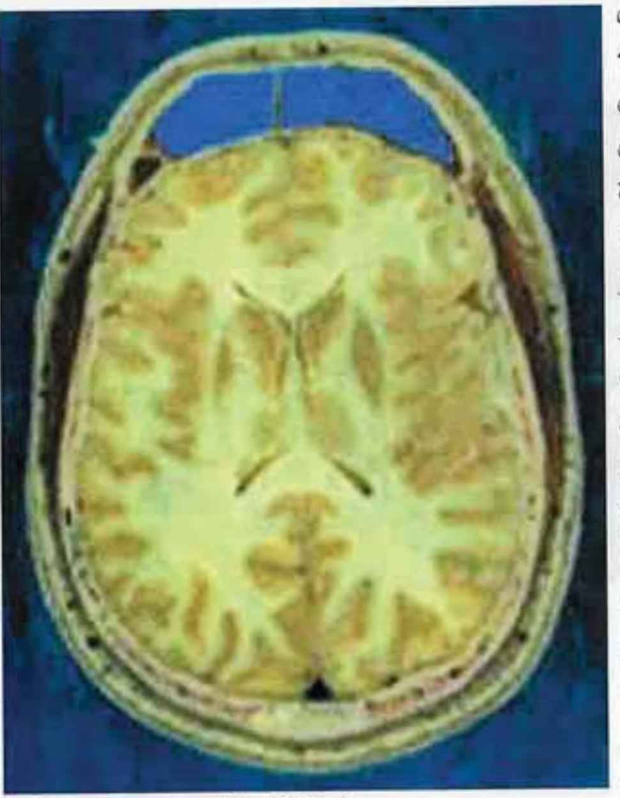
يقول العالم الكندي يانيش نيلديو: «إنّ الدماغ البشري مدهش ومحيّر إلى أبعد الحدود، وبسبب التعقيد الخيالي الذي يتّصف به لن يستطيع أن يعقل ذاته، ولكن الأمل الوحيد هو قدرته على تجاوز الأخطاء وإصلاح نفسه».

إضاءات أوّلية

توصّل العالمان هوبل الأمريكي وتورستون السويدي من خلال أبحاثهما عن الدماغ ومراكز الإبصار فيه، إلى تقديم إضاءات أوّلية عن عمل الدماغ ومكوناته الفاعلة، فقد توغّلا داخل القشرة الدّماغية التي تشكّل غابة هائلة مكوّنة من عشرة آلاف مليون خليّة عصبية، ومن خلال البحث في مراكز الإحساس والحركة والتفكير دقّق العالمان في عمل كل خلية عصبية على حدة، ثم في عمل مجموعات الخلايا في مراكز البصر، وكيف تتمكّن في وقت سريع جداً من تحويل الإشعاع الضوئي الواصل إلى العين من المرئيات إلى سيّالات عصبيّة تنقلها المحاور العصبية التي تشكل العصب البصري إلى المراكز البصرية في الفص القفوي من الدماغ، حيث تتحول هذه المرئيات إلى صور وأشكال مفهومة ومحسوسة، واستطاع هذان العالمان كشف النظام الذي تقوم عليه المراكز البصرية وخلاياها، وقدرتها الخارقة على التعبير عن المرئيات والمشاهدات وتحويلها إلى موضوعات منطقية يدركها العقل ويربط بينها من خلال منطقة صغيرة جداً من الحقل البصري.

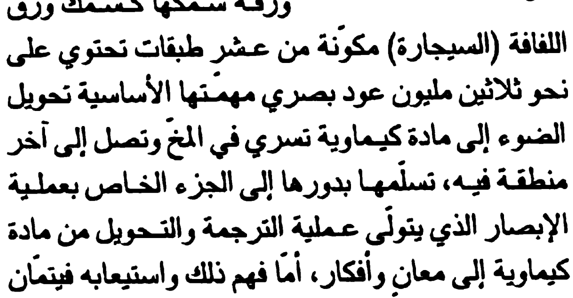
ثم جاء العالم الأمريكي روجر سبيري وأثبت بالبحث أنّ كل نصف من الدماغ متخصص في أعمال معيّنة، وأنّه لا صحّة للتصور القديم القائل بتفوّق النصف الأيمن من الدماغ وهيمنته عليه، بل كلّ منهما يقوم بدوره المخصّص له مع أداء النصفين أعمالاً مختلفة كليّاً في ضرب من التعاون والتكامل من أجل السيطرة على جميع الأنشطة الفكرية والجسدية والنفسية.

أوضحت أعمال سبيري أنّ النصف الأيسر من الدماغ متخصص بعمليات الادراك والتحليل والاتصال، ولاسيما عملية الكلام التي تعدّ أهمّ وظيفة إنسانية، أمّا النصف الأيمن فيقوم بدور العمليات الحساسة والدقيقة مثل التمييز بين الأشكال، وتذوّق الفنون الابداعية، والإحساس بالجمال، وغير ذلك من الوظائف الحسّاسة الرائقة.



صورة مقطعية للدماغ

توصّل العلماء قبل ذلك إلى تحديد العلاقة المعقّدة بين عملية الإبصار وتحويل المشاهد إلى أفكار، وقد وجدوا أن الشبكية وهي لوح حسّاس جداً تنطبع عليه الصور، ويتكون من ثلاثة ملايين مخروط بصري في ورقة سمكها كسمك ورق اللفافة (السيجارة) مكوّنة من عشر طبقات تحتوي على نحو ثلاثين مليون عود بصري مهمّتها الأساسية تحويل الضوء إلى مادة كيماوية تسري في المخّ وتصل إلى آخر منطقة فيه، تسلّمها بدورها إلى الجزء الخاص بعملية الإبصار الذي يتولّى عملية الترجمة والتحويل من مادة كيماوية إلى معانٍ وأفكار، أمّا فهم ذلك واستيعابه فيتمّان



في وقت قصير جداً، إذ يتعين على المخ أن يدقق في الأفكار والمشاهد، ويوازن بينها ليعرف طبيعة الصور وعلائقه، كأن يميز بين صورة صديق وعدو ,أو يتذكر صورة الشخص من خلال الملفات التي تختزن فيها ملايين الأسماء والصور والعناوين، كأن يتذكر مثلا أن هذه الصورة رآها منذ مدة معينة، وأن هذه الرائحة شمها في المكان الفلاني لما كان معه شخص معين؛ يذكره بالتاريخ والوقائع .

إن قضية الفهم والاستيعاب، على سرعتها وتعقيدها، ترتبط أيضاً بأنشطة أعصاب الدماغ وقدرتها على تزويدنا بالانفعالات المختلفة كالسرور والحزن والألم والندم.

لقد كشفت الدراسات أن هذه الأنشطة محكومة بعمل الذرات الكهربائية التي ترسل مواد قادمة عن طريق الخلايا التي تحول الطاقة الكيماوية إلى طاقة كهربائية تشحن بها نفسها، وإذا أثيرت بأي مؤثر فإنها تفرغ شحنتها وتنطلق منها نبضات كهربائية خفيفة ترسلها إلى جاراتها، أو ترد بها على رسالة قادمة من جزء ما من الجسم في وقت سريع جداً، ثم تعيد شحن نفسها لاستعمال هذا المخزون وقت الطلب والحاجة، وهذه الآلية (الميكانيزم) المذهلة تشير إلى أسرار عظيمة في كيفية احتفاظ الخلايا بالمعلومات عن طريق التعلم التجريبي، واسترجاعها في وقت الحاجة أيضاً.

إن الدماغ البشري الذي لا يتجاوز وزنه ثلاثة أرطال عند البالغين يحتوي على نحو مئة بليون خلية عصبية، كل واحدة منها ترسل نحو ألف شعيرة دقيقة جداً إلى الخلايا الأخرى، تتلامس ويتصل بعضها ببعض، وهذه الخلايا متشابهة جداً من حيث الشكل، ولكنها مختلفة من حيث المضمون والاختصاص. فهناك تخصص رهيب في مناطق المخ المختلفة، وتجدد مستمر في الأعمال والوظائف، والموت والحياة أيضاً، وقد كان يظن سابقاً، حسب ما قررته كتب الجراحة القديمة، أن الطفل



الحركة العلمية في أبحاث العقل والدماغ أنعشت مباحث الفكر الفلسفي

يولد مكتمل المخ، وأن في المخ عدداً ثابتاً ومحدداً من الخلايا تبدأ في الموت بالتدريج، مع بلوغ سن الخمسين، وكان هذا يعني أن خلايا المخ غير قادرة على صيانة نفسها وتجديد خلاياها، ولكن بعض النتائج أثبتت أن خلايا المخ تتجدد، شأنها شأن كل خلايا الجسم، وقد لاحظ العالم الأمريكي نوتن بجامعة روكفلر أن خلايا لحاء القشرة الخارجية لمخ الطيور تنمو وتتبدل كل سنة، وبذلك تتعلم أنغاماً جديدة تشدو بها فوق الأغصان .

إنعاش مباحث الفلسفة

لقد أسهمت الحركة العلمية الخاصة بالبحث في أسرار الدماغ والعقل في إنعاش مباحث الفكر الفلسفي وتوجيه قضاياه، فقد أخذت حدة الجدل تتصاعد حول ما إذا كان العقل يعني شيئاً آخر غير المخ؛ وقد كان العالم الأمريكي بنفيلد أول من بشر بهذا الأفق من التمييز من خلال العمليات الجراحية التي قام بها على أدمغة ما يربو على ألف مريض في حالة الوعي، والتي نشر آثارها الكاملة في كتابه المثير: «غرائب العقل».

اكتشف بنفيلد بمحض المصادفة أن تنبيه مناطق

معيّنة في الدماغ بالكهرباء يُحدث استرجاعاً فجائيًا للذاكرة عند المريض الواعي، فأخذته الدهشة وكرّر التجارب عدة مرات، وعندما لامس الإلكترود (آلة الكهرباء) قشرة مخ شابٌ تذكّر بسرعة أنّه عندما كان صغيراً شاهد لعبة البيسبول في مدينة صغيرة وأنّه راقب ولداً صغيراً يزحف تحت السّياج ليلحق بجمهور المتفرّجين.

استنتج بنفيلد من خلال عشرات التجارب أن آلية الكلام ليست متماثلة مع العقل، وإن كانت موجهة منه ، فالكلمات هي أدوات تعبير عن الأفكار، ولكنها ليست الأفكار ذاتها، وأنّ عمل العقل ليس آليًا، يقول في كتابه «غرائب العقل»: «إنّ عقل المريض الذي يراقب الموقف بمثل هذه العزلة والطريقة النقدية لا بدّ من أن يكون شيئًا آخر يختلف كليًا عن فعل الأعصاب اللاّإرادي، ومع أنّ مضمون الوعي يتوقّف إلى حدّ كبير على النشاط العصبي، فالإدراك نفسه لا يتوقّف على ذلك».

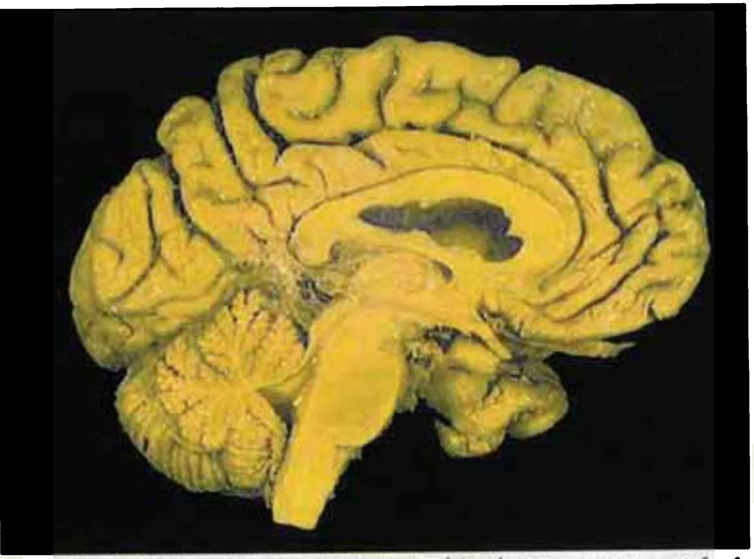
وباستخدام أساليب المراقبة، استطاع بنفيلد أن يرسم خريطة كاملة تبيّن مناطق الدماغ المسؤولة عن النطق والحركة، وجميع الحواس، غير أنّه لم يكن في المستطاع تحديد موقع العقل أو الإرادة في أيّ جزء من الدماغ، فالدماغ هو مقرّ الإحساس والذاكرة والعواطف، والقدرة على الحركة، ولكنّه ليس مقرّ العقل أو الإرادة !! فواضح إذن أنّ العقل البشري والإرادة البشرية ليس لهما أعضاء جسدية!!.

ومن العجيب أنّ بنفيلد أدخل مفهوم الرّوح إلى العلم عندما قرّر أنّه «أقرب إلى المنطق أن نقول: إن العقل ربّما كان جوهراً متميّزاً ومختلفاً عن الجسم».

ومن دواعي السخرية أن بنفيلد بدأ تجاربه بهدف إثبات العكس تماماً، فقد ذكر أنه طوال حياته العلمية سعى جاهدا، كغيره من العلماء الماديين إلى إثبات أن الدّماغ يفسّر العقل، غير أن الأدلّة حملته على الإقرار بأن العقل البشري والإرادة البشرية حقيقتان غير ماديتين، ويقول في النهاية: «ياله من أمر مثير أن نكتشف أنّ العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حقّ بوجود الرّوح».

وقد أثّرت هذه الأبحاث في حركة علم النّفس الحديث، وغيّرت من أنشطته المختلف، فقد أصبحت مباحث الأحاسيس والمشاعر والأفكار يُنظر إليها بوصفها عوامل ذات أهميّة كبيرة في وظيفة الدماغ، وعمل السلوك، ولم تعد تُعامل بوصفها جوانبَ ثانوية أو غير موجودة .

وحتى في ميدان الفيزياء احتلّ مدلول الروح مكاناً معتبراً في مباحثها إلى درجة الحديث عن مساهمة مباشرة لها في الظواهر الملاحَظة.



قضية الفهم والاستيعاب ترتبط بأنشطة أعصاب الدماغ وقدرتها على تزويدنا بالانفعالات المختلفة

يحدّد العالم الفرنسي شارون في بحثه عن «الإلكترون الرّوحي» ثلاث خصائص في تحديد معنى الروح :

- فهي أوّلا واعية بذاتها؛ فما دام الإنسان يفكّر فهو قادر على أن يتصوّر ذاته كموضوع يفكّر، وهذا هو ما يميّز بجلاء بنيةً مزوّدةً بروح من كائن آلي كالحاسب الإلكتروني، ولكي يمتلك الإنسان وعيًا بأنّه موجود فإنّه يتعيّن ألاّ يكون فقط موضوعًا ضمن موضوعات العالم،

بل أن يستطيع أن يكون في الوقت نفسه ذاتاً متميزة عن عالم المادة .

- ومن ناحية ثانية فإنّ الرّوح سيّالٌ مُتّصلٌ وتلقائيٌ من الفكر يستحيل إيقافه، ومن ثمّ فإنّ الفكر يشبه كثيراً الزّمن في جريانه .

- ومن ناحية ثالثة فإنّ الرّوح حرّةٌ وقادرة على المبادرة والاختيار.

على أنّ مفهوم الروحِ ذاته يحتاج إلى توضيح، فهو يشير إلى عدة معانٍ تنتمي إلى عائلة دلالية واحدة، فهي تعني الفكر والعقل والنفس، ولكنّها تلتقي كلّها في الإشارة إلى ما يجاوز المادة، وإقحامها في مجالات البحث العلمي يكشف عن المساهمة الكبرى التي فتحتها مباحث العقل والدماغ في إغناء الجدل الفلسفي المثير الذي ما انفكّ على الدّوام، يقتحم مجالات عميقة من التأمّل والغوص في أعماق الفكر الانساني.

تخصص دقيق في مناطق المخ المختلفة، وتجدد مستمر في الأعمال والوظائف

الذّكاء والذّاكرة

عندما نشاهد شخصاً يمارس لعبة فكرية نعتقد أنّ مخّه يبذل قدراً كبيراً من الجهد، ولكن الحقيقة أنّ المخّ لا يبذل هذا الجهد موازنة بما كان يبذله عند الممارسة الأولى، وكلّما قلّ مقدار الموازنة دلّ على ارتفاع مستوى الذكاء: إنّ هذا القول زاخر بالنتائج ؛ فهو يؤكد أنّ الذكاء مرتبط بالكفاءة، أي الكفاءة العصبية، فالمخ الذكيّ يمكن أن يؤدّي العمل نفسه بجهد أقلّ؛ لأنّه يستخدم عدداً أقلّ من الخلايا والدوائر الكهربائية، وعلى العكس فإن المخّ الأقلّ ذكاء يستعمل عدداً أكبر، وهذا يعني في النهاية أنّ الذكاء ليس مرتبطاً بالمجهود، بل بالكفاءة، وأنه يعني أن يتعلّم المخ ما الّذي عليه ألا يستخدمه من المناطق العصبية، وكما أنّنا نخطئ عندما نربط بين حجم الدماغ والذكاء، ونخطئ أيضا عندما نقرّر أن الإنسان الذكيّ قويّ الذاكرة، فإنّ الصّواب أن هذا الثلاثي ليس مرتبطاً بعضه ببعض، وأنّ ما كان يزعمه علم النفس من أنّه يلزم للكلمات أن ينطقها العقل حتّى يمنحها المخ معنى؛ تراءى اليوم بعيد الصدق، فالاكتشافات الجديدة نفَت الأسس التي بنى عليها علماء النفس تأكيدهم أن المخّ يتعامل مع اللغة على طريقة مباراة كرة القدم، فالعلماء المدرسيون تصوّروا أنّه، لكي تنطق بصوت مسموع كلمة مكتوبة، يلزم لها أن تمرّ من المنطقة المخيّة البصرية التي رأتها، إلى المنطقة التي تحت شفرتها ،ثم تذهب بعد ذلك إلى الفصّ الأمامي الذي يحوّلها إلى كلمة منطوقة. والمفاجأة في المباحث الجديدة أنّنا حين نرى كلمة وننطق بها لا تمرّ إطلاقا بالمنطقة السمعية بالمخّ، كما يؤكّد العالم الأمريكي ريشل، والواقع أنّ المنطقة السمعية بالمخ لا تنشط عندما نتكلّم، وكما يقول هذا العالم: «فأنت لا تنصت لما تقول بالطريقة نفسها التي تسمع بها ما يقوله الآخرون».

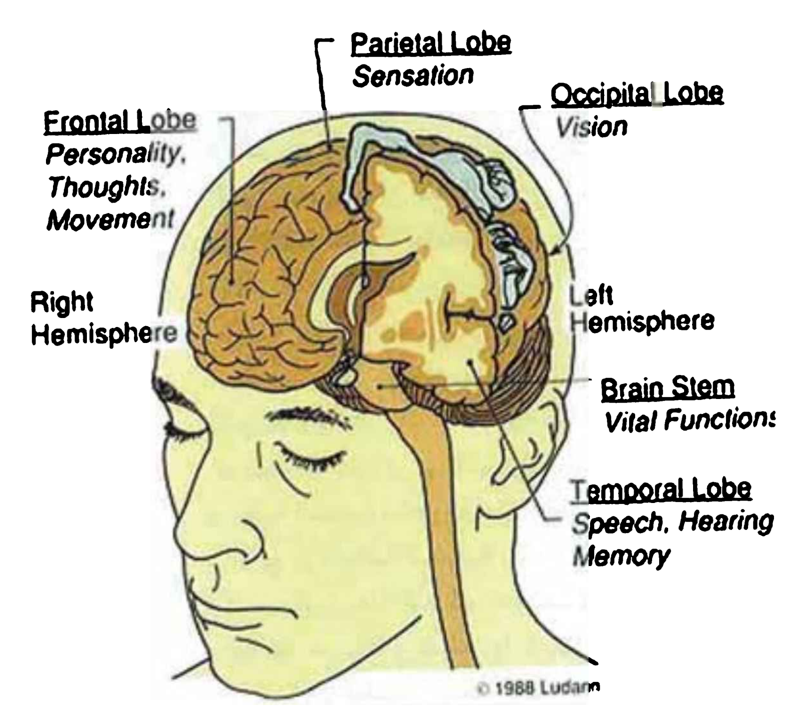
اكتشف العلماء أن جزئيات المعرفة متناثرة داخل المخ، وأن مناطق مختلفة من الدماغ يختلف موقعها من

شخص إلى آخر، هي المسؤولة عن تجمّع تلك المعرفة المتناثرة؛ ويبدو أنّ عملية التذكر مرتبطة بالقدرة على التجميع والتحكم في المعلومات؛ فجزئيات المعرفة تظل موجودة، ولكنّ قوّة الذاكرة مرتبطة لدى الإنسان بقدرة المخ على التجميع والربط بين تلك الموجودات الجزئية .

وقد يكون التدريب على الحفظ: (حفظ النصوص منذ الصغر) بشكل قوة في الكفاءة تجعل المخ يسلّم الزمام لأجزاء محدودة لكي تقوم بهذه العملية، فتصبح مع مرور الأيّام عملاً ميسوراً، وبذلك يتعوّد الإنسان الحفظ السريع أكثر من غيره، ويبدو أنّ الدّماغ عندما يستنفد معظم طاقاته في الإشراف على أعمال مختلفة يبدّد الكثير من قدراته على الإدراك والتفكير، فينخفض مستوى الذكاء وهذا واضح في أصحاب الأجسام الكبيرة وخاصة في الحيوان، وهناك نظرية الآن يُطلق عليها اسم التقوية الطويلة الأمد، يراها العلماء أساس العمل الفيزيائي للذاكرة، وترى هذه النظرية أن التغيرات في الفجوات التي تتصل من خلالها الخلايا العصبية، هي التي تؤثر في تركيب الذاكرة والمخ حسب هذه النظرية يكيف نفسه لعملية الحفظ أو التذكّر. ويبدو أنّ الذاكرة نفسها تهمل الأحداث إذا لم تكن هناك رغبة ملحّة في حفظها. ولكن هذا الإهمال لا يعني الضياع، وإنّما تبقى المعلومات مخزونة في تلافيف المخّ، ويصعب استرجاعها.

لماذا ينسى الإنسان المعلومات؟ هناك نظريتان حول هذه المسألة: تقول الأولى: إن مكونات الذاكرة تضمحلّ وتختفي بالتدريج مع الأيام، كما يختفي الحبر بعد تعريضه المتواصل لضوء الشمس، وتقول الثانية: إنّ التعلّم والحفظ الجديد يؤدّيان إلى التداخل مع الذاكرة القديمة، واختفاء الأخيرة تدريجياً أي هناك تدافع بينهما يؤدي إلى الإزاحة المطّردة، كما يحدث في انزياح البيانات من شاشة الكمبيوتر.

ومن المعلوم أنّ التدرّب على القيام بعمل ما، مثل الطباعة أو السياقة ، إنّما يتعلّق بالجانب العملي في المخّ، بحيث تخرج من دائرة البيانات والمعلومات المخزونة، لتحتلّ حيزًا مهمًا في الذاكرة تجعل منها وظيفة ثانية، مثل التمييز بين الروائح والألوان، فكأنّ المهارات التي يتعلّمها المخ مع التدرج الزمني تظلّ ثابتة على الدوام في منطقة معيّنة، لا يمكن أن تؤثر فيها الأعوام والأحداث، وربّما يرجع ذلك إلى صلتها بحفظ الحياة ذاتها، وقد قسّم العلماء الذاكرة ثلاثة أقسام هي: الذاكرة الحسّية التي تحفظ ما يصل إلى المخ من صور وروائح وأصوات ومناظر، بصورة تراكمية، بحيث لا تزيح ما بعدها، ولا تنمحي عند وصول غيرها؛ ثم الذاكرة القصيرة المدى التي تكتفي بتسجيل الوقائع اليومية واستيعابها، ثم تستبدل بها فوراً ما يأتي بعدها، فهي تقوم بعمل تصنيفي وتجديدي معًا، حيث تحفظ المعلومات لفترة دقائق ثم تستبدل بها ما يأتي بعدها، ومثال ذلك قراءة فقرة من نص، فهي تظلّ مخزونة لاستعمالها في الرّبط والتحليل لفهم البداية والنهاية، فإذا انتقلنا إلى فقرة



في القشرة الدماغية غابة هائلة مكونة من عشرة آلاف مليون خلية عصبية

ثانية حذفت الأولى وحفظت الثانية للقيام بالعملية نفسها، ثم الذاكرة البعيدة الأمد، التي تخزن معظم الأحداث والمراحل المهمة التي واكبت حياة الفرد من أفراح و أتراح ومناسبات وأسماء وعناوين، مثل التذكر الدائم للاسم والعنوان والمكان وتعلّم الكلام، وغيرها من الوظائف الحياتية والإنسانية، وهذا يعني بالتأكيد أن الذاكرة تنمو بالتكرار والدوام، على أن التعقيد الأكبر يكمن في الترابط المستمرّ بين الذاكرة القصيرة المدى والطويلة، فالثانية تأخذ من الأولى ما تراه ضرورياً للتّواصل، وتحذف ما تراه غير ذي قيمة في حياة الشخص العادية، وفي بعض الحالات، وهي من الغرائب؛ أنّ العقل يسلّم زمام الأمر كلّه في لحظات معيّنة إلى قوّة غير معلومة تظلّ مسيطرة على عمل الفكر والتوجيه، بينما يخلد هو إلى الرّاحة!! ويظهر ذلك على سبيل المثال في حالات السّهو أو الشُّرود التي تحدث للمرء وهو يسوق سيارة أو يقرأ كتاباً، وقد وُجد أنّ تلك اللحظات التي يرتخي فيها العقل يكون التوجيه فيها سديداً إلى أبعد الحدود، ويحار المرء في فهم نفسه؛ كيف قاد السيارة في الشارع المزدحم، ولم يكن منتبهاً لما يجري حوله؟! فماذا حدث؟ الذي حدث أنّ العقل أراد أن يسترخي قليلاً فأسلم زمام المبادرة إلى قوة باطنية فيه، هي أدقّ أداء وأحكم تصرّفاً!!



الدماغ مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة ولكنه ليس مقر العقل والإرادة

إنّ هذه الاستراحة العقليّة تفسّر لنا أنّ آليات التوجيه والعمل في المخ البشري تحتاج إلى الرّاحة والنوم، ولكن النوم كلمة غامضة جداً؛ لأنّ العقل لا ينام!! ولذلك لا بدّ من القول بأن نوم العقل أو راحته سبيل إلى عودته إلى ذاته؛ أي إنّه يحتاج إلى فترة زمنية تنغلق عنه فيها الصّور والمشاهد المفروضة عليه فرضاً عن طريق الحواس، فينسحب هو إلى عالمه الخاص يرتّبه كيفما أراد، ولذلك فإن حرمان العقل من النوم يفقده مقداراً كبيراً من الكفاءة، ويعرّضه إلى إيقاعات نفسية متداخلة، مثل الهوس والغضب وعدم التناسق في جميع وظائف الجسم .

الفراشات الخفيّة وسرّ الحياة العقلية

اعتقد الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت أنّ العقل كيان مستقلّ عن الجسد يعبّر عن وجوده من خلال الغدّة الصنوبرية، ومع خطأ هذا الاعتقاد بخصوص الغدّة الصنوبرية، إلا أنّ الطّرح الذي أثاره حول علاقة العقل بالدماغ لا يزال يحرّك دوائر الجدل والحوار بين العلماء والفلاسفة على حدّ سواء، فإذا كان العقل غير مادي فكيف يؤثّر في الدماغ الماديّ؟ وإذا كان ذا بنية مادية فكيف ينتج فكراً وإرادة غير ماديّتين؟

إنّ ديكارت وغيره من الفلاسفة أو العلماء لم يكونوا يعلمون إلى وقت قريب أنّ الجينات والخبرة تقومان جنباً إلى جنب بصيانة أعمال العقل وبناء وظائفه المختلفة، على أنّ التقصّي الفلسفي لا يفيد في مثل هذه المباحث إذا لم ينشأ عن تجريب علمي مكتمل. فالعقل نفسه يحتاج إلى تعريف دقيق غير المتعارف عليه، فهو أوّلاً مجموعة من العمليات الفكرية المعقدة، وهو ثانياً آليات (ميكانيزمات) عصبية فائقة، وقد اكتُشف أنّ الفعاليات العقلية تتعلّق أساساً بأنماط متعدّدة من الدفعات العصبية في الدماغ، ولفهم ذلك لا بدّ من دراسة كيفية عمل الخلايا العصبية وعلائقها في التواصل والتخاطب وكيفية التأثر أيضاً بالخبرة والتعلم.

إنّ الفهم الشامل لمثل هذه المباحث أمر بعيد المنال على غير المتخصص، ولكنّ مقتضيات تبسيط العلوم والتجارب العلمية تدعو إلى متابعة مثيرة لما يتعلّق بأشرف أعضاء الإنسان، ألا وهو العقل، فضلا عن التقصّي الفلسفي الذي تتطلّع إليه العقول لتبني، في ضوء النتائج العلمية، نظريات وأطروحات جليّة ورشيدة.

إنّ أولى المسائل التي تستحقّ الالتفات هي التحديد الواضح للظواهر العقلية التي تحتاج إلى تفسير، وقد بدأت تتكشّف في هذه السنوات بعض الروابط المهمّة بين الخصائص العقلية وأنماط الدفعات العصبيّة التي تسطع وتخبو في مناطق مختلفة داخل الدماغ.

إنّ أبرز معالم الدماغ البشري يتجلى في نصفي الكرة المخية الكبيرين والمتناظرين ظاهرياً واللذين يتربعان فوق اللبّ المركزي المتمادي باتّجاه الأسفل نحو النّخاع الشوكي، وتكسو نصفي الكرة المخيّة المجعّدين قشرة صفائحيّة غنيّة جداً بالخلايا، سمكها ملليمتران، ويفترض بعض العلماء أنّ معظم الفعاليات العقلية ترتكز في مناطق وساحات محدّدة من تلك القشرة، ولكن هذا التبسيط الاحتمالي غير مقنع؛ لأنّ العقل يتجاوز تلك الفعاليات ليشمل ما هو أكبر؛ مثل: الوعي والشّعور بالذات، والإدراك والرغبات والتعلّم.

إنّ خلايا الدماغ تتألف من أكثر من ألف مليار خلية عصبيّة يتّصل نحو مئة بليون منها بشبكات متنوعة تبعث الذكاء والابداع والعواطف والوعي والذاكرة، وهذا التنوع العجيب في عمل الخلايا حيّر العلماء، وخير من عبّر عن هذا الإعجاب العالم الإسباني كاجال الذي يُعدّ مؤسّس علم الحياة (البيولوجية) العصبية، حيث وصف الخلايا بأنّها الفراشات الخفيّة للرّوح التي يمكن لضربات أجنحتها يوماً ما أن تجلو سرّ الحياة العقلية.

ومن المسائل الأخرى المتعلّقة بوظائف الخلايا: قدرتها الفائقة على التّرتيب والتجميع، وقد تبيّن أنّ هذه الوظائف تتحدّد منذ الشهور الأولى من تكوّن الجنين، كما بيّنت المعطيات التشريحيّة والسلوكية عدم تماثل دماغي الذكر والأنثى، ولكنّ السؤال المحيّر يظلّ متعلقاً بمكان تجميع البيانات المختلفة التي يتلقّاها المخ، ويوحّد بينها أو يوزّعها في حالات أخرى؛ فلاعب كرة المضرب، كما لاحظ العالم العربي سمير زكي، تأخذه الدهشة والحيرة إذا علم أنّ كلا من حركة الكرة وشكلها ولونها صفات تتمّ معالجتها في مراكز إبصارية مختلفة من القشرة المخيّة.

يقوم الدماغ، إضافة إلى التخزين والجمع بين المعلومات المختلفة، بتصنيفها واستعمالها على نحو يمكّنه من إعادة تنشيط الأحداث والمفاهيم واسترجاعها حسب الظروف والحاجات، وعلى سبيل المثال، إذا ذكرت كلمة (قهوة) يعيد الدماغ بعث الاحساسات والحركات والتمثيلات البصرية واللّمسية لشكل فنجان القهوة ولونه وسخونته، إضافة إلى رائحة القهوة والمسار الذي تسلكه اليد في تناول الفنجان من فوق المنضدة ورفعه إلى الفم، وهذا التمثّل الشامل يتمّ في سرعة فائقة، ويعاد بثّه وتمثيله في مناطق من الدّماغ منفصلة، ولكنّ إعادة التركيب لتلك الأعمال تحدث في آنٍ واحد تقريباً.

إنّ معظم الدراسات العلميّة التّي تناولت أبحاث الدماغ والخلايا العصبية قامت - أساساً - على الجانب الوصفي، من خلال الكشف عن كيفيّات عمل الدّماغ وأسرار تركيبه، وهي حتى الآن لم تنفذ إلى القضايا الجوهرية التي تحرّك الفكر الفلسفي حول فهم الوعي والإرادة والاستبصار، ويبدو أنّ مثل هذه القضايا ستظلّ على الدوام بعيدة عن التمحيص التجريبي، ولكن يكفي هذه المباحث أن تسلّط الضوء اللاّمع على مجموع الفعاليات التي تشكّلها مناطق الدّماغ على أمل الوصول إلى بعض أسرار أكثر الظواهر العصبية روعة على الإطلاق، والذي ينبثق من تلك الفعاليات الموصوفة : ألا وهو العقل: الآية الربّانية العظمى.

المراجع

١. طبّ المستقبل، رسالة اليونيسكو، عدد مارس/آذار ١٩٩٦م.
٢. الإلكترون الرّوحي، العلم والمستقبل، عدد فبراير/شباط ١٩٩٣م.
٣. العصبي، لجان بيار شانجو، باريس، مايو/أيار ١٩٩٦م.
٤. التعلّم في الكبر، إياد أحمد، مجلة العالم، مايو/أيار ١٩٩٦م.
٥. العلم في منظوره الجديد، سلسلة عالم المعرفة، ترجمة، كمال خلايلي ١٩٨٩م.
٦. مجلة العلوم، عدد خاص «العقل والدماغ»، مايو/أيار ١٩٩٨م.
٧. مسألة الدماغ، مجلة العلم والحياة، عدد مارس/آذار ١٩٩٨م.

قَسَم الأطباء.. عبر الزمان

محمد مصطفى السمري
الإسكندرية - مصر

استفاد اليونانيون القدماء - كغيرهم من الشعوب - من حضارات الأمم التي عاشت قبلهم أو التي عاصرتهم. وتأثر طب اليونانيين تأثرًا كبيرًا بطب بلاد ما بين النهرين: سومر، وبابل، وآشور، وطب قدماء المصريين. ولا عجب فقد أخذ القسم الشرقي من بلاد اليونان الكثير من المعارف الطبية من جيرانه سكان ما بين النهرين، أما القسم الجنوبي من اليونان وجزيرة (كريت) بصفة خاصة، فكانت جذور معارفها الطبية الأولى مصرية.



لولا أبقراط لمات الطب واندثر

وحمل اليونانيون مشعل الحضارة الإنسانية منذ القرن السابع قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وازدهرت حضارتهم في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان لها أثر كبير في ازدهار صناعة الطب وتطورها. وقد أسست أول مدرسة في الطب في (كنيدوس)، ثم في (كوص) تلك المدينة التي ولد وعاش فيها أبقراط صاحب قسم الأطباء والملقب بأبي الطب. واستمر الطب اليوناني في الازدهار حتى استولى الرومان على اليونان عام ٣٠ق.م.

آل سكولابيوس.. واحتكار مهنة الطب

اتفق كثير من قدماء الفلاسفة والمتطببين على أن اسكولابيوس Aesculapius هو أول طبيب يوناني يعتقد أنه عاش نحو عام ١٢٥٠ ق.م، وأنه أول من عمل في صناعة الطب في اليونان، وأول من تكلم على شيء من الطب عن طريق التجربة.

وكما ألّه قدماء المصريين (أمحتب) أول طبيب في التاريخ (نحو عام ٣٥٠٠ ق.م)، ألّه اليونانيون اسكولابيوس، وأطلقوا عليه (إله الشفاء)، وشيّدوا له المعابد على سفوح الجبال بالقرب من الينابيع والمياه الجارية.. وجعلوا منها مستشفيات روحية يهرع إليها المرضى الميئوس من شفائهم كالعميان والمصابين بالشلل أو الصرع أو غيرهم من الباحثين عن معجزة إلهية ترد عليهم صحتهم. وكان المرضى يعتقدون أن اسكولابيوس يأتيهم في المنام، ويصف لهم العلاج. ووضعوا في تلك المعابد تماثيل لاسكولابيوس تصوره رجلاً في عنفوان شبابه قابضاً بيديه على عصا يلتف عليها ثعبان، ولا عجب فقد كانت الثعابين عند اليونانيين رمزًا للحياة والحكمة والشفاء.. وأصبح الثعبان الملتف على العصا منذ ذلك الوقت حتى اليوم رمزًا للطب والصحة، وشعاراً للصيدلة والصيدليات.

ولكن، بقدر ما قدم اسكولابيوس إلى مهنة الطب من نفع وعلم، وبقدر ما قدم إلى الناس من رحمة بهم، وعلاج لأمراضهم، كاد - دون أن يدري - يتسبب في موت

صناعة الطب واندثارها، لولا أن جاء أبقراط، ولا عجب، فقد أوصى اسكولابيوس ولديه ألا يعلما الطب إلا لأولادهما وأهل بيته، وألا يدخلا في صناعة الطب غريباً، كما أوصى بعدم نشر مهنة الطب بين عامة الناس ممن لا يرقون إلى مستوى نسب آل اسكولابيوس خشية أن يسبقوا في استخدام المهنة. وبعد وفاته توارث أبناؤه وأحفاده مهنة الطب، واحتكروها ردحاً من الزمن. أما تعلم الطب فقد كان يتم بينهم مشافهة من غير أن يدون في الكتب، وما احتاجوا إلى تدوينه في الكتب دونوه على هيئة (لغز) حتى لا يفهمه أحد من غير آل اسكولابيوس، وكان الأب يفسر اللغز لولده.

أبقراط ينقذ الطب من الموت

وعندما جاء أبقراط Hippocrates (في القرن الخامس ق.م) وجد أن صناعة الطب كادت تنقرض لقلة الأبناء المتوارثين لها من آل اسكولابيوس، ورأى أن يذيعها في جميع الأرض، وينقلها إلى سائر الناس، ويعلمها المستحقين لها حتى لا تبيد. وقال: «إن الجود بالخير يجب أن يكون على كل أحد يستحقه قريباً كان أو بعيداً». واتخذ الغرباء وعلّمهم هذه الصناعة الجليلة، وعهد إليهم العهد (القسم) الذي كتبه، وأحلفهم بالإيمان المذكورة فيه ألا يخالفوا ما شرطه عليهم، وألا يعلموا هذا العلم أحداً إلا بعد أخذ هذا العهد عليه.. وبذلك أخرج أبقراط الطب من دائرة أسرة اسكولابيوس الضيقة إلى بطون الكتب، وعلمه من لا تربطه صلة القرابة به، فعمُ الطب، وشاع بعد أن كاد يبيد أو يندثر.

أبقراط.. واضع القسم

ولد أبقراط في جزيرة (كوص) اليونانية عام ٤٦٠ق.م وتوفي عام ٣٥٧ق.م، وكان أبوه طبيباً، فأخذ عنه، وتفوق عليه، وأصبح أشهر أطباء القرن الخامس قبل الميلاد.

وأبقراط هو (أبو الطب)، ولا غرو، فهو أعظم أطباء الزمان، والمعلم الإنساني الأول لمهنة الطب، وأول من كتب في الطب ورتبه وبوبه، وبناه على أساس التجربة العلمية الصحيحة، وطهره من الخرافات والأساطير والغيبيات، وأول من رفع من آداب مهنة الطب، ووضع القسم المشهور، بل حافظ على المهنة من الانقراض.

وأبقراط هو أول من أسس مستشفى في تاريخ البشرية، وأول من أسس مدرسة طبية عامة في التاريخ، فلم يحتكر الطب في نسله - خلافاً لوصية اسكولابيوس - وأباح تعلم الطب لكل فرد من أفراد المجتمع شريطة أن يلتزم بآداب المهنة وقسمها.



من أفضال أبقراط فصل الطب عن الخرافات

اعتمد طب أبقراط على الدراسة الدقيقة للمرض، وتميز بدقة الملاحظة، وتسجيل المشاهدات على المرضى، والالتصاق الوثيق بهم، فكشف عن أعراض الكثير من الأمراض. ويعتقد أن كتبه التابعة له لا تزيد على ثلاثين كتاباً، قام المسلمون بنقل معظم هذه الكتب إلى اللغة العربية، وأهم هذه الكتب: كتاب «الفصول» الذي تحدث فيه عن الأمراض الحادة، وأوجاع النساء، وكتاب «تقدمة المعرفة»، وأوضح فيه العلامات التي يتعرف بها الطبيب المرض في الماضي والحاضر والمستقبل، وكتاب «الأمراض الحادة» وفيه يوضح تغذية المرضى، وطرق العلاج بالأدوية، والفصد والكمادات والعمل والماء البارد والاستحمام، وكتاب «الجبر والخلع» وتحدث فيه عن تشخيص الكسور والعظام وعلاجها، وكتاب «الأخلاط» الذي أوضح فيه حال الأخلاط وكميتها وكيفيتها، وعلاج كل واحد منها، وكتاب «طبيعة الإنسان» الذي وصف فيه تركيب جسم الإنسان وطبيعته، وكتاب «الأجنة».. وغيرها.

ولعل أهم أفضال أبقراط فصل الطب عن الخرافات والغيبيات، ومحاولة إقامته على أساس علمي سليم، وإيمانه بأن الأمراض تنشأ من أسباب طبيعية، وليست من عمل الآلهة. وهو بذلك يكون أول من ربط - في مجال الطب - بين الملاحظة الموضوعية والتفكير؛ وذلك عندما أعلن المبدأ الذي يقول: «لكل مرض سبب طبيعي، وإذا لم يوجد هذا السبب الطبيعي، فلا يوجد مرض.. وليس هناك شخص أكثر قدسية من الآخر.. ويجب أن نستبعد

المصادفة والحظ استبعاداً تاماً من الطب».

كما أنه عرَّف الهدف من الطب بأنه: «القضاء على آلام المرضى، أو على الأقل، التخفيف منها، سواء أكانت جسمانية أم نفسانية».

وليس ثمة شك أن العامل المهم الذي سما بأبقراط إلى القمة التي ارتفع إليها في عالم الطب هو وضعه (لقسم الأطباء) الذي يحتوي على الفضائل الإنسانية والقوانين الخلقية التي ما يزال الأطباء في كل الدنيا يراعونها إلى اليوم، حتى إن الطبيب لا يمارس مهنته إلا بعد أن يؤدي قسم أبقراط.

نص قسم أبقراط

ترجمت كتب أبقراط إلى معظم لغات العالم، ومنها الكتاب الذي يحتوي على «قسم أبقراط».. وقام الفرنسي لينريه Littre بترجمة كتب أبقراط وقسمه إلى اللغة الفرنسية في الفترة من عام ١٨٣٩م إلى ١٨٦١م. وفي عصر الدولة العباسية نشطت حركة الترجمة، فترجمت كل كتب أبقراط وقسمه المشهور. وقام حبيش بن الحسن الدمشقي ابن أخت شيخ المترجمين حنين بن إسحاق (٨٠٩ ـ ٨٧٧م)، وعيسى بن يحيى أحد تلاميذ حنين بن إسحاق بترجمة القسم إلى اللغة العربية. كما قام حنين بن إسحاق بترجمة القسم إلى اللغة السريانية.

وهذا نص قسم أبقراط باللغة العربية كما ورد في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة (ت ١٢٦٩م) صفحة ٤٥:

قال أبقراط: «إني أقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة، وخالق الشفاء وكل علاج. وأقسم باسكولابيوس. وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً. وأشهدهم جميعاً على أني أفي بهذه اليمين وهذا الشرط. وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي، وأواسيه في معاشي، وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي.

وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساوٍ لأخوتي، وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولا شرط، وأشرك أولادي وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط، أو حلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة. وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك، وأقصد في جميع التدابير، بقدر طاقتي، منفعة المرضى.

وأما الأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي، ولا أعطي ـ إذا طلب مني ـ دواء قتالاً، ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة. وكذلك أيضاً لا أرى أن أدنى من النسوة فرزجة (مادة مجهضة) تسقط الجنين. وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة، ولا أشق أيضاً عمن في مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل. وكل المنازل التي أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى، وأنا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد إرادي مقصود إليه في سائر الأشياء، وفي الجماع للنساء والرجال، الأحرار منهم والعبيد. وأما الأشياء التي أعاينها في أوقات علاج المرض أو أسمعها، في غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجاً، فأمسك عنها، وأرى أن أمثالها لا يُنْطَقُ به.

فمن أكمل هذه اليمين، ولم يفسد شيئاً كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها، وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً، ومن تجاوز ذلك كان بضده».



لا يمارس الطبيب في كل الدنيا مهنته قبل أن يؤدي قسم أبقراط

ويعطينا قسم أبقراط فكرة واضحة عن واجبات الطبيب وآدابه، ويتضمن التزام بعض القواعد الأخلاقية من جهة، ومجانبة أفعال شائنة من جهة أخرى.

ولم يقتصر فضل أبقراط على وضع هذا القسم فحسب، بل إنه حمل حملة شعواء على كل من جعل من فن الطب صناعة أساسها السحر والدجل، وهدفها الذهب والمال، وأسلوبها الكذب والخداع.

قسم أبقراط عند أطباء الإسلام

اهتم أطباء الإسلام اهتماماً بالغاً بآداب مهنة الطب، واهتموا في المقام الأول بأخلاق الطبيب وسلوكه، واشترطوا على كل من

يريد ممارسة الطب أن يؤدي قسماً طبياً يقطع به عهداً على نفسه بتطبيق بنوده، واشتمل القسم على أغلب بنود قسم أبقراط. ولكن الأطباء المسلمين الأوائل عمدوا إلى تعديل قسم أبقراط وهذبوه ليكون أوفى تقنيناً لآداب المهنة، وليلائم المفاهيم الإسلامية التي تدعو إلى الأدب الرفيع، والخلق النبيل، والسلوك المنضبط في ممارسة مهنة الطب.

وقد ظهرت في ظل حضارة الإسلام عدة أنواع لقسم الأطباء، أهمها القسم الذي وضعه موسى بن ميمون الأندلسي في القرن الثاني عشر الميلادي على هيئة دعاء. وكانت أنواع القسم جميعها تتفق في مضمونها في التزام الفضيلة والأخلاق والطهارة، مع التزام قدسية المهنة، وعدم الخروج عن آدابها وقوانينها. وركز أطباء الإسلام عند صياغة القسم الطبي في عدم إفشاء الطبيب لأسرار مرضاه، حتى ولو لأقرب الأقربين إليه، وطالبوا الطبيب أن يقسم بالله تعالى على ذلك، ومن ثم يكون الله سبحانه رقيباً عليه.

وفي كتاب «المختارات في الطب» لمؤلفه مهذب الدين علي بن أحمد بن هبل البغدادي (ت ١٢٣٣م)، جاء ذكر بعض الوصايا التي يجب أن يلتزمها الطبيب المسلم في أثناء عمله، من ذلك التزام العفة، وأن يطلب مهنة الطب تقرباً إلى الله سبحانه، وأن يحفظ أسرار مرضاه، وأن يكون متواضعاً، وألا يصف السموم لأي غرض، وألا يعين على إسقاط الأجنة، وألا يطلب الأجر إلا من الذي يستطيع ذلك، وأن يقابل المرضى بالترحاب والبشاشة والسرور، وألا يصف إلا الأدوية المعروفة أنها مفيدة لعلاج المرضى.

ولقد استلهم الطبيب المصري أبو الحسن علي بن رضوان (٩٨٦ ـ ١٠٦٧م) بنود قسم أبقراط، وقدمها بشكل منطقي في صورة صفات سبع يجب أن تتوافر في الطبيب:

الأولى: أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرؤية، عاقلاً ذكوراً، خير الطبع.

الثانية: أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

الثالثة: أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة: أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجر، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخامسة: أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

السادسة: أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعداء فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.

السابعة: أن يكون مأموناً، ثقة على الأرواح والأموال، ولا يصف دواءً قتالاً ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

قسم الأطباء.. الآن

ونورد هنا نص القسم الطبي الذي أقره المؤتمر العالمي الأول للطب الإسلامي، والذي انعقد في دولة الكويت بتاريخ ٦ ـ ١٠ ربيع أول سنة ١٤٠١هـ (١٢ـ ١٦يناير عام ١٩٨١م).. وهو القسم الذي يقسمه الأطباء الجدد الآن:

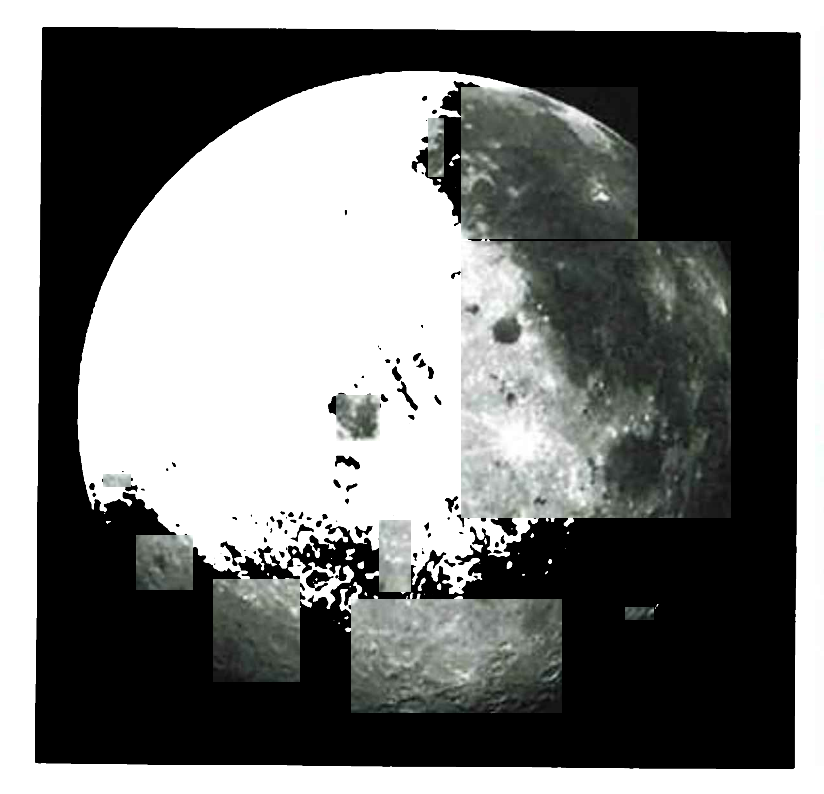
[أقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتي، وأن أصون حياة الإنسان في كافة أدوارها في كل الظروف والأحوال باذلاً وساعياً إلى استنقاذها من الهلاك والمرض والألم والقلق. وأن أحفظ للناس كرامتهم، وأستر عورتهم، وأكتم سرهم. وأن أكون على الدوام من وسائل رحمة الله، باذلاً رعايتي الطبية للقريب والبعيد، للصالح والخاطئ، والصديق والعدو. وأن أثابر على طلب العلم، أسخره لنفع الإنسان، لا لأذاه. وأن أوقر من علمني، وأعلم من يصغرني، وأكون أخاً لكل زميل في المهنة الطبية متعاونين على البر والتقوى. وأن تكون حياتي مصداق إيماني في سري وعلانيتي، نقية مما يشينها تجاه الله ورسوله والمؤمنين.. والله على ما أقول شهيد].

المراجع

١. عيون الأنباء في طبقات الأطباء/ ابن أبي أصيبعة. شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥م.
٢. الطب عند العرب والمسلمين، د. محمود الحاج قاسم محمد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣. الطب الإسلامي عبر القرون، د. الفاضل العبيد عمر، دار الشواف للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٤. أبقراط.. أبو الطب، أحمد الشنواني، مجلة طبيبك الخاص، دار الهلال بمصر، يوليو١٩٩٠م.
٥. الصيدلة.. علم وفن وإنسانية، د. جورج وهبة العفي، اقرأ رقم ٢٨٢، دار المعارف بمصر/ يونيو ١٩٦٦م.
٦. الطب الإسلامي، د. أحمد طه، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٦م.
٧. الطب عند العرب، د. حنيفة الخطيب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٨م.
٨. شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار الآفاق بالمغرب، ط٩، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٩. موسوعة المعرفة.
١٠. موسوعة الهدف٢٠٠٠، السنة الثانية، العدد ٧٣.

القمر والحياة البشرية

مجدي يوسف أمين
الرياض - السعودية



القمر هو أحد الأجرام السماوية التي أدت دوراً مهماً في حياة البشرية عندما استخدمه سيدنا إبراهيم عليه السلام حجة في إثبات وجود الله عز وجل لقوم حرّان ببابل الذين كانوا يعبدون الكواكب. قال عز وجل: *فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين*. الأنعام:٧٧.

القمر هو التابع الأمين الذي يدور حول الأرض، ويتحرك معها حول الشمس. والقمر جسم مظلم، أي غير مضيء بذاته، وإنما يعكس ضوء الشمس الساقط كالمرآة، قال عز وجل: *تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً*. الفرقان: ٦١. وقال أيضاً: *ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً*. نوح: ١٥ و ١٦. السراج هنا هو الشمس؛ لأنها تضيء ذاتياً لما يندفع منها من ضوء وحرارة، والقمر المنير هو القمر الذي يستمد نوره من الشمس. وقد وصف بأنه منير ولم يوصف بأنه مضيء، لأن النور خلاف الضوء. فالنور لا حرارة فيه بعكس الضوء، كما أن النور ليس ذاتياً وإنما هو متولد من وقوع الضوء على الأجسام.

والقمر أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض، ويدور حول الأرض في مدار بيضوي الشكل، فيرى هلال أول الشهر، ثم يستغرق نحو ٧ أيام حتى يصبح تربيعاً أولاً ثم ٧ أيام أخرى ليكتمل بدراً و ٧ أيام بعدها ليصير تربيعاً ثانياً و ٧ أيام رابعة لينتهي بطور المحاق، ثم يولد بعد ذلك. وهذه الدورة تسمى بالشهر العربي الذي يقدر طوله بـ ٥ر٢٩ يوماً تقريباً.

الليل متقدم على النهار

ومن هذه الأشهر يتكون التقويم الهجري الذي تتحدد به التواريخ الإسلامية. قال تعالى في كتابه العزيز: *يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيتُ للناس والحج*. البقرة:١٨٩. واستفاد قدماء المصريين من أطوار القمر في ابتداع الأسبوع كفترة زمنية يحسبون بها.

والتقويم الهجري مبني على ظهور هلال القمر للبصر بالعشيّات «بعد غروب الشمس» وآخرها رؤيته بالعشيات ثانياً؛ فلذلك ميز المسلمون تقويمهم بتقديم الليل على النهار وجعله يعتمد على رؤية الهلال لا الحساب الفلكي، إذ إنهم يعدون الشهر من عشية الليلة التي يرون فيها الهلال فيجعلون تلك الليلة مع نهار صبيحتها يوماً واحداً هو أول أيام الشهر عندهم. وكذلك يتلونه بباقي الأيام إلى آخر الشهر. وتأكيد ذلك ما ورد في الخبر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في أمر صيام شهر رمضان أنه قال: «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غُبّي (أي خفي) عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» رواه البخاري ومسلم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم مبدأ الشهر من عشية أول الليلة التي يرى فيها الهلال بالإبصار، وآخره عشية أول ليلة يرى فيها، وهي أول الشهر، ثم تتوالى الأيام على نسق ما قلنا، فيكون الليل متقدماً على النهار في الأيام على عكس الأمم غير الإسلامية التي يبدأ عندها اليوم من طلوع النهار ويتم بالحسابات الفلكية لحركة القمر.

وقد بدأ استخدام هذا التقويم في القرن السابع الميلادي منذ هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة. وقد أدخل هذا التقويم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أعوام ٦٣٤ - ٦٤٤ بعد الميلاد، وحدد الخليفة عمر بن الخطاب أن الهجرة حدثت في عام ٦٢٢ بعد الميلاد. ويتكون العام الإسلامي من اثني عشر شهراً قمرياً، ستة منها مدتها ٢٩ يوماً، وستة أخرى مدتها ٣٠ يوماً. وفي الأعوام الإسلامية الكبيسة يضاف إلى آخر شهر في العام يوم آخر. وبذلك تكون السنة التقويمية الإسلامية من ٣٥٤ يوماً إلى ٣٥٥ يوماً، وبهذا تكون أقصر من السنة الشمسية بمقدار ١١ر٢٥ أو ١٠ر٢٥ يوماً. ويصل الاختلاف بين هذا التقويم والتقويم الشمسي ما يقرب من سنة تقويمية إسلامية كل ٣٢ عاماً إسلامياً تقويمياً.



رحلة أبوللو فتحت الطريق إلى القمر

وكان أول من استخدم التقويم القمري هم علماء بابل فكان طوال الشهر عندهم ٢٩ أو ٣٠ يوماً متعاقبة بانتظام. وعدّوا السنة ١٢ شهراً قمرياً، أي إن السنة عندهم ٣٥٤ يوماً، ولكي يوفقوا بين السنة القمرية والشمسية أضافوا شهراً ثالث عشر عند الضرورة، وبالتحديد كل ثماني سنوات.

منازل

يدور القمر حول نفسه مرة في الفترة نفسها التي يستغرقها ليكمل دورة في مداره حول الأرض، وهذا يجعل طول نهار القمر نحو ١٤ر٥ يوماً وكذلك طول ليله. ونتيجة لبطئه في الدوران حول نفسه مما أدى إلى تساوي زمن دورته حول نفسه مع زمن دورته حول الأرض فإننا لا نرى منه سوى وجه واحد فقط. أما الجانب الآخر المظلم فهو محجوب عن الأرض دائماً.

وقد اهتم العرب بملاحظة حركة القمر حول الأرض، وقسموا المجموعات النجمية الواقعة على هذا المدار إلى ٢٨ منزلاً، وهي ما تعرف بمنازل القمر، والتي تمثل أيام الشهر العربي، حيث يمر القمر كل يوم بمنزل واحد إلا المنزل الأخير فإن القمر يمكث فيه ليلتين أو ثلاثاً حسب طول الشهر العربي. وهذه المنازل التي قال تعالى فيها: *والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم*. يس:٣٩.

وكانت العرب تقول: إن لكل منزلة من هذه المنازل مطراً أو ريحاً أو برداً أو حراً، ويسمونه: «نوء» ذلك المنزل، فإذا مضت مدة النوء، ولم يكن فيها مطر قيل خوى منزل كذا، أي أصبح فارغاً، كما كانوا يسمونه المنزل باسم كوكب أو نجم، فيقولون مثلاً كوكب الثريا بدلا من منزل الثريا.

و«النوء» هو سقوط (غروب) أحد المنازل في المغرب، أي: اختفاؤه تحت الأفق، مع الفجر، وطلوع آخر يقابله في ساعته في المشرق. ويسقط كل منزل من هذه المنازل في ١٣يوماً، ما عدا منزلة الجبْهة فإنها تستغرق ١٤يوماً؛ ومن ثم تنقضي المنازل الـ ٢٨ خلال السنة. ثم يرجع المنزل الأول في ابتداء السنة.

العرب والنوء

وكان العرب يعتقدون في النوء اعتقادين: أولهما: أنهم جعلوا نوء النجم

الساقط (الغارب) علَماً على المطر ووقتاً له، كما جعلوا الشتاء وقتاً للبرد، والقيظ وقتاً للحر، فمن ذهب هذا المذهب، واعتقد في النوء هذه النية، فقال: مطرنا بنوء الثريا، يريد حين ناءت الثريا نزل المطر - فليس في ذلك حرج، وذلك مثل قول ابن عباس للمرأة التي جعل زوجها أمرها في يدها فطلقته: «خطأ الله نوءها، ألا طلقت نفسها؟» يريد أخلى الله نوءها من المطر، أي: حرمها الله الخير كما حرم من لم يمطر وقت المطر، وكذلك قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استسقى به: «يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا»، كأنه علم أن نوء الثريا وقتٌ يرجى فيه المطر، فسأل عنه: أخرج أم بقيت منه بقية؟.

والثاني: جعل الفعل للنجم، واعتقد أنه هو الذي أنشأ السحاب، وأتى بالمطر، وهذا من أمور الجاهلية، التي قصدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة السابق، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»* وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: *وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون*. الواقعة: ٨٢. إنكم تجعلون شكركم لله على ما رزقكم أن تنسبوا ذلك الرزق للكواكب.

وذمُّ الرسول صلى الله عليه وسلم لمذاهب العرب في الأنواء دليل على أنه لا عمل للنوء في السحاب والرياح والمطر، ولولا ذلك لجاز للمعتقد أن يظن أن للنوء عملاً في المطر كعمل الريح في إنشاء السحاب.

والقمر أقل حجماً من الأرض بـ ٤٩ مرة ويبعد عنها بـ: ٢٤٠ ألف ميل. والجاذبية على سطح القمر تساوي سدس جاذبية الأرض. ودرجة الحرارة على سطحه عالية جداً تراوح بين ١٣٠ درجة مئوية نهاراً و ١٦٠ درجة مئوية تحت الصفر ليلا ولهذا تصعب عليه الحياة العادية من أي نوع.

وسطح القمر صحارى مكونة من الصخور والأتربة، ويمتلئ سطحه بالفوهات الناتجة من تساقط النيازك والبراكين الخامدة (لم تعد تثور). وعلى سطح القمر جبال وهضاب وأودية. ولو



الخطوة الأولى للإنسان على سطح القمر

نظرنا بالعين المجردة إلى القمر لوجدنا تفاوتاً في الأماكن اللامعة على سطحه، وكلما كان المكان مرتفعاً عن السطح، ظهر من على الأرض أكثر لمعاناً. والقمر ليس له غلاف جوي مثل الأرض، لذلك تكثر عليه الفوهات الناتجة من تساقط النيازك. والواقف على سطح القمر يرى سماءه مظلمة حتى في النهار لعدم وجود الغلاف الجوي. والمقصود بنهار القمر الجزء المواجه للشمس والمقصود بالليل الجزء المعاكس لاتجاه الشمس.

وأهم الظواهر التي تصحب حركة القمر هي:

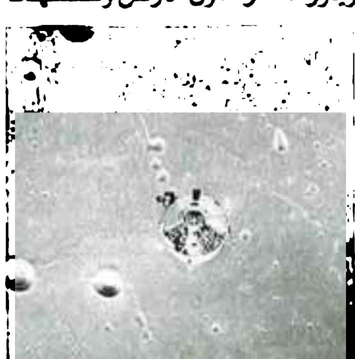
أولاً: ظاهرة المد والجزر:

وهذه الظاهرة تنشأ أساساً من جذب القمر ودورانه حول الأرض؛ فمن المعروف أن القمر جسم مادي يجذب أجزاء من الأرض في اتجاهه سواء أكان هذا الجزء من الماء أم من اليابسة. وهذا الجذب في الناحية المواجهة له من سطح الأرض أقوى مما هو عليه من الناحية الأخرى. ولما كان جذب القمر يؤثر في اليابسة والماء معاً، فإن سطح الماء يرتفع إلى أعلى في اتجاه القمر مما يسبب المد، في الجزء الآخر غير المواجه للقمر فيحدث الجزر. والمد والجزر يتأخران كل يوم بمقدار ٥٠ دقيقة تقريباً، وهذا هو مقدار تأخر غروب القمر كل يوم. وحيث إن تأخر ٥٠ دقيقة كل يوم يُحدث تأخراً قدره ٢٤ ساعة بعد شهر قمري، وعلى هذا تنقلب أوقات المد والجزر كل نصف شهر قمري من الصباح إلى المساء وبالعكس، وبعد شهر قمري كامل يعود المد والجزر إلى الأوقات الأولى بعينها. ويختلف ارتفاع الماء عن سطح البحر في حالة المد على حسب أوجه أشكال القمر، وعلى حسب أبعاد الأرض عن القمر والشمس. ففي وقت المحاق يصل المد إلى نهايته العظمى، والجزر إلى نهايته الصغرى، وأما في وقت التربيعين فيأخذ المد نهايته الصغرى. وبُعد الأرض عن القمر يحدث تأثيراً في مقدار المد الكلي الذي يزداد باقتراب القمر من الأرض، ويتناقص بتباعده عنها؛ وكذلك تغيّر بُعد الشمس عن الأرض يؤثر في مقدار المد الكلي، غير أن ذلك التأثير قليل بالنسبة إلى تأثير القمر. وتستخدم هذه الظاهرة في توليد الطاقة الكهربائية في بعض المدن الساحلية. وكان أول من قال

بهذه الظاهرة وقام بدراستها هو العالم المسلم محمد بن أحمد الشهير بالبيروني (ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، وليس اسحاق نيوتن (ت ١٧٢٧م). وهذا يخالف ما قاله د. زين العابدين متولي في كتابه «إطلالة على الكون» ص١١.

ثانيًا: ظاهرة خسوف القمر:

تدور الأرض حول الشمس، وتجر خلفها مخروطاً من الظل يبلغ طوله أكثر من ٢٢١ مرة من طول قطر الأرض، ويدور القمر حول الأرض وتفصلهما



غزو الفضاء كشف أسراراً عن القمر

مسافة متوسطة تساوي ٦٠ مرة من قطر الأرض. وبما أن مدار القمر مائل على مدار الأرض حول الشمس بمقدار ٥ درجات و ٨ثوان، فإنهما يتقاطعان في نقطتين تسميان العقدة الصاعدة والعقدة الهابطة. وبما أن القمر يدور حول الأرض مرة كل شهر قمري فمن الجائز أحياناً أن يقترب القمر من إحدى العقدتين في طور البدر ويدخل مخروط ظل الأرض، كله أو بعضه، فيُخسف بذلك خسوفاً كلياً أو جزئياً حسب مقدار الجزء الذي يدخل في مخروط ظل الأرض. وخسوف القمر يُرى ليلاً في جميع بقاع الأرض التي يكون فيها فوق الأفق. والخسوف يبتدئ على جانب القمر الشرقي لأن القمر يدور حول الأرض من الغرب إلى الشرق؛ لذلك فإن سكان البلاد الشرقية يرون الخسوف في بدايته والبلاد الغربية يشاهدونه في نهايته.

وفي حالة الخسوف الكلي لا يظهر القمر بلونه الفضي المعتاد ولكن يظهر بلون بني محمر، أو أحمر نحاسي. وذلك نتيجة لوجود الغلاف الجوي الأرضي الذي يشتت كل أشعة الشمس القادمة، ما عدا الأشعة الحمراء التي تصل إلى سطح القمر.

ويستفيد الإنسان من هذه الظاهرة بمعرفة خصائص طبقات الجو العليا. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يمكن معرفة الكثير عن سطح القمر وصخوره في أثناء الخسوف حينما تحجب أشعة الشمس المباشرة فترة معينة. أما من الناحية الدينية فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وتصدّقوا وصلوا».

وتعدّ تسمية الكسوف والخسوف تسمية عربية مطلقة، وهي دليل واضح على قدرة العربية على استيعاب المصطلحات العلمية كافة، فهذه الظاهرة في اللغة اللاتينية ذات اسم واحد هو الكسوف فيقال كسوف الشمس أو كسوف القمر. أما في اللغة العربية فيسمى اختفاء الشمس بكسوف الشمس واختفاء القمر بخسوف القمر، وذلك لأن علماء الفلك المسلمين كانوا يجعلون الشمس تمثل في عالمهم السيدة الحرة فعندما تختفي فهي مكسوفة، أما القمر فهو تابع التابع، أي تابع الأرض التي هي بدورها تابع لسيدة المجموعة فهو يمثل في عالمهم العبد فهو عندما يختفي يكون مخسوفاً.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفي أواخر الستينيات أصبح حلم الخيال العلمي لغزو الفضاء حقيقة عندما أطلق الاتحاد السوفييتي أول قمر صناعي «سبوتنك» ليدور حول الأرض في عام ١٩٥٧م، ثم أتبعه بأول مركبة فضاء ترتطم بالقمر في ١٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٩م. وفي محاولة ردّ المكانة العلمية لأمريكا بدأت برنامجاً طموحاً لغزو الفضاء يكون هدفه هو إرسال إنسان إلى القمر قبل نهاية عام ١٩٧٠م. وقد هبط بالفعل أول إنسان على سطح القمر في عام ١٩٦٩م (أرمسترونج والدين) بواسطة «أبوللو ١١» ولقد بلغ عدد رواد الفضاء الذين وصلوا إلى القمر وهبطوا عليه ١٢رائداً، كما بلغ عدد رواد الفضاء الذين دارت بهم مركبات الفضاء حول القمر ٢٧رائداً. وأخيراً في نهاية عام ١٩٩٧م وأول عام ١٩٩٨م اكتشفت كميات كبيرة من المياه تحت صخور القمر. وما زالت معظم أسرار القمر في غموض عن الإنسان.

المراجع

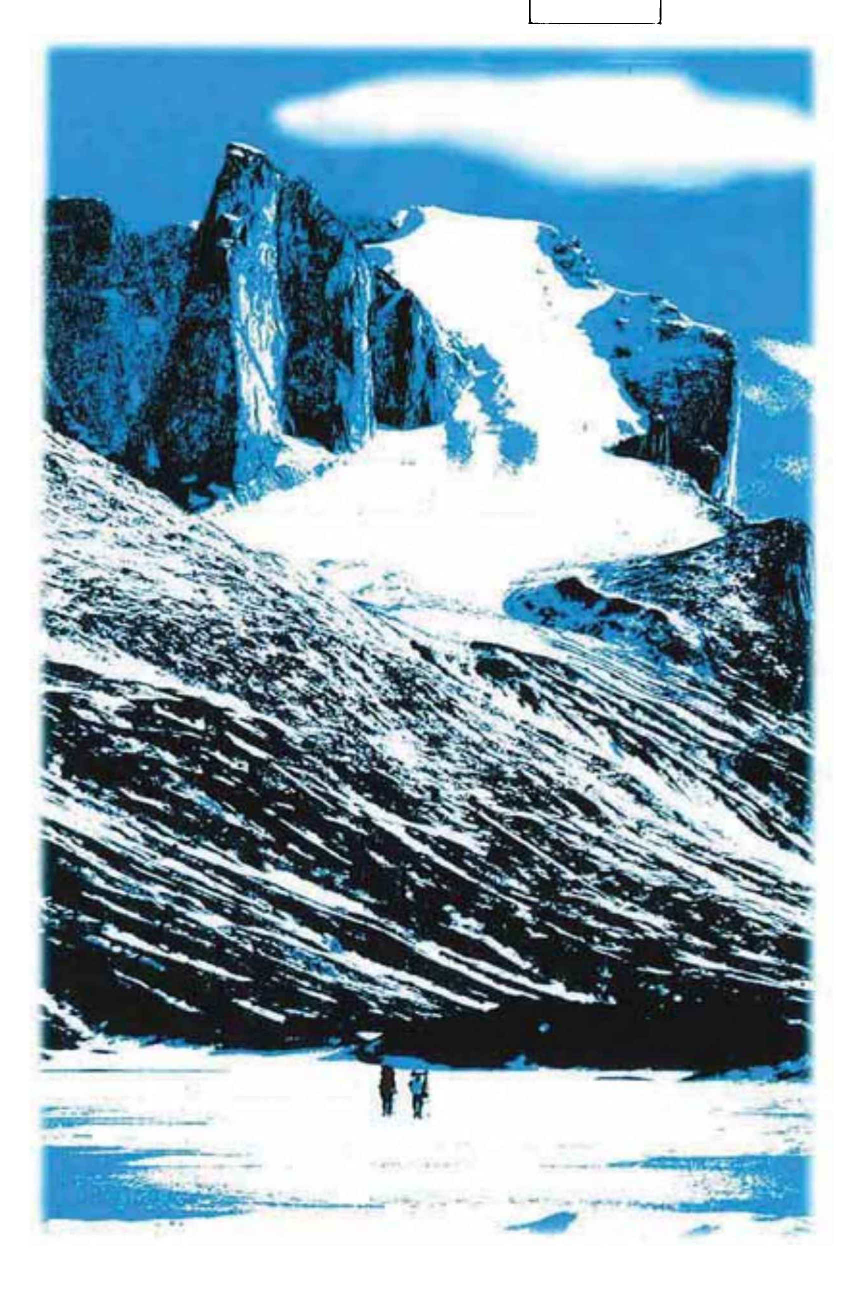
• صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم جـ١، ص٢٠٥.

١ ـ د. مجدي يوسف أمين، أنت تسأل والقمر يجيب، هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية.

٢ ـ د. مجدي يوسف أمين، موسوعة سفير الإسلامية العدد ٢٩ ـ ٣٠ عام ١٩٦٩م.

٣ ـ مؤيد الدين العرضي، كتاب الهيئة تحقيق جورج صليبا.

4 - Fundamental Astronomy 1994, ed. by. Darttunen. Springer Verlay.





الخُطَا

محمد زايد الألمعي
أبها - السعودية

فى الطريق إلى الغيمة اليابسهْ
يفجأ المنتمي بعضه
فيعانقه
ويعودان نحو البدايات
مصطحبين البلاد التي
آنست دفء روحيْهما
في العراء البعيد
الذي آنسه

....

في الطريق إلى القرية الدارسهْ
يفجأ القرويّ ملامحه
إنّ حنّاء جدته
وخلاخيلها
صوت أحبابها الراحلين
نثار على كلّ باب
رأت منه عشاقها
ورأى منه أحلامها
وقناديلها الناعسهْ

....

في الطريق إلى الأمة البائسهْ
يفجأ الجاهليّ سلالته
ثم يصحبهم
نحو قبر أبيه المعلّق في شرفة الوقت
منحدرا من اعاليه
يلقي عليهم مهابته اليائسهْ.

....

منذ عشرين قرناً
يئن الطريق إلى النبع
من خطوات الصحارى
وأعرابها الراحلين
منذ عشرين قرنا
وهذا الأنين
يبعثرهم
في مرايا البلاد البعيدة، ظمأى
إلى وطن لا يرى
وقتلى يشيّعهم حزنهم
فوق نعش الحنين..

لا عُـــذر!!

سلمان بن زيد الجربوع
الرياض - السعودية

فلسطينُ، لا عـــذرٌ لدينا فنعـــذرُ
ولا اعـتلجتْ فـينا الهـموم فنشـعرُ
ولا طرقت آذانـنا نغـمــةُ الفــدا
على حينِ آذاها النعـيبُ المخــدِّرُ
تمرُّ بنا الآلام.. لا ارتاع مـضـجعٌ
ولا التـاع خـفّـاقٌ، ولا اهتـزّ منبـرُ!
تبلّد فـينا الحسُّ حـتى تجلمـدت
مشاعـرنا.. فـالقبـر أجدى وأجـدرُ

***

فلسطينُ، يا غـيـثـا من العزّ ما همى
على ربوةٍ إلاّ ازدهت تتـبـخـتـرُ
ويا عـبـقـا من أمـسنا الغـابر الذي
كـأنّ شـذا ذكـراه مـسكٌ وعنبـرُ
ويا سجـدة الإسـراء مـازال طيـفـها
يُعطّرُ أكنافَ المدى ويُبـشّـرُ
ويا دمـعـةً تاهت فلم يدرِ مُـزنها
على أيّ آفـاق الضنا يتـحـدّرُ
ويا لوعـةً لم ندرِ كـيف نصوغـها؟!
فـتنظمـهـا الأشـواقُ حـينًا وتنثـرُ
ويا أرقـا مُـسـتـعـذبًا مـا أحـبَّـهُ
إلى النفس، إن كنّا لأجلك نسـهـرُ!
ويا دمنا يغلي، ويمتـدُّ حـانقـا
يُعَلّمُ أجـيـال الورى، كـيف تثـأرُ!
يفـجّـر فـينا غـضـبـةً عُـمَـريّةً
تمزّق أسـتـار السّـمـا حين تزأرُ
كـذا فلنثـرْ، أمّا المقـيم على الونى
فثورٌ، معاذ الصدق، بل هو «أثورُ»!
يلوك أباطيلَ الســلام لســانُهُ
وإخـوانه في الله.. عـارٍ ومُـعـسرُ
وجـوعـانُ تُؤويـه السـراديبُ هيكلاً
وحـيـرانُ تُفنيـه المنافي وتقـبـرُ
وأنجسُ خلقِ الله في القدس يَحْتسي
دمـاءَ الصـغـارِ الأبرياءِ ويسكرُ
تضجُّ حـمـامـاتُ السلام وتغـتـدي
شـواهينَ، والغـصنُ الطريُّ يُكسَّـرُ!
وصـاحـبنا مـازال في نشـوة الهـوى
بأوهامـه البلهـاءِ يهـذي ويهـذرُ...
أقـول، وأسـيـاد الخـيـانة أخلدوا
إلى الذلّ، فـهمْ اليومَ أخـزى وأحْقَـرُ
لئن رفـعـوا بيض الشعـارات رايةً
فسلْمُ الأباة المسـتـمـيـتين أحْـمَـرُ!
سـتـعـصف بالسّلم البـغـيض عصـابةٌ
عـصـامـيّـةٌ أزكى وأسنى وأطهـرُ

تَوَضّـأ من أي الجـهـاد نفـوسُـهـا
وتخطرُ.. يا فـخـرَ العُـلا حين تخطرُ
تُسلسل من أسـخى الـدمـاء مـدادَها
وتـطبعُ ديوانَ المعـــالي وتنـشــرُ
هُنالك يرســـو الحلمُ ريّانَ بالمنى
ليمـخرَ بحرَ التـضحيات، فـأبحِروا
فـإمّـا حـيـاةٌ تسـحقُ الظلمَ عَنوةً
وتعنو لقـيُّـوم السـمـاءِ فـتـشكرُ
تُرفرف فوقَ القـدس أرواحُنا ضُحَىً
و تغـريدُنا التكبيـرُ والأفقُ أخـضـرُ
ونهـمي على الأحـجـارِ مليـارَ قـبلةٍ
فكم صـحـبـتنا، والمنايا تَزَمْـجـرُ!
وإلا فـمـوتٌ يشـتـهي الموتُ أنه
يحسُّ بما عـانى المسجّى ويشـعـرُ
فـإن لم يكنْ إلا رصـاصـةُ غـادرٍ
أو العـيشُ مقـهـوراً، فموتُك أعـذرُ
مماتٌ يسـيحُ الكون في سـحـرِ عطرهِ
أمـا هزَّ مـغناكَ المماتُ المعطّرُ؟!

***

فلسطينُ تـغـشـانا الدواهي وتنجلي
ولسنا إلى غـيـر المهـيـمن نَجْـأرُ
ينزُّ ثرى «حطينَ» حُـزْنًا وحـسـرةً
إذا التفتتْ تستنفرُ العُربُ «خيبرُ»
يكاد صـلاح الدين يخـتـرط الردى
ويشـتـدُّ من خلف الغيابات حيـدرُ!
يثـورُ المدى المحـموم! والعُربُ نُوَّمٌ
على ما تشـاء المخـزيات وسُمَّـرُ
تُشَـتِّتُنا الأطمـاعُ والدربُ مُخْـصِبٌ
وتجـمعُنا الأوجـاعُ والدربُ مُـقفـرُ!

***

فلسطينُ تطوين السنين انتـفـاضـةً
مـقـدسـةً.. آياتُهـا لا تفـسَّـرُ
وكـيف تُراني أسـتطيع؟! ونورها
من الصبح تتلوه الرُّبى الفيح أسفرُ
وكيف تراني أستطيع؟! وسُحْبُـهـا
تجـوب الميادينَ العطاشَ فـتـمطرُ
فلسطين مـا ألوتْ بدربِك محـنةٌ
مـزلزلةٌ إلا وصـبـرُك أقــدرُ
ولا انقـشـعت عنك الغيـاهبُ وانثنتْ
مـولولةً إلا ووجـهُك أزهرُ
رويدكَ مهـما استكبر البغي واعتدى
فـربُّك من كِـبـر الطواغيت أكبـرُ

القميص المنحوس!!

تاكاشي أتودا

ترجمة:

سارة تاكاهاشي

الرياض ـ السعودية

ـ ليس لديّ قميص أرتديه.. أين القميص؟

صاح السيد كانيدا بغضب وهو يستعد للخروج للعمل، فردت عليه الزوجة:

ـ آسفة! لم أكن بالبيت حين أرسلت المغسلة «غسيل» الأسبوع الماضي والأسبوع الذي قبله، ومع هذا لا أظن أنه لا يوجد عندك قميص ترتديه..

نطقت الزوجة العبارة الأخيرة بنبرة كلها أسف..

ـ لديّ بالفعل قميص، لكن ياقته ضيّقة.

.. لا لا أقصد هذا القميص، عندك القميص المخطط.

أخذت الزوجة تنظر بعناية داخل دولاب الملابس وهي تتفحصه بدقة، ثم أخرجت القميص المخطط..

ـ هذا لا يناسبني.. أشعر أنه...

ـ لماذا..؟

ـ لأن ألوانه فاقعة.. لا يناسب سني..

هكذا أجابها بتردد شديد.

.. لا يهم.. الجميع يرتدون اليوم مثل هذه الملابس..

لم تلق الزوجة بالاً لما قاله زوجها، ونزعت «البلاستيك» الذي يغطي القميص، فتناول السيد «كانيدا» القميص، ومدّ ذراعيه يدخلهما في القميص بطريقة تدل على الرفض، فلم يكن يرغب أبداً في ارتداء هذا القميص.

أخبر زوجته أن ألوان القميص لا تتناسب مع رجل في مثل سنه، لكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لرفضه ارتداء هذا القميص.. ظل يتمتم:

ـ ماذا يمكنني أن أقول لها؟ هل أقول: إن هذا قميص منحوس.. يجلب عليّ سوء الحظ.. وكلما ارتديته واجهت مشكلة ما..

منذ ثلاثة أشهر تناول السيد «كانيدا» غداء عمل يتكون من السمك غير المطهو.. وقد مات اثنان ممن تناولوا معه نفس الغداء، نتيجة تسمم أصابهم من جراء ذلك السمك، وقد عانى هو الآخر كثيراً، فقد أصيب بإسهال شديد.. وكان يرتدي هذا القميص المخطط حين تناول ذلك الغداء المشؤوم. ولم يتمكن من مواصلة العمل بسبب الإسهال الشديد.. يا له من يوم فظيع!

ومن شهرين حين استقل سيارة أجرة تعرض لحادث، ومات الرجل الذي كان يجلس بجواره.. في ذلك الوقت كان يرتدي أيضاً نفس القميص المخطط.. وليس هذا فقط، بل منذ شهر واحد تعرض أيضاً لحادث غريب، فحين ذهب إلى مستشفى السرطان لعمل الكشف الدوري، نصحه الطبيب بأن يبقى في المستشفى لفترة، ليتم فحصه ثانية، وبدقة، وهكذا ظن أن هذا نذير شؤم، وكان يرتدي آنذاك نفس القميص. لكن لحسن الحظ، اكتشف بعد إجراء الفحص الطبي الدقيق أنه لا يعاني من شيء، ومع هذا شعر بأنه لا يكون محظوظاً إذا ارتدى هذا القميص المخطط، فكلما ارتداه تعرض لسوء من نوع ما.. ورغم أنه لا يؤمن بالتشاؤم والتفاؤل، لكن إذا تعرض لمثل هذه الأحداث السيئة، كلما ارتدى القميص المخطط، فإن عليه أن يفكر في الأمر!

وأخذ يرجع بذاكرته إلى الوراء.. كيف حصل على هذا القميص..؟ أمر عجيب، لقد تسلم ذات يوم طرداً يحتوي على قطعة من القماش وتذكرة تسمح له بتفصيل القميص على حساب المحل!! لكن لم يكن على الطرد اسم من أرسله!! فأخذ يتساءل في حيرة:

ـ من الذي أرسل هذا القماش؟

ـ هذا غريب.. هكذا قالت الزوجة.

وحين فتح الطرد وجد ورقة كتب فيها «أتمنى لك حظًا سعيدًا»!! فظن في البداية أن أحدًا يريد مداعبته.. ودون تردد ذهب إلى «الترزي» وفصل القميص، لكن كان كلما ارتداه حدث له أمر غريب.. في البداية لم يهتم أبدًا بالأمر، لكن حين ذهب إلى المستشفى للفحص الدوري، وحين كان يغير ملابسه، لفت نظره أنه يرتدي قميصًا فاقع الألوان «مبهرجًا»، ثم استرجع بذاكرته ما حدث له في سيارة الأجرة، وأيضًا حادثة التسمم بعد تناول طعام الغداء مع زملائه.. في كل مرة يرتدي القميص المخطط نفسه.. ولأنه كان يرتدي هذا القميص في مرات معدودة، لهذا يتذكر جيدًا متى ارتداه؟ ففي خلال الأشهر الثلاثة الماضية ارتداه ثلاث مرات، وفي كل مرة شعر كأنه سيلقى حتفه.. ولهذا لم تكن لديه رغبة على الإطلاق لارتداء هذا القميص.. فخاطب نفسه.

- لا .. لن أرتدي هذا القميص.

ورغم أنه وضع ذراعيه داخل الأكمام.. لكنه عاد فنزعهما ثانية رافضًا ارتداء القميص، مخاطبًا نفسه:

- لا مفر من ارتداء القميص الأخر الضيق الياقة.. سوف أصبر وأتحمل.. مع أن ياقته ضيقة لكن يمكنه أن يؤدي الواجب، ويمكنني أن أعمل بأمان دون أن أتعرض لسوء.. رأته زوجته فقالت:

- ماذا حدث؟!

- اليوم أفضل هذا القميص الأبيض...



ثم خرج.. والأفكار تدور في رأسه:

- ربما هناك شيطان أرسل لي هذا القميص.. شيطان يعيش في عالمنا هذا، يحاول أحيانًا أن يشاكسني، ويشاكس الناس من حولي.. كان مكتوبًا في الطرد «أتمنى لك حظًا سعيدًا!!» لكن هذه العبارة لا تعني ما تحمله من معنى..

وأخذ يتخيل الشيطان وهو يكتب هذه العبارة، فيضحك ويقهقه مخرجًا لسانه في استهزاء..

- لابد أن شيطانًا كتب هذه العبارة.. فخلال ثلاثة أشهر حدثت لي أشياء غريبة، لكني اليوم أشعر براحة وأنا أرتدي هذا القميص الأبيض..

حين وصل السيد «كانيدا» إلى الشركة نسي كل شيء عن القميص، وفي المساء كان عليه أن يوقع عقد عمل مهمًا للشركة، وحين انتهى من عمله، خرج مع رئيسه لتناول بعض المشروبات في المقهى المجاور، وكان ينوي أن يعود بعد ذلك إلى بيته..

طاخ!! طاخ!! صوت كصوت الرعد.. شاحنة ضخمة صدمت السيد «كانيدا»..

طبقًا لأقوال الشهود.. ظل السيد «كانيدا» على قيد الحياة لمدة دقيقة أو دقيقتين.. أدرك خلالهما حقيقة الأمر ففكر:

.. يا إلهي! ذلك القميص المخطط كان يجلب لي الحظ دائمًا، فكلما تعرضت للموت كان ذلك القميص يساعدني على النجاة!!

الهوامش

يعد الأديب تاكاشي أتودا Takashi Atoda من الأدباء اليابانيين المعاصرين الذين نالوا شهرة واسعة بين قراء القصص القصيرة في اليابان. نشرت له أكثر من اثنتي عشرة مجموعة قصصية، طبعت معظمها أكثر من مرة، وخاصة الطبعات الشعبية منها، وتنتشر الطبعات الشعبية لمجموعاته القصصية بين عامة القراء؛ لأسلوبه الجذاب، ولمعالجته لقضايا المجتمع الياباني المعاصر، ومن الجدير بالذكر أنه متخصص في الأدب الفرنسي، كما يعمل في مكتبة البرلمان الفنية بالكتب، وقد ترك العمل بالمكتبة بعد أن ذاعت شهرته، وحصل على إحدى الجوائز الكبرى التي تمنح للأدباء في اليابان، وتفرغ بعدها للكتابة. والقصة التي اخترنا ترجمتها هنا بعنوان «هو أون نا شاتسو» Hu - un Na Shatus، وتعني حرفيًا القميص الذي يجلب سوء الحظ، وهي مأخوذة من مجموعته القصصية «نيكو نو جي كين» Neko no Jiken أي حادثة القطة التي نشرت أول مرة عام ١٩٧٨م، وصدرت طبعتها الشعبية التاسعة عام ١٩٩٨م عن دار نشر كودانشا بونكو Kodansha Bunko في طوكيو.



محمد قاري
تلمسان. الجزائر

- ١ -

لم أنزعج عندما أبدى حضرة الطبيب العام ابتسامة عريضة وقد أنصت إلى حديثي بخصوص ما اعترى أعصابي خلال الأيام التي سبقت، ثم عندما تطورت ابتسامته إلى ضحكة خفيفة، ثم إلى قهقهة صريحة.

كنت أتوقع ذلك. وأتوقع أكثر منه، انتظرته حتى كف. ابتلع ريقه. كأنما استبقى بعضاً من ضحكته للاستعمال الخاص.. أخيراً تماسك واستعاد جديته ووقاره المفروضين:

- «أرجو ألاّ تؤاخذني - قال لي بفرنسيته الأنيقة - لم أكن لأسمح لنفسي بهذه الضحكة البريئة لو لم تكن زبوناً، أعني صديقاً قديماً، على أية حال تقول: إن بداخل جمجمتك حجراً بحجم قبضة اليد وإنه...»

- «لم أقل: إنه يوجد حجر - قاطعته - ولا حتى حذاء عسكري مهترئ يعود إلى حملة نابليون على مصر! الذي قلته إن شعوراً عصبياً غامضاً أصبح يباغتني حيناً بعد حين هذه الأيام، وذكرت لك الحجر لمجرد التقرب والتشبيه».

- «لقد فهمت ذلك جيداً - كان يقول وهو يسحب إليه كناش الوصفات - لذلك أطمئنك، فهذه الحالة لا تستدعي انشغالاً كبيراً، المهدئات القليلة التي أصفها لك هنا ستعيد إليك الكثير من راحتك».

استلمت الوصفة، وبينما رحت ألقي عليها نظرة كان يسألني:

- «كيف حال إدارة الفخار؟ أعتقد أنك لا تزال موظفاً لديها؟»

- «إدارة الفخار وشركتها.. أوه... مشاغل وهموم تبتلعك منذ أول النهار ولا تلفظك إلا في آخره، الواحد يشبه في أوقات خرطوشة مفرغة تلفظها بندقية ما، بعد أن تكون قد استنزفت بارودها».

- «يا للخيال الشاعري!.. مع أنك لم تعد ذلك الحالم الذي أذكر أنك كنت».

علق حضرته، وقمت للانصراف. استعجلت الانصراف على غير عاداتي، فقد كنت في بعض المرات السابقة أزور الدكتور مراد فنعود بذاكرتنا إلى أعوام مراهقتنا، حيث كانت صداقة السكنى في حي شعبي واحد تجمعنا فنسترجع ألواناً من طيش الصبا أيامها.

- ٢ -

أيام كثيرة تتابعت ولم تجد أقراص الطبيب في شيء. الحجر اللعين!.. أقصد الشعور بوجود حجر بحجم قبضة اليد في موضع ما من رأسي، كان يعاودني ساعة بعد أخرى.

- «جاك الهبال!» قالت لي مريم بكلمات سوقية مستغربة، عندما غالبت ترددي فغلبته، وحدثتها عن شعور الحجر اللعين. موقف مؤسف. كنت أتوقعه. فهي لا تكاد تنفض يديها من شغل حتى تتعلق بآخر! لا تريد نفسها إلا منشغلة كل الوقت. بكل أشياء العالم إلا بي، أنا، زوجها! يوماً تمنيت أن أكون شيئاً من الأشياء! اتفاقية إقليمية ما أو دخلاً سنوياً أو حتى أزمة نقدية عالمية!.. لعلها تكتشفني! غير أني انتبهت أن أمنيتي تلك كانت دون معنى. جاءت متأخرة عن أوانها. لقد أصبحت شيئاً بالفعل منذ زمن بعيد، لكن مريم زوجتي لم تستطع اكتشافي. منذ زمن بعيد أضحت هي الأخرى شيئاً. لذلك لم أفكر لحظة في عتابها.

- ٣ -

عاتبني السيد المدير هذه الصبيحة. فلقد أهملت للمرة الثانية النظر في ملفات عمل بالغة الأهمية سلمت إليّ قبل أسبوع. منذ أحد عشر عاماً أعمل في إدارة الفخار الصناعي، ولم يحدث ذلك مرة واحدة. لم أهمل عملي مرة. لم يعاتبني السيد المدير مرة. منذ أحد عشر عاماً أصل الإدارة

في الوقت. أغادر الإدارة في الوقت. موظف نموذجي. لا شيء يؤخذ على سلوكي المهني. استفدت من الترقية الوظيفية كرتين. السيد المدير يضع في ثقة استثنائية. وهذا الأسبوع حدث الإهمال. واليوم في الصبيحة عاتبني المدير. كل هذا بسبب الحجر اللعين.. أقصد... الله يلعن الشيطان الرجيم. لا يمكن أن أشرح للسيد المدير ذلك. ربما يذهب به الظن أنني أبرر الإهمال الذي حصل. لن تتعطل شركة ضخمة كشركة الفخار الصناعي؛ لأن حجراً بحجم قبضة اليد يوجد في موضع ما من جمجمة أحد مستشاريها التقنيين! ربما يرثي السيد المدير لحالي. قد يقول لي هذه مشكلتك أنت.. وهذا طبيعي. فخارج المصلحة المهنية لا توجد بيننا علاقات.

- ٤ -

«علاقاتي مع الجيران والأصدقاء عادية. الأمور طبيعية بيني وبين زوجتي. طفلانا كما يحب القلب والثالث عن قريب. والدتي الله يرحمها. والدي يربطني معه صلة متقطعة. ليست لي مشاكل في العمل. في الجملة لا توجد لدي هموم خاصة».

أجبت حضرة الطبيب النفساني المختص الذي لم يبق لي خيار في زيارته بعد الذي حدث أمس، في ساعة متأخرة من الليل. لم أكن قد نمت بعدُ كما بات شأني في كل ليلة، ومنذ أسابيع كنت أحاول جاهداً أن أتناسى الحجر، أن أجمع شتات ذهني لأتم قراءة الفصل الأخير من رواية حربية مترجمة.. الواقع أن صلتي بالروايات الحربية قديمة، فهي ترتد عندي إلى طموح طفولي غابر. فقد كان حلمي الصبياني أن أصبح قائداً عسكرياً عظيماً في سلاح البحرية. على أن طبيعتي الخجولة وصحتي المعتلة لم تكونا لتسعفا طموحي في شيء، لكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، فمطالعتي المستمرة هي التي خلقت لدي، في السنوات اللاحقة، حلماً جديداً وأكثر إصراراً في أن أكون كاتباً روائياً واسع الشهرة.. أعوام طويلة تفصل بيني وبين أحلامي ومطالعتي الصبيانية تلك.. من المفجع جداً أننا نكبر. نصبح واقعيين ككل الناس؛ لأن الدنيا واقع. كم هي بائسة الطفولة وأحلام الطفولة! لم يكن من مصلحتي أن أظل طفلاً، أصبحت رجلاً، راشداً كبيراً، واقعياً، ككل الناس. لكن هذا الحجر اللعين يختارني أنا، من بين كل الناس، ليربك رتابة حياتي. يهجرني النوم الليلة بعد الليلة. مريم متعبة على الدوام. الليلة بعد الليلة، ساعات الليل تتلاحق خرساء، يأكلني الضجر ألواناً ولا يشبع. خشبة أثرية عتيقة ذات زخرف ظاهر في هيكل ديني مهجور تنخرها بالتذاذ مفزع دابة الأرض على مدى قرون! لم أعلم أن الفراغ مرعب إلى هذه الدرجة.

«الروايات هي الحل!»، فكرت قبل أيام وسارعت إلى أشيائي الطفولية المركونة في موضع منسي من البيت، سحبت منها حقيبة رمادية قديمة، حرصت دائماً على الاحتفاظ بها بدافع من التقديس المبهم، وقد كنت أجمع فيها بعض حاجاتي وكتبي الأولى. هكذا وجدتني أعود إلى مطالعاتي القديمة. ثم حدث أمس في ساعة متأخرة من الليل أنني كنت أحاول جاهداً أن أتناسى الحجر. أن أجمع شتات ذهني لأتم قراءة الفصل الأخير من رواية حربية مترجمة. أخذتني إغفاءة، ربما طويلة، وربما قصيرة، لكني رأيت خلالها كابوساً مفجعاً كادت أنفاسي تنحبس له. نفس الكابوس الذي أفقت منه قبل شهرين، فأحسست بثقل غامض في رأسي. نفس الوقائع. كتلة جسدي تتحول تدريجياً وبشكل مبهم إلى طبيعة صخرية! أفزعتني ملامح وجهي وهي خلال ذلك تنمحي... تتلاشى ... سكنني حزن بدائي عميق، ورغبة صبيانية عنيفة في البكاء. فقد خطر لي أنني ابتداء من اللحظة ذاتها سأعيش بلا ملامح! غير أن فرحاً جنونياً ما لبث أن تملكني فجأة. في الكابوس المفجع اكتشفت خدعة الطبيعة الصخرية. اصطرعت مع نفسي بحدة. اعترضت بإصرار قاطع على إمكانية التحول «الطبيعة الصخرية لا تفكر، لا تشعر، لا تخاف، لا تحزن، لا تفرح - رحت أصرخ في الحلم وأجادل عن نفسي، الصخر لا يصاب بالجنون.. أما أنا فقد كنت أفكر في الذي يحدث، أشعر به، أخافه، أحزن له، وكنت أفرح بجنون إذ اكتشف خدعته». لكن تفكيري وشعوري وإحساساتي كلها لم تكن كافية وحدها.. أحبطها الصخر. استمر جسدي البائس يتصخر. اكتسح التحول رقبتي، أخذ يتقدم ليهزم كتفي، ويحتل شيئاً فشيئاً جبهة صدري.. تسارعت نبضات قلبي، انتبهت من الكابوس مذعوراً. مختنق الأنفاس. ضيق الصدر، كالذي يصعد في السماء. تحسست بارتباك بالغ ملامحي، رقبتي، كتفي، أطرافي كلها. لعنت الشيطان الرجيم. قرأت سورة الإخلاص. هدأت.

حدثت حضرة الطبيب النفساني المختص بأحلامي الغامضة وكابوسي المفجع. سألني أسئلة متفرقة وتقليدية حول أرقي، عملي، علاقاتي...

- «الإرهاق - أخذ حضرته يشرح لي - هو دائماً نتيجة عدم التعادل بين الجهد والراحة؛ لأن الذي يحدث عادة في هذه الحالة هو....»

لم أقاطعه مع معرفتي بالبقية. تركته يتحدث في حين ظللت أراقب حركة يديه. كان حضرة الطبيب النفساني يتكلم بينما يداه تعبثان بقلمه ذي اللون الذهبي الأنيق. يضعه في إحداهما، يضغط عليه بقوة للحظات حتى يوشك أن يكسره، ثم يلقيه إلى اليد الأخرى لتفعل به نفس ذلك. وهو يمضي في شروحه، لفتت انتباهي سحنة وجهه التي تجهد في أن تواري انقباضا ما. وتبين لي أن حضرة الطبيب النفساني المختص مرهق للغاية. لذلك قاطعته دون انتظار وبعفوية منفلتة:

«هل تعاني حضرتك من القلق؟! -».

- ٥ -

أقلق الحجر وقاري. ارتبكت، تغيرت، لم أعد أشبه نفسي. نفسي؟! هذا هو الجنون إذن، أن يختلف الإنسان عن نفسه. أن ينشق عنها. ثم ينساها في موضع ما... في حقيبة رمادية مثلاً!

هل يمكن لشيء كهذا أن يحدث؟! كم الساعة الآن؟ من الواضح أنني أصبت في عقلي... أوه عقلي! كم هو مضحك عقلي! هل جننت إذن؟ لابد أن أنام الآن على أية حال، فالمجانين ينامون أيضاً! شيء لا يحتمل، يأخذون منك عقلك ويعطونك بدله قطع الحلوى، ومهنة محترمة، ومكانة اجتماعية لائقة.. الحق معهم، فما الحاجة إلى هذا العقل إذا كان كل شيء جاهزاً؟! أية جدوى للعقل والعالم قد صنع نهائياً؟!.. ينبغي إذن أن تدس عقلك في التراب أو في أي موضع آخر.. في حقيبة رمادية قديمة مثلاً! لماذا لا أنام.. ربما يكون النوم شيئاً لا يخطر على بال المجانين!.. ها... أنا مجنون؟! كم تمنيت ألا أفكر بهذا الشكل الشاذ. أصبحت عاجزاً حتى عن الهروب إلى الروايات. اسمع! من الواجب أن يتكيف الفرد مع المجموع. المجموع! تعني اللصوص! أكرههم! لم يعد ثمة من شك، لقد جننت! كم أنا وحيد! مريم نامت. متعبة كالعادة. أكرهها هي أيضاً. وأكرهني أنا الآخر.

أنا؟! السيد، المحترم، الأنيق، الطيب، الوقور، المحبوب، الراشد، الإطار، المثقف، المضحك!... سأنام الآن؛ فمن الضروري أن أتهيأ صباحاً لفصل آخر من المسرحية اليومية! ماذا لو مثلت دور المجنون؟! لن أشغل العالم كله بهلوساتي وهمومي.

- ٦ -

اهتمت مريم، زوجتي، أخيراً لما يحدث لي. كان لابد. فقد انتبهت إلى كثرة أرقي في الأسابيع الأخيرة. وعلمت بزيارتي لصديقي مراد الطبيب العام، ثم زيارتي للطبيب النفساني المختص، والعقاقير التي عدت بها من عندهما. ولاحظت ملازمتي للبيت بعد أن أخذت إجازة استثنائية من العمل.. فجأة أهملت كل انشغالاتها وانشغلت بي، أنا، زوجها. زوجها منذ سبعة أعوام. لكن لقائي الأول بها يعود إلى ما قبل ذلك بسنين. بالتحديد إلى سنتي الجامعية الأولى والأخيرة. على أية حال، كنت طالباً بكلية الاقتصاد. مذاق الأشياء كان مختلفاً تماماً أيامها. لفتت مريم انتباهي في إحدى المشاغبات الطلابية الروتينية - بحماسها وتمردها وطبعها القيادي الثائر. خططت طويلاً - أذكر جيداً - لأقترب منها! قبل ذلك كان علي أن أقمع طبيعتي المفرطة في الخجل. من الطريف أنها صارحتني فيما بعد أن خجلي كان أحد الأشياء التي جذبتها إلي. امرأة ثورية ورجل خجول! ومع ذلك لم تتوقف صداقتنا، حتى عندما استجبت لبعض الإغراءات، فتركت الجامعة حتى قبل إتمامي العام الأول لألتحق بأحد معاهد التكوين المتخصصة. بينما ظلت هي ترعى طموحها في أن تتخرج في الاقتصاد.

أفضت أعوام الصداقة بيننا إلى زواج سعيد. لكننا معاً، ومنذ الشهور القليلة التي تلت زواجنا، تغيرنا كثيراً، أصبحت رجلاً واقعياً عادياً لا يجد متسعاً للحلم. ولم تعد مريم امرأة ثائرة. أصبحت مجرد متخرجة في الاقتصاد، ومن محاضرات الكلية في الاقتصاد الدولي. لأجل هذا فهي في الأغلب منشغلة عن تفاهات البيت.

- ٧ -

البيت! البيت الذي ظل لأعوام مجرد هندسة جدرانية باردة تجمعنا بين أنحائها أصبح شيئاً آخر منذ اليوم الذي أقلق فيه الحجر أمور حياتي. الواقع أنه أقلق حياتنا معاً. البارحة أخبرتني مريم بأمور محزنة للغاية. لم ننم طوال الليل. كنا نتحدث كأننا نلتقي لأول مرة. لم تكن حكاية حجري هي الأهم. فقد أخبرتني مريم أنها للمرة الثالثة في خلال فترة محاضراتها بالكلية يعلن الطلبة تمردهم ضدها وضد ما يسمونه أطروحات أيديولوجية بالية.. قالت لي مريم إنها لم تعد تفهم ما يحدث لها وما يحدث للعالم! وصارحتني مريم للمرة الأولى أن حيرة لا تقل عن حيرة شعور الحجر الذي في رأسي تربكها ليل نهار: «لا أستطيع أن أحدد مصيري بين الاستمرار في الاقتصاد الدولي أو التفرغ للأطفال وشغل البيت!»، بينما كنت أنصت إليها مدهوشاً. لم أكن أتوقع أن تكون مريم مهمومة بهذا الشكل. لقد كنت مشغولاً عنها كل الوقت!

وداعاً كَرَوان القَرارة

لمباركية نوار
باتنة ـ الجزائر

رُزئت الأسرة الثقافية في الجزائر، وفي المغرب العربي، بل الوطن العربي والإسلامي أجمع، في نهاية شهر نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٨م، بفقدان الشاعر الأديب الرقيق صالح الخرفي ـ رحمه الله ـ ومثلما عاش متوارياً عن الأضواء، فإنه استجاب لنداء ربه، وسار إلى عفوه في هدوء، ليدفن في القرارة مسقط رأسه، وهي مدينة من مدن وادي ميزاب السبع الواقعة في الجنوب الجزائري.

نشأت بيني وبين المرحوم صالح الخرفي علاقة تعارف ومودة، وأوضحها أكثر بقولي بأنها علاقة أديب متمكن من جهة، ومتعلم ما يزال شِمراخه أخضر لم يتصلب، وما يزال يبحث عن موارد أصيلة تثير في ذهنه حركية وخلخلة، من جهة أخرى. وأما تأريخ ترنّم شفتيّ باسمه أول مرة، فيعود إلى سنوات المراحل الأولى من مشوار تعليمي، أي في نهاية الستينيات وبداية التسعينيات، فيومها كنا نصادف في كتب القراءة والنصوص فقرات نثرية وباقات شعرية لأدباء وشعراء تكشف لنا مقتطفات سيرهم التي تعلو تلك النصوص بأنهم جزائريون.

واقع نرتشف معايبه

ولم أكن وقتها أصدق بأنه يوجد فعلا من الجزائريين من يقوى على تطويع الكلمات وسبك الجمل والأبيات، وتسويد بياض الورق بجميل العبارات، وتزيينه بكلام عذب ومقفّى! هكذا كنت أتمثل الأشياء في صغري، وكانت هذه بعض تصوراتي الأولية التي ما زلت أحن إليها لشدة براءتها ولطافتها. وأنا معذور في ذلك؛ لأنه صعب عليّ الانسلاخ حينئذ من واقع محيطي الاجتماعي الذي يعج بالأمية، والذي ارتشف من معايبها حتى الثّمالة. وكم كنت أعتقد بأن النثر والشعر العربيين هما وقف على المشارقة دون سواهم. وما زلت أذكر ـ ولعل ذلك حدث في المرحلة الابتدائية ـ يوم أن قرأنا نصاً في كتاب القراءة عنوانه: «كوخ العم رابح» لصاحبه عبدالله الركيبي الذي أظن أنه لم يكن حاصلاً على درجة الدكتوراه وقتئذ، وهو النص الذي وصف فيه أدوات سقف الكوخ الوضيعة المؤلفة من سيقان نبات الديس، وعيدان وأفرع العرعار (والأصواب العرعر)، ما زلت أذكر عظمة استغرابي، ورحت أتساءل في عفوية: كيف يكون هذا الأديب جزائرياً وأوراسيا تحديداً؟ وكيف أفلت من مخالب الأمية الجائحة؟؟.. إنه أمر استعصى عليّ هضمه!.. وعلى هذا المنوال كنت أنسج اعتقاداتي الصبيانية في صمت واجتنان، وتكرر أمر تخيلاتي مع شاعرنا الفقيد صالح الخرفي يوم أن درسنا قصيدته المعطرة بالنفح (النوفمبري) الفوّاح، والتي ألزمنا المعلم حفظها واستظهارها. ولو كنت أعلم يومها بأن العزيز صالح الخرفي قضى شوطاً من سنوات طفولته التعليمية المبكرة في مدينتي باتنة، لتراكمت في ذهني الطري أكوام أخرى من الاستغراب والتعجب!.. هذه توهّمات خاصة، أرغمني الموقف على استرجاعها، وحين أقوم بذلك، أشعر بلذة، وأكاد أحيطها بهالة من القدسية؛ لأنها مثار إعجاب وإجلال عندي، ولا أتوقع لها زوالاً؛ لكونها مدونة على صفحات الذاكرة كالنقوش الثابتة.

صالح الخرفي

تهادوا تحابوا

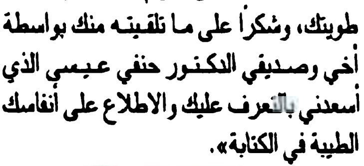
ودارت الأيام دورتها، ونشأت ـ كما ذكرت منذ حين ـ علاقات إخاء شاعت بالمثل والشمائل بيني وبين المرحوم صالح الخرفي، ففي شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٩٢م، قمت بزيارة إلى ولاية غرداية، بغرض المشاركة في ملتقى تربوي علمي رعته وزارة التربية الوطنية ومنظمة اليونيسيف، يدور حول مناهج التربية الصحية. واغتنمت الفرصة لزيارة بعض مدائن وادي ميزاب الأثيل، وهي غرداية وبني يزجن ومليكة

والعطف. واكتشفت بدائع سارة في العمران، وفي نظام الحياة الاجتماعية هزت كوامني في لطف من روعة بهجتها وجلالها، وعدت من تلك الرحلة الميمونة بذكريات طيبة. وفي مضمار سلسلة المواضيع التي أكتبها دوريا في مجلة «التراث»، والتي تصدرها جمعية: «التاريخ والتراث الأثري لولاية باتنة»، وهي المواضيع التي أنشرها تحت اسم ركن قار في المجلة المذكورة، وهو: «عادات وتقاليد جزائرية في ميزان العلم»، كتبت موضوعاً بعنوان كما يلي: «بعض مظاهر الحياة في مدن وادي ميزاب»، ومزجت في صلبه ـ كما هي العادة ـ بين التاريخ والتراث المادي وحقائق العلم وقوانينه. ولما صدر عدد المجلة بادرت بإرسال نسخة إلى أستاذي ومؤدبي الدكتور حنفي بن عيسى ـ الذي نسجت حول اسمه تصوراً أولياً في بداية اكتشافي له، لما قرأت في المدرسة الابتدائية قصته القصيرة التي أذكر منها هذه المقاطع «... ناوليني قبلة أخرى، يا زهور،،، ناوليني» ـ وأطلع بدوره صديقه المرحوم صالح الخرفي على الموضوع محل الحديث.. وما لبث أن وصلني خطاب موجب للتقدير من قبل أستاذي الدكتور حنفي بن عيسى، وهو الخطاب الذي يقول في شطر منه: ...«وصلني العدد السادس من مجلة «التراث»، وقد أطلعت الدكتور صالح خرفي على مقالك الذي عنوانه «بعض مظاهر الحياة في مدن وادي ميزاب» واستنسخته له، ويرجو منك أن تزوده بالحلقات الثلاث الأولى، وقد وعد أن يرسل إليك نسخة من كتابه «من أعماق الصحراء».

لم أتوان في تلبية ذلك الطلب عن طريق أستاذي الدكتور حنفي بن عيسى، وأردفت ذلك بكلمة إهداء في ورقة مستقلة، وربما سقت فيها بعض عبارات التقدير والامتنان للدكتور صالح الخرفي تثميناً لانحنائه. وكان ـ رحمة الله عليه ـ صائناً لوعده، فلم تمض أيام قلائل حتى وصلتني نسخة من كتابه «من أعماق الصحراء» بريدياً، وهو كتاب فيه من الشعر والتاريخ والذكريات الجميلة الشيء الكثير، وجوفه مملوء بالصور والهوامش المفصلة. وطرز أعلى صفحته الأولى بإهداء لطيف يقول فيه: «إلى الأخ الأستاذ... تقديراً للفتة كريمة إلى مظاهر الحياة في مدن وادي ميزاب، مع تمنياتي القلبية بمزيد من العطاء الفكري الأصيل. تونس ١٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٩٤م». وكان تبادل هاتين الهديتين طلائع خيوط المودة بيننا، وقد قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم: «تهادوا تحابوا».

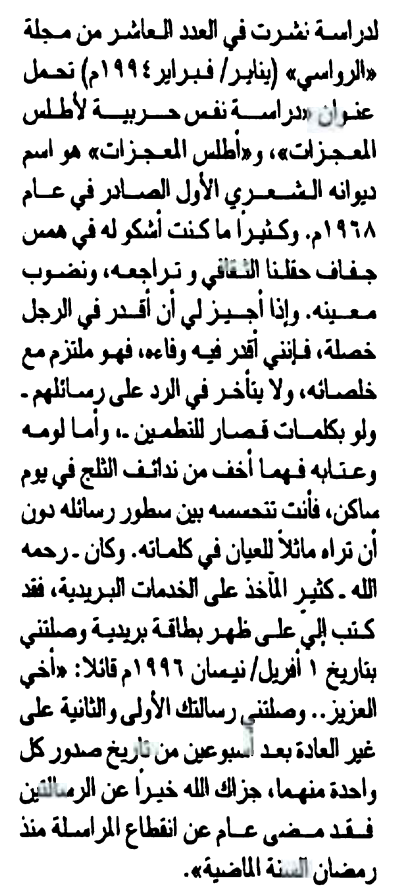

الخرفي في شبابه

وبيدو أن الرزمة التي تحوي إضبارة مجلة «التراث» والمظروف الحاوي لكتابه ـ رحمه الله ـ قد تقاطعا في الطريق، فلم ينقض فاصل زمني طويل عن حلول إرساله الأول حتى جاءتني رسالة زكية تحمل توقيعه، وهي الرسالة التي أقتطف منها هذه السطور: «شكراً جزيلاً على رسالتك الأولى وما تضمنت من كريم الثناء وحسن الظن، وهما نابعان من كريم خلقك، وصفاء طويتك، وشكراً على ما تلقيته منك بواسطة أخي وصديقي الدكتور حنفي عيسى الذي أسعدني بالتعرف عليك والاطلاع على أنفاسك الطيبة في الكتابة».



رسائل متبادلة

وتواصلت رحلات صحائف البريد بيني وبينه ـ رحمه الله ـ متسارعة أحياناً، ومتثاقلة أحايين أخرى، خاضعة في سرعتها لعاملي الوقت والظروف. وكنت أستغل رسائلي لألخص له جوانب من المشهد الثقافي في الجزائر، كما أمده بمنسوخات عن المواضيع التي تنشر في الجرائد والمجلات، وتستقطب اهتمامي، وخاصة ما كان منها أدبيا أو تاريخيا؛ ومن ذلك أنني أرسلت له مستنسخاً لدراسة نشرت في العدد العاشر من مجلة «الرواسي» (يناير/ فبراير ١٩٩٤م) تحمل عنوان «دراسة نفس حربية لأطلس المعجزات»، و«أطلس المعجزات» هو اسم ديوانه الشعري الأول الصادر في عام ١٩٦٨م. وكثيراً ما كنت أشكو له في همس جفاف حقلنا الثقافي و تراجعه، ونضوب معينه. وإذا أجيز لي أن أقدر في الرجل خصلة، فإنني أقدر فيه وفاءه، فهو ملتزم مع خلصائه، ولا يتأخر في الرد على رسائلهم ـ ولو بكلمات قصار للتطمين ـ. وأما لومه وعتابه فهما أخف من ندائف الثلج في يوم ساكن، فأنت تتحسسه بين سطور رسائله دون أن تراه ماثلاً للعيان في كلماته. وكان ـ رحمه الله ـ كثير المآخذ على الخدمات البريدية، فقد كتب إلي على ظهر بطاقة بريدية وصلتني بتاريخ ١ أفريل/ نيسان ١٩٩٦م قائلا: «أخي العزيز.. وصلتني رسالتك الأولى والثانية على غير العادة بعد أسبوعين من تاريخ صدور كل واحدة منهما، جزاك الله خيراً عن الرسالتين فقد مضى عام عن انقطاع المراسلة منذ رمضان السنة الماضية».



وهل ثمة وفاء من قبيل هذا الوفاء الذي يتابع باهتمام حتى تواريخ انقطاع الرسائل؟؟ ودعني أتوقف لحظة عند هذه البطاقة الرائعة، والتي تصور شاطئاً من شواطئ مدينة الحمامات التونسية، وعلى صفحتها تعاشر لون مياه البحر بزرقتها المسترقة للنظر مع بياض المساكن القزمة وخضرة الأشجار الباسقة، لتؤلف تشكيلة لونية غاية في الجمال والبهاء. ويدل اختيارها على رفعة الذوق الجمالي، وسمو نبض العواطف عند الفقيد العزيز صالح الخرفي. وأشير إلى أن هذه الرسالة، هي الرسالة الوحيدة التي نسي كتابة تاريخ صدورها.

ولما نشرت مجلة «العربي» الكويتية في عددها ٤٤٥ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٥م استطلاعاً مصوراً عن وادي ميزاب، موسوماً بـ «وادي ميزاب.. تراث جزائري حي»، ووقع كاتبه، وهو الدكتور محمد منسي قنديل،

في أخطاء وأغلاط وتحويرات وأوشاب لا يجوز أن تغفل العين والعقل عنها، كتبت رداً تعقيبياً دعمته بالحجج والقرائن، وأرسلته إلى المجلة المعنية. ووافيت الدكتور صالح الخرفي بنسخة منه، وجاءني الرد على البطاقة «الشعرية» السابقة نفسها يقول: «أحيي نفسك الكريم في المنافحة عن الحق في وادي ميزاب، وما ذلك إلا لأصالة معدنك وصفاء طويتك والحكمة ضالة المؤمن».

التسامح وفعالية النفس

انكببت في نهاية عام ١٩٩٤م على قراءة كتاب غرّني عنوانه، كتبه جامعي جزائري وتعمد تذييله بمقطع من سيرته الذاتية غطت نصيباً لا يستهان به من صفحاته، وفي إحداها وجدته يكيل صنوفاً من ألوان السباب والقذف لشخص المرحوم صالح الخرفي، ويقول عنه كلاماً لا يليق بدرجة هذا «الكاتب» العلمية. فتأثرت للأمر، ووقفت متردداً بين إعلام المرحوم صالح الخرفي أو الإعراض عن الموضوع تماماً خشية أن أكون سبباً في عاقبة غير محمودة، وبعد تفكير مترو، اقتنعت أن أحدثه تلميحاً عن القضية. وكانت وشائج الاحترام العميق التي أكنها له، ولكل المثقفين الطيبين قد منعتني ونهرتني عن التفصيل. وبعد إعلامه وطلب رأيه في مكاشفته بذلك المضمون الرديء، استعجلني وأتحفني ببطاقة عطرية لا تقل صورتها جمالاً عن سابقتها، وكتب في بطونها يقول: «... شكري لك وتقديري لاهتمامك بما يكتب عن أخيك، حماك الله من ألسنة السوء، وأبقاك للذكر الطيب، والأثر المشكور. أما... فدعك منه فهو كتلة من عقد نفسية، ولا ينضح إلا بما في إنائه، ولم يسلم أحد من سلاطة لسانه. ولست أدري إن ذكر أحداً بخير في صفحاته مادام العنوان يحمل... ولعل الأغرب أن يذكرني بخير. لست في حاجة إلى الاطلاع على ما كتب لا من باب التعالي عن المعرفة، ولو كانت عن النفس، ولكن تيمناً بقوله تعالى: *وإذا مرُّوا باللغو مرّوا كراماً*. الفرقان: ٧٢. أو قوله: *وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً*. الفرقان: ٦٣.

الأخ الكريم، نحن على عتبة شهر كريم. وربما قرأت بطاقتي وأنت صائم فدعنا نطلب المغفرة من الله لمن أساء إلينا، ونرجو منه تعالى أن يقينا من الإساءة إلى أحد من عباده. فحرام من المسلم على المسلم دمه وماله وعرضه. وما محنة الجزائر - فك الله إسارها - إلا نتيجة الأحقاد والضغائن. *يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم*. الشعراء: ٨٨.

الرسالة الأخيرة

ولقد تعمدت الاستطراد في الاقتباس الفارط بقصد إبراز دماثة خلق فقيدنا، فهو رجل مسالم ومجبول على فعالية النفس والتسامح، وهاتان درجتان من الخلق الفاضل صعبتا المنال. وأذكر أنني أرسلت إليه خطاباً مباشرة بعد استلام رده عبرت له فيه عن نبل روحه، وانحيازه إلى الصفح الحميد، وسجلت له استفادتي الروحية من موقفه المنسجم مع مبادئ الإسلام الحنيف.

لا أذكر الآن، متى واصلته بآخر رسالة؟ وإنما ما زال طيف شريط الذاكرة البصرية يسترجع لون ورقتها الخضراء. وقد أجاب عنها الفقيد الغالي بجواب وصلني يوم ١٩مايو/ أيار ١٩٩٨م، واكتفى بإرسال صورة مستنسخة لإحدى صفحات جريدة «الصباح» التونسية التي وزّع عددها في يوم الجمعة ١٧ أبريل/نيسان ١٩٩٨م. وأرجئ الحديث عن مضمون هذه الصفحة إلى حين. وفي الركن العلوي الأيسر دوّن سطوراً قليلة تقول: «الأخ الكريم.. سلام الله ورحمته. وصلتني رسالتك بعد شهر كامل من تاريخها صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. هنيئاً لكم الحديث عن محنة الثقافة! وفي محنة الجزائر الدامية!! إنه لهو الحديث. هلا تحدثتم عن الجاهلية الجهلاء! والوثنية العمياء. ووأد البنات واغتصاب المحصنات! أدركنا الله بالرسالة المحمدية، تخرجنا من الظلمات إلى النور - تحياتي ٣٠/٤/١٩٩٨م».

ولم أكن يوماً أعرف أن هذه الكلمات هي آخر الكلمات التي يخصني بها الأخ العزيز صالح الخرفي. ولما أدرت وجه الظرف البريدي، وجدته قد خط عليه استدراكاً يصحح به هفوة يقول فحواه: «معذرة. فما تبينت الصفحة خضراء إلا بعد إغلاق الظرف. ولعلها نظرتي إلى الجزائر بعين البصيرة لا البصر:

توسمت في الأجواء ريح تحرر
فألفيتها (صفراء) تحصدها حصدا

ومثلما تعرفت إلى الشاعر صالح الخرفي في بداية عهد تتلمذي عن طريق الشعر، فإنه ودعني ببيت شعري وداعاً أبدياً، قد يتساءل الدارسون والنقاد، مستقبلاً عن مناسبة قوله؟



عبد الحميد بن باديس — عبد العزيز الثعالبي

تراث الأمة بمنهج حداثي

وأدلف، الآن، راجعاً إلى صفحة جريدة «الصباح» المرسلة إليّ. فقد حوت تقديماً لأحد كتبه، ولعله الأخير في مشوار عطائه. وجاء هذا التقديم الذي كتبه محمد بن رجب مملوءاً بالإطراء والإشادة بجهود صاحب الكتاب. ومن هذا التقديم نختلس الفقرات التالية: «الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته صلى الله عليه وسلم» وهذا هو عنوان كتاب جديد صدر هذه الأيام في بيروت عن دار ابن كثير بين دمشق وبيروت، جاء في طبعة أنيقة ويضم ٧٧٠ صفحة من الحجم الكبير كتبه الشيخ عبدالعزيز الثعالبي، مؤسس الحزب

الحـر الدسـتـوري التـونسي في بداية العشرينيات، وأحد أهم المدافعين عن العروبة والإسلام في هذا القرن، أما محققه فهو الدكتور صالح الخرفي من أبناء الزيتونة..

ولم يكن هذا الكتاب عند صالح الخرفي على طريقة «التحقيقات» التي تظهر من حين لآخر هنا وهناك في البلاد العربية، فقد تساهل الكثير من المحققين مع أنفسهم إلى درجة عجيبة، فما يهمهم هو إصدار كتاب وتثبيت أسمائهم عليه..

أما صالح الخرفي فقد أرهق نفسه في البحث عن المخطوط، وتبيان تأريخه، وأسباب تأليفه، وأسباب عدم ظهوره في الإبان، مع البحث في المؤلفات التي صدرت عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم في القديم، وفي

سعى الخرفي إلى محاولة إحياء لحمة الترابط بين شعوب المغرب العربي بعد أن نالت منها عوادي الدهر وتقلبات الزمان وأحقاد المستدمر

الفترة التي عاشها المفكر الشيخ عبدالعزيز الثعالبي، وفي الحديث أيضاً.. كما أن صالح الخرفي توغل في الكتاب صفحة صفحة شارحاً، موضحاً ومعلقاً. وهو - لعمري - عمل كبير لا يقدر عليه إلا الراسخة أقدامهم في البحوث الأدبية والعلمية.

وأعلمنا صالح الخرفي أن المخطوطة التي عثر عليها للثعالبي لم يجد عليها عنوانا وهو الذي اختار لها اسم «الرسالة المحمدية». وجاءت بلا أبواب ولا فصول، فوضع في الكتاب الذي نحن بصدده الأبواب والفصول...».

ومثلما أراد صالح الخرفي أن يبعث إلى الوجود تراث الأمة بمنهج حداثي، لمّا كلف نفسه متاعب إنجاز هذا العمل الضخم، فإنه سعى إلى محاولة إحياء لحمة الترابط بين شعوب المغرب العربي بعد أن نالت منها عوادي الدهر وتقلبات الزمان وأحقاد المستدمر. ومثلما يقول هو نفسه عن عرا الترابط بين أبناء المغرب العربي في كتابه «من أعماق الصحراء» : «... وقد حفظ التاريخ دعمهم للحزب الحر الدستوري التونسي في أول العهد بتأسيسه عام ١٩١٩م، ووقوفهم إلى جانب الزعيم عبدالعزيز الثعالبي.. ويكفي أن المناضل الشيخ صالح بن يحيى كان هو أمين مال الحزب.. كما أن الشيخ أبا إسحاق أطفيش كان من مؤسسي هذا الحزب وعضوا في لجنته المركزية...» (ص٤٨). وللعلم، فإن إبراهيم أطفيش هو ابن أخي القطب محمد بن يوسف أطفيش، وأما الشيخ صالح بن يحيى فهو عم الشاعر مفدي زكريا، رحمهم الله جميعاً. وللتاريخ نسجل بأن أواصر المودة والتآخي كانت متينة بين المصلحين عبدالحميد بن باديس وعبدالعزيز الثعالبي، فلما عاد الشيخ عبدالعزيز الثعالبي من منفاه عام ١٩٣٧م نشرت مجلة «الشهاب» صورة ضمت الشيخ عبد الحميد بن باديس والزعيم التونسي عبدالعزيز الثعالبي، وأرفقتها بمقطوعة شعرية للشاعر محمد العيد آل خليفة، وهي المقطوعة التي يقول في جزء منها:

هذا مثال التآخي
يا حسنه من مثال
رسم الزعيمين فيه
رمز اتحاد الشمال
كلاهما اليوم ركنٌ
وموئل للهلال

ولئن كان تحقيق كتاب الشيخ عبدالعزيز الثعالبي هو آخر أعمال الشاعر صالح الخرفي العلمية، فهو مسك وريحان... والأعمال بخواتيمها.

لم يكن الشاعر صالح الخرفي يتخير الألفاظ في كتابة رسائله، ولا ينبغي أن تدهش أو تذهل لهذا الأمر، ذلك لأن أصحاب النفوس العظيمة لا يرون الجمال، ولا يصادفون الراحة إلا في ما هو بسيط وسهل ومجانب للتعقيد. وأما وضعه لعلامات الترقيم، وزرعها بين سطور رسائله، فكان يستهويني على الرغم من أنها كثيراً ما تكون معاكسة للقواعد المتعارف عليها، ولا أريد لهذه الملاحظة العابرة، والتي لا تعدو أن تكون مجرد انطباع أملس، أن تنال من جلائل صالح الخرفي، أو أن تخدش رونقها وبهاءها، أو أن تقدح في عفة قيمتها.

كان المرحوم صالح الخرفي، في نظري، مثالاً إنسانياً مُشبعاً بروعة البساطة، وسمو المثل، وجلال التواضع، وسداد التفكير. ولقد عاش بأخلاقه لأخلاقه كالناسك الملهم والموهوب في محاريب الأدب والعلم، وفي أحراش الشعر، مرهف الأحاسيس، صادق الوعي، ناعم المعاشرة، وعفّ الضمير. ومن الجائز أن يكون ثقل الساعات اليومية التي كان يقضيها في البحث والتحصيل والإنتاج هو السبب الرائد في إصابته المرضية، فحسب ما ترامى إلي من أنباء، فإن نهاره يبدأ بسويعات قبل الفجر، ويستمر إلى وقت متأخر من المساء.. فأية آلة قلبية تتحمل مثل هذا الإجهاد، وعلى مدار سنوات؟ ولما حلّت ساعة لقاء الباري جل شأنه، فُضل له أن تكون أرض القرارة الطيبة منتجعه ومستراحه الأبدي، ليعود طائر الكَروان المغرد إلى مدارج طفولته، ومنبت عزه.. وكان لابد من صنعاء وإن طال السفر.. والقرارة في الأرض هي المطمئن المستقر يندفع إليها الماء فيستقر فيها، وهي من مكارم الأرض كما يقول صاحب اللسان. وقد توفي في ٢٣نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٨م في حدود الساعة السابعة والنصف مساء بمستشفى درقانة بتونس العاصمة، غريباً وبعيداً عن ألفة الأهل وحنان الديار، ووُوري في التراب يوم ٢٧ نوفمبر/تشرين الثاني١٩٩٨م. ولحقت به والدته الجليلة السيدة لالة بنت الحاج بكير الشيخ بلحاج بعد ظهر يوم ١١ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٨م.

كنت أتمنى أن ألتقي الشاعر العزيز صالح الخرفي في القرارة كما كان يتمنى هو الآخر، لأجالسه وأحادثه.. ولكن كل شيء بأمر الله مقسوم ومقدر.

سعادة لا نهائية:

بورخيس يشرع أبواب المكتبة الكونية

ألبرتو مانجويل

ترجمة: فائز أبًا

أبها - السعودية

ربما تبدو أعمال خورخي لويس بورخيس المدركة والمتجسدة محبطة ومثبطة لعزيمة قارئها بسبب كثرة الاستشهادات التي ترد في ثناياها، والأسماء الغامضة والشهيرة - وكثير منها أسطوري، وكذلك بسبب الموضوعات العويصة المبهمة. ولكن تراثه - فيما أعتقد - قد يكمن في الطريقة الرفاقية الاصطحابية التي يتعاطى بها الأدب أكثر من كتاباته ذات المعرفة الواسعة واللانهائية.

كان بورخيس، مثلما صرّح مراراً، قارئاً أكثر منه كاتباً، وهو شخص لا يكتفي بسرد الأقاصيص، بل يحورها من خلال إدراكه.

وفي الزمن الذي تصرّ فيه وسائل الإعلام الإلكترونية على قيمة السرعة وتفضيلها على العمق، وبينما يجري تأكيد التواصل الفوري، بإزاء الغض من قيمة التأمل الماضوي، يذكرنا بورخيس أن صنعة القراءة هي مهنة البطء والسعادة اللانهائية، وأنها انشغال خالد يتجاوز النفع المباشر والمسوغات العملية كما لا يؤثر فيه الولاء لأية نظرية.

« لا أدري بالضبط لماذا أعتقد أن الكتاب يمثل فرصة لاحتمالات السعادة»، **هكذا اعترف ذات مرة.**



بورخيس

ولكنني ممتن حقًا لتلك المعجزة الصغيرة.

كان بورخيس يعتقد أن واجبنا الأخلاقي يقتضي أن نكون سعداء، وقبل موته أضاف: «وأن نكون عادلين». وبالاسترشاد بمثاله صار قراؤه يحسون أن من حقهم أن يسترشدوا بالمتعة هادياً لا بالواجب فقط.

ويلاحظ أدولفو بيوي كاسيرز وهو أكثر الناس معرفة ببورخيس - أنه لم يستسلم يوماً للتقاليد والآراء الجاهزة المستقرة، ولم يكن كسولاً ولا متراخياً.

كان قارئاً عشوائياً يرضي أحياناً بمجرد تلخيصات للحبكات، أو بمواد دوائر المعارف المختزلة. وهو - مثلاً - يعترف - على الرغم من عدم إنهائه **لرائعة جويس: «صحوة فينيجان» - بأنه**

حاضر بسعادة عن التجديدات اللغوية في تحفة جويس تلك.

ولقد أتاحت له ذاكرته الهائلة أن يربط قصائد طال نسيانها بنصوص أكثر مألوفية وشهرة، وأتاحت له أيضاً أن يستمتع بكتابات معينة بسبب كونها مفردة محددة، أو بسبب موسيقاها اللغوية. كان بورخيس يقول: إنه معجب بسطر عادي للكاتب الأرجنتيني مانويل بيارو، الذي نسيته الذاكرة، لأنه يذكر كالي نيكاراجوا، وهو شارع قريب من المكان الذي ولد فيه بورخيس، مثلما كان يستمتع بتلاوة أربعة أبيات من قصيدة لروبن داريو لأن موسيقاها كانت تبكيه.


بورخيس الطفل

ولم يكن بورخيس يترفع عن ميلودراما (المشجاة) الإثارة؛ ففي معبد أنجلو سكسوني قرب ليشفيلد قام مرة بتلاوة أدعية قال: إنه قصد بها إحداث مفاجأة صغيرة.

محاكاة كيبلينج

ولقد جدد بورخيس اللغة الإسبانية لنفسه؛ لأن الكتاب الإسبان ظلوا مترددين منذ القرن السابع عشر بين قطبين لغويين هما: الأسلوب الباروكي لجونجورا، وصرامة أسلوب كويفيدو. أما بورخيس فقد ابتداع لنفسه قاموساً لفظياً ثرياً متعدد المستويات، يمتاز بمفرداته من جهة، ومن جهة أخرى بشاعرية جديدة وبتجريد يصل مستوى الهيكل المعروق، علاوة على بساطة السطوح الخادعة.

وهو الأسلوب الذي حاول به - كما صرح بذلك لاحقاً - محاكاة أسلوب رديارد كيبلينج في شبابه، وتحديداً حين كتب «حكايات بسيطة من التلال». ويوشك أن يكون كل المؤلفين باللغة الإسبانية ممن لهم أهمية في القرن العشرين مدينين لبورخيس. ويكاد صدى صوته يتردد في أعمال كل الكتاب لدرجة جعلت الشاعر الأرجنتيني مانويل موجيكا لاينز يكتب رباعية يقرر فيها مخاطباً كاتباً شاباً:

أن من غير المجدي لك أن تستولد
أيما فكرة تفضي إلى تقدم
فحتى لو كتبت كماً هائلاً من السطور
سيكون بورخيس قد سبقك إليها.

عشق المحادثة والحوار

ولقد نبع أسلوب بورخيس ولغته من الحوار، من العادة الحضارية، وهي الجلوس إلى طاولة في المقهى والتحاور ومناقشة الأسئلة الكونية أو في أثناء تناول الغداء مع الأصدقاء بكثير من الطبيعية والأصالة.

فالقصيدة - الملحمة - الأرجنتينية الشهيرة: «مارتن فييرو» من أدب القرن التاسع عشر، قصيدة مبارزة مغناة بين بطل متحد وواحد من ألج وشو تخوض في موضوعات فلسفية. والمشهد في القصيدة ليس متجانساً، ولكنها تعكس ميلاً وطنياً للمحاورة، أو لوضع الحياة وصوغها في كلمات. وفي مجتمعات أخرى قد تبدو مناقشة الشؤون الغيبية (الميتافيزيقية) خلال تناول القهوة أمراً يشي بالافتعال أو السخف، ولكن الأمر ليس كذلك في الأرجنتين.

وكان بورخيس يعشق المحادثة، ويلجأ دائماً إلى اختيار طعام محدد يسميه هو الأرز الأبيض والباستا، لكي لا يشغله الأكل عن الكلام.

وكان يعتقد أن أي تجربة خاضها إنسان ما فإن بوسع أي إنسان غيره أن يخوضها، ولم يدهش حتى وجد بين حلقة أصدقاء والده كاتباً توصل بمفرده إلى إعادة اكتشاف أفكار أفلاطون وغيره من الفلاسفة؛ فقد كان ميسيدونيو فيرنانديز يكتب نزراً ويقرأ قليلاً، ولكنه كان يفكر كثيراً، ويتحاور ببراعة وذكاء. وقد صار بالنسبة إلى بورخيس التجسيد الحي للفكر الخالص. كان رجلاً يخوض في حوارات طويلة في المقاهي، ويحاول إثارة الأسئلة، والإجابة عن أسئلة غيبية (ميتافيزيقية) عن الوجود والزمن والواقع، وهي القضايا التي سينسبها بورخيس إلى نفسه في كتاباته اللاحقة كتاباً إثر كتاب.

وبالنسبة إلى بورخيس فإن جوهر الواقع كان يكمن في الكتب: في قراءة الكتب وكتابتها والحديث عنها. وكان واعياً لاستكمال حوار بدأ قبل آلاف السنوات وفي يقينه أنه لن ينتهي؛ لأن الكتب تستعيد الماضي.

صوت فردي وهوية جماعية

كان الصوت الأدبي بالنسبة إلى بورخيس صوتاً فردياً على الدوام، لا صوتاً جماعياً ولا وطنياً، ومع ذلك فقد ابتدع بذلك الصوت هوية جماعية للمدينة التي ولد فيها.. من الثراء الباروكي لأحد كتبه الباكرة «إيفارستو كارييجو»، إلى النغمات غير الكونية. في قصص مثل «الموت والبوصلة» و«الرجل الميت» وغيرهما بنى لبيونس أيرس أسطورة صارت المدينة الآن نعرف بها.

وحين بدأ بورخيس الكتابة كانت بيونس آيرس - البعيدة جداً عن أوربا المركز الثقافي - غامضة ومجهولة، وبدت بحاجة إلى مخيلة أدبية لتفرضها على العالم الواقعي.

ويستدني بورخيس من الذاكرة أن الكاتب المنسي الآن أناتول فرانس حين زار بيونس آيرس في العشرينيات جعل وجودها يصبح أكثر حقيقية، لا لشيء إلا أن الكاتب الكبير علم بوجودها.

والآن تبدو بيونس آيرس أكثر حقيقية وواقعية؛ لأنها موجودة في الصفحات التي كتبها بورخيس.. وهي موجودة، وفق ما يمنح بورخيس قراءه، في أحياء مثل باليرمو حيث كان منزل عائلته وراء سياج الحديقة وقضبانها.

في ذلك الإطار نسج بورخيس قصصه وقصائده عن الأشرار من أبناء الجوار الذين كان يرى فيهم محاربين ذوي حياة وضيعة، وعن الشعراء الذين كان يسمع، في نمط حياتهم العنيف، أصداء متواضعة للإلياذة، وحكايات ملاحم الفايكنغ.

مدينة بيونس أيرس البورخيسية هي أيضاً مركز ميتافيزيقي للعالم.. وهي تقع في الدرجة من السلم التاسع عشر في الطريق إلى القبو، في منزل بياتريز فايتربو، إذ يمكن رؤية الألف، النقطة/البؤرة التي يتمحور فيها الكون بأسره، وتغدو المكتبة الوطنية في كالي/مكسيكو مكتبة بابل.. أما النمر الذي في حديقة حيوان المدينة «بيونس آيرس» فهو الرمز الذي ينتصب شامخاً ليذكر الكاتب بالكمال الممنوع عليه بلوغه.

أما المرايا الكالحة التي في المنازل العتيقة في باليرمو بورخيس، والأثاث الصقيل فإنها تهدد القارئ الذي يحدق فيها بأنها ستعكس يوماً وجهاً لن يكون وجهه هو.

باليرمو نهضت ممثلة لبيونس آيرس، والأخيرة رمز للكون، ومن هذه المدينة الغامضة النائية بدا أن بورخيس قد فتح أبواب المكتبة الكونية حيث وجدت، وتخلقت فجأة لغزو عظمة الكلمة المكتوبة.. مبذولة للعموم لكي يأخذوها.

مذاق بورخيسي

وفي نص عمومي نشرت أول نسخة عام ١٩٥٢م كتب بورخيس أن كل كاتب يخلق أسلافه. ويمثل هذا المنطق المتمثل في هذه العبارة تبنّي بورخيس عدداً من الكتّاب صاروا الآن بورخيسيين حتى من قبل أن توجد البورخيسية: أفلاطون ونوفاليس وكافكا وشوبنهاور وريمي دي جورمن، وتشسترتون.



بورخيس الشاب

بل إن الكتّاب الكلاسيكيين الذين صاروا كلاسيكيين داخل الأطر الكلاسيكية ذاتها، تحولوا إلى بورخيسيين مثلما تحول سرفانتيس في «قراءات بورخيسية» بعد أن كتب بورخيس بيير مينار.

وبالنسبة إلى قارئ بورخيس تحول الكتّاب الذين يظن أنهم بعيدون عن احتمال أن ينسبهم أحد مهما كان إلى عالمه، أمثال شكسبير ودانتي، إلى كتّاب لهم أحياناً مذاق بورخيسي مميز.

فهناك مثلاً المقطع الشعري من مسرحية «العين بالعين أو واحدة بواحدة Measure for Measure» عن كون الإنسان الشخصية: لا يعي الفناء وهو بالضرورة فان. وكذلك الشعر الذي يردد في المقطع الخامس من المطهر والذي يصف بونوكونتي Pugendo a Pede e Sanguinandu it piano هذه اللمحات الشعرية تنتهي حتماً إلى يدي بورخيس.

إن المنحى الكريم المتسامح الذي يتشاطره بورخيس مع مونتين Montaigne وسير توماس براون، ولورانس ستيرن هو الذي يفسر ظهوره في أعمال كثيرة متناثرة يجمع بينها الآن قاسم مشترك هو ظهور بورخيس، ومنها: السطور الأولى من كتاب ميشيل فوكو الكلمات والأشياء: Les Mots et les choses والتي تقتبس دائرة معارف صينية شهيرة - تخيلها بورخيس - تُقسم فيها الحيوانات إلى عدة طوائف غير متجانسة مثل «تلك التي يملكها الإمبراطور»، وتلك التي حين ينظر إليها من بعد، تشبه البعوض.

وهناك شخصية الأعمى وأمين المكتبة المجرم الذي يسكن كروح شريرة في أروقة المكتبة الكنسية باسم خوان دي بيرجوسي؛ وذلك في رواية أمبرتو إيكو اسم الوردة.

وهناك الإحالة أو الاقتباس الرائع الذي يتعارض إعجاباً واستنارة ببورخيس في طبعة عام ١٩٣٢م من نص مترجم الليالي العربية إشارة إلى ألف ليلة وليلة في كتاب جورج شتاينر الـ....

وهناك أيضاً السطور الأخيرة من مقالة «رفض جديد للزمن» والتي تنطق بها الآلة المحتضرة في فيلم المخرج الفرنسي جان لوك غودار «ألفا فيل».

ثم ملامح بورخيس مختلطة بملامح

ميك جاجر في اللقطات الأخيرة في فيلم نيكولاس ريدج، ودونا لد كامبل الذي صور عام ١٩٦٨م، وفشل مشروعه، وذلك اللقاء مع الرجل الممن الحكيم لبروس شاتوين في «باتاجونيا»، وفي عمل نيكولاس راتلين «صدر الرجل الميت».

وقد أوضح مايكل ماكسين في صورة «بور تريه» جميلة لبورخيس نشرت في عام ١٩٦٤م أن هناك أوقاتاً أو أزمنة في التاريخ تقع بعد حدوث قدر من التقدم، وحينها يكون مجموع المعرفة المكتسبة فائضاً أو ...

ويظهر بعض الفنانين المثقفين ليخففوا الجهامة والقتامة من خلال مزية خاصة تتعلق بالمرح، وبقدرة خاصة على السرد ورواية الحكايات.

ويرى ماكسين أن بورخيس واحدٌ من هؤلاء الكتاب المعنيين، ويضرب أمثلة بآخرين هم: رباليـيه، وجاري، وإلى هؤلاء أحسبُ أننا نستطيع أن نضيف أسماء فولتير، وديدرو، والدكتور جونسون، وهم جميعاً يمنحون رؤى جديدة نطل منها على المدى الرحب واللاحب للأدب في الكون. ومن المفارقات أن هؤلاء الكتاب باستثناء جاري - الذي لم يكن بورخيس يأبه له كثيراً - جميعاً من المحافظين، ولم يكن أي واحد منهم ثورياً.. «لست أدري إلى أي مدى يمكن للكاتب أن يكون ثورياً»!!

هكذا قال ذات مرة مضيفاً أن أداة الكاتب هي اللغة، وهي تنوء بأحمال التقاليد.

كانت ذاكرة بورخيس فيما يبدو تحوي عدداً لا ينتهي من الكتب، ولكن مكتبته المادية كانت - ككل المكتبات الممتازة - صغيرة وانتقائية إلى درجة محيرة.

كتّاب كان يكرههم

كان يكره بروست، وراسين، وفرويد، وبلزاك، ولويز دي فيجا، وستاندال، وجوته، وموباسان، وأنثوني ترولوب، وفدريكو جارسيا لوركا.. كل هؤلاء كانوا غائبين عن مكتبته.

كان يستمتع بالاقتباس من مارك توين الذي قال: إن الطريقة المثلى للبدء ببناء مكتبة هي إلقاء مؤلفات أوستن خارجها.

ولسنوات طويلة وحتى وفاته عام ١٩٨٦م ظلت كتبه القليلة موضوعة في شقة في الطابق السادس وسط مدينة بيونس أيرس. أما الزوار الذين كانوا يفدون عليه بالآلاف؛ لأنه، منذ أن فقد بصره، صار لا يرفض عرضاً يمنحه



بورخيس العريس

صوت قارئ، فقد كانت الخادمة تستقبلهم، ويقادون عبر مدخل صالة ضيق من خلال باب ستائره مسدلة إلى غرفة المعيشة حيث كان بورخيس يتلقى تحياتهم بمصافحة مرتعشة خجلى وواهنة، ومن دون أن يترك مجالا للأحاديث الشافهة، كان بورخيس يجلس على أريكته ويواجه الضيف الذي يكون اقتعد كرسياً، وارتفق ذراعيه (ربما) وينطلق الحوار.

وكانت عيناه العمياوان تحدقان في الفراغ حين يتحدث، فيتيح لعيني الضيف أن تجولا في أنحاء الغرفة، وتريا الأشياء المعتادة في حياته اليومية.

على الحائط كانت تتدلى لوحة رسمتها أخته نورا بورخيس، ومنحوتة خشبية لربيار نيزي تصور في أحفورتها خرائب وأطلالاً دائرية غريبة.. وفي أقصى اليسار دهليز ضيق يفضي إلى غرف النوم، غرفة لأمه ملأى بالصور الفوتوغرافية، وغرفته البسيطة كزنزانة أو كملاذ ناسك: سرير نحاسي، حقيبتا كتب، ومقعد وحيد.

وعلى حوائط غرفة نومه إطار خشبي تتدلى منه أنواط الشرف من (كانتونات) سويسرية متعددة، وواحدة من حفريات دورير المسماة «الفارس والموت والشيطان» التي تغنى بها في اثنتين من قصائده الغنائية.

وفوق حقيبتي الكتب انتصب نمر أزرق مصنوع منحوت من السيراميك، ولكن حقائب الكتب القليلة تلك كانت تحتوي على جوهر قراءات بورخيس بدءاً بتلك التي احتوت الموسوعات والمعجمات والتي كانت مبعث فخاره.

سأفضي إليك بسر، يقول أحياناً لزائريه: أحب أن أتظاهر أنني لست أعمى، فلدي اشتهاء عظيم للكتب كأي مبصر. بل إنني أتحرق شوقاً إلى دوائر المعارف الجديدة، واشتهي، بل أتخيل أنني أتقرى مجاري الأنهار في خرائطها، أتخيل نفسي أعثر على أشياء رائعة في مواد الموسوعة التحريرية المختلفة».

وكان بورخيس يحب أن يروي (يشرح) كيف اصطحبه أبوه إلى المكتبة الوطنية التي سيصبح مديرها فيما بعد حين يفقد بصره، ولأنه كان خجولاً جداً لا يجرؤ على طلب كتاب، فإنه كان - ببساطة - يمد يده إلى واحد من مجلدات الموسوعة البريطانية، ويقرأ أي مقالة يقع عليها بصره.

وأحياناً يكون محظوظاً، مثل اليوم الذي اختار فيه المجلد الذي يقدم مواد تبدأ بحرف الدال، فتعلم أشياء عن القساوسة السلتيين الدروز، والشاعر دريدان.

ولم يتخل بورخيس يوماً عن ترك نفسه للمصادفة المرتبة فيها مطالعة دوائر المعارف.. وكان يقضي ساعات طوالاً يقلب صفحاتها، أو يطلب أن يُقرأ له من أجزاء غامضة وغريبة من موسوعات جارزنتي، وبروكهوس، أو دائرة المعارف البريطانية.

وكانت حقيبتا الكتب اللتان لديه تحويان كتباً لـ: ستيفنسون تشيسترتون، وهنري جيمس، وكيبلينج، وبرنارد شو، ودي كوينسي، وكتاب جي دبليو أودن: «تجربة مع الزمن» وروايات متعددة لويلز (هربرت جورج)، ولويلكي كوينز: «الحجر القمري»، وعدد من المجلدات لإيكادي كويروز في تجليد كرتوني أصفر، وكتب للويجونز، وجويرالد، وجيروساك، وويولسينز، و«صحوة فينجان» لجيمس جويس، ولمارسيل شكوب «خياليات»، وقصص بوليسية لجون ولكنسون كار، وحياة مارك توين «على ضفاف الميسيسبي» ليلوارد كيندي، وريتشارد هل، ولأرنولد بينيت «دفن حياً»، وطبعة شعبية من كتاب «سيدة في إهاب ثعلب»، و«الإنسان في حديقة الحيوانات» المزين بصور جميلة، والأعمال الكاملة لأوسكار وايلد، والأعمال الكاملة للويس كارول، وكتاب إشبنغلر، والمجلدات الاثني عشر لأعمال رالف والدو إيمرسون، والمجلدات الأربعة لكتاب إدوارد جيبون «الاضمحلال والسقوط»، وكتب متعددة في الرياضيات والفلسفة من بينها كتب كثيرة لرسويتدنبرج، وشوبنهاور، وكتاب بورخيس المفضل لفرتيز ماوثنر.

حفنة من هذه الكتب صاحبت بورخيس منذ صباه الباكر، أما الأخريات المكتوبة باللغة الإنجليزية من بيونس آيرس فقد ابتيعت، ولم يبق منها شيء.

ودائماً كان يطلب إلى زواره أن يبحثوا عن واحد من مجلدات ميتشيل أو رودريجرز، أو بيجماليون ليقرؤوا له منها بصوت عال.

وكانت غرفة النوم تحوي دواوين شعر، ومجموعة من الأدب الأنجلوسكسوني والأيسلندي تعد بين الأضخم في العالم من نوعها في أمريكا اللاتينية.

وهنا كان بورخيس يحتفظ بالكتب التي كان يدرس فيها ما أسماه بـ الكلمات القاسية والمفردات التي تستحيل باستخدامها بالفم، وبمجرد النطق بها - إلى تراب. كلمات استخدمتها في أيامها في نورثمبرلاند وميرشيا.. قبل أن أصبح ها/ سلام أو بورخيس، ونسخة من «معركة مالدون» مترعة بالحواشي، ونسخة من كتاب ريتشارد ماير. أما الحقيبة الأخرى فكانت بها قصائد إيزيك بانكس، و«هنريش» هايني سان خوان دي لاكروز، وإميلي ديكنسون، وبول تولون وطبعات عليها هوامش وحواش من دانتي لبنديتو كروتشه، وفرانسيسكو توراكا، ولويجي بيتر بونو، وجيدو فيتالي.



بورخيس المحاضر

أما الغائب الأكبر عن رفوف مكتبته فهو مؤلفاته وكتبه هو!

وكان يقول بفخار للزوار الذين يطلبون رؤية طبعات قديمة من أعماله الأولى أنه لا يمتلك مجلداً واحداً منها.

من الذي سيتذكر كاتباً منسياً كهذا بشكل كبير؟ في واقع الأمر لم يكن بحاجة إلى تلك النسخ، فهو لا يزال يذكر قصائده التي كتبها قبل عدة عقود.. أو يتلوها عن ظهر قلب.

وقلما كان قادراً على تصحيح أعماله ذهنياً.

ذات مرة أحضر ساعي البريد مظروفاً ضخماً به طبعة صقيلة من قصته «الكونجرس» أصدرها في إيطاليا فرانكو ماريا ريشي، كان كتاباً هائل الحجم، وفي تجليد وتغليف ذهبي، وحروفه تشبه في صفرتها الأوراق الذهبية، ومطبوعاً على ورق فابريانو المصنوع يدوياً، وكل مصورة في الكتاب الذي حمل رسومات تانا فادية على امتداد النص (هندوسية بوذية) تعود إلى معتقد خاص من الصوفية مشغولة يدوياً، وكل نسخة مرقمة تحمل رقمها.

طلب بورخـيس أن يوصف له الكتاب، أصغى بإمعان، ثم قال متعجبا: «لكن هذا ليس كتابا، إنه صندوق شكولاته»، وقدمه إلى ساعي البريد المحرج.

وكان الكرم الذي يزاوج به بورخيس بين الكتب والمؤلفين مثل «مزاوجته بين كيم ودون سيجوندو سومبرا من جوير الدس، وأرسطو ونيكولاس بليك. قد امتد ليشمل الكلمات والأشياء، والأفكار.

مزاوجات مدهشة

وقد اتهم النقاد بورخيس بعدة تهم منذ زمن باكر يعود إلى عام ١٩٦٢م، إذ اتهموه بأنه ليس أرجنتينيا، وكان هو قد قال: إن كون المرء أرجنتيني الانتماء هي مسألة اعتقاد ومبدأ. واتهموه، مثلما اتهموا أوسكار وايلد من قبل، بكونه يعتقد أن الفن غير ذي جدوى، ولا يتطلب مغزى أخلاقيا.

بالإضافة إلى ذلك اتهموه بعشق الماورائيات - الميتافيزيقيا - والعجائبيات أو الفنتازيا، أي: بتفضيل النظريات الشائقة على الحقيقة.

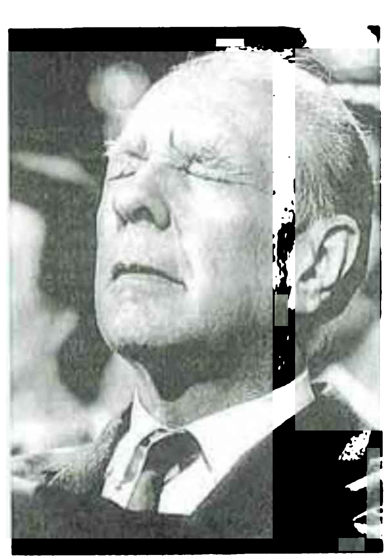
اتهامات

علاوة على الشغف بالأفكار الدينية والفلسفية من حيث قيمتها الجمالية. وكذلك اتهموه بعدم الانخراط في الفعل السياسي على الرغم من مواقفه القوية المناهضة للبيرونية في الأرجنتين وللفاشية، أو احتماله للتعامل مع الجانب الخاطئ كما حدث عندما صافح الجنرالات: فايدلا، وأوجستو بينوشيه. مع أنها أفعال اعتذر عنها فيما بعد حين وقع خطابا ضارعا لتأييد الجماعة االمعروفة The Desparecidos.

وقد رفض بورخيس كل هذه الانتقادات؛ لأنها تنتقد آراءه، وهي أقل الجوانب أهمية في الكاتب، وتنتقد مواقفه السياسية، والسياسة في رأيه أكثر النشاطات الإنسانية بؤسا وأتعسها.

وفي سبتمبر / أيلول /عام ١٩٥٢م في العدد الثالث والثمانين من مجلة الأزمنة الحديثة نشر الناقد الفرنسي إيتيمبل مقالا بعنوان: «رجل مستهدف للقتل».

وبحلول ذلك الوقت كان بورخيس قد كتب أهم أعماله: «خياليات»، و«الألف»، و«استفهامات»، واستفهامات أخرى، ووفقا لإيتيمبل فإن هذه الكتب قد تركت كل الكتّاب



عيناه العمياوان تحدقان في الفراغ حين يتحدث

الآخرين أمام واحد من خيارين: إما أن يراجعوا مفهومهم للأدب، وأن يتخلوا عن الأفكار الجاهزة في التاريخ والنوع أو «الجنس الأدبي» والنظرية الأدبية والتي درست منذ القرن الثامن عشر. وإما أن يهجروا الأدب تماما.

فبعد بورخيس، وبعد نصوص مثل بيير مينار مؤلف دون كيخوت والذي يقوم على فرضية أن الكتب تتغير وفق إمكانات القراء، وبعد فحص أعمال هربرت كوين والذي يقوم على اقتراح أن كتابا واحدا بوسعه أن يحتوي على كل الكتب، وبعد (نص) مكتبة بابل والذي قدم - من خلال لا نهائيته - كتالوجا للكتب كلها ماضيا وحاضرا ومستقبلا، لقد صار الأدب كما كان معروفا حتى تلك اللحظة مستحيلا، ولا مناص من القضاءعلى بورخيس، يقول إيتيمبل: إن كنا نريد الاستمرار في الكتابة. كان اهتمام بورخيس محصورا في الأدب، وما من كاتب في هذا القرن الصاخب يضارعه أهمية من حيث إسهامه في تغيير علاقتنا بالأدب.

ربما كان هناك كتاب أكثر جرأة ومغامرة، وربما كان هناك من هم أكثر إلحاحا في التطواف بجغرافيات. ولا شك أن هنالك كتّابا وثقوا على نحو أقوى منه بكثير أدواءنا الاجتماعية وطقوسنا، كما أن ثمة كتّابا آخرين جاسوا بنجاح في مغامراتهم داخل النفس البشرية. أما بورخيس فقد كانت محاولاته في هذه الاتجاهات نزرة أو معدومة؛ إذ ظل طوال حياته المديدة يرسم لنا خرائط نقرأ بها المجاهل الأخرى وخاصة في نطاق القالب الأدبي الأثير لديه، وهو الفنتازيا أو العجائبية والتي تضم في كتبه بين ما تضمه: العقيدة والفلسفة والرياضيات العليا.

وهنالك كتب يحاولون وضع العالم في كتب. وهنالك طائفة من الكتّاب هي الأندر ترى العالم كتابا يحاولون أن يقرؤوه لأنفسهم وللآخرين، وكان بورخيس واحدا من هؤلاء.

فقد كان يثق بالكلمة المكتوبة، ويؤمن بها وبكل هشاشتها، ومن خلال مثاله هو منحنا نحن - معشر قارئه - الإذن بالتطواف في المكتبة اللامحدودة التي يسميها آخرون: الكون.



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٨٧)

جمادى الأولى ١٤٣١هـ أغسطس ٢٠٠٠م

الفائز الأول: **خالد علي عبدالرب صالح ـ اليمن.**

الفائز الثاني: **علي رمضان صالح حمد ـ الأردن.**

الفائز الثالث: **فتحية السيد عامر ـ مصر.**

الفائز الرابع: **عبدالرحمن يوسف جقلان ـ سورية.**

حل مسابقة العدد (٢٨٧)

كم من غزاة للرسول كريمة فيها رضى للحق أو إعلاء

قائل البيت: أحمد شوقي.

العائلة المقدسة: مبنى شهير في برشلونة يعد بمنزلة شعار لها.

الستروبوسكوب: أداة لقياس سرعة الدوران أو التردد.

فلورنس نايتنغيل: ممرضة إنجليزية تعد مؤسسة علم التمريض.

الإوزات الست: لوحة منقوشة على جدران مقبرة «نفرمعات» في ميدوم.

مسابقة الشهر (العدد ٢٩٠)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) فرغانة: ☐ مدينة إسلامية شهيرة في أزبكستان ☐ جارية عباسية قربها المأمون.. اشتهرت بمحاورة الأدباء.

(٢) الدايوتومات: ☐ نوع من الطحالب المجهرية الوحيدة الخلية ذات مظهر زجاجي شفاف
☐ بروتينات مناعية متخصصة تتفاعل مع أي كائن غريب يغزو الجسم.

(٣) دييجو فيلازكيز: ☐ رسام إسباني شهير من فناني القرن السابع عشر ☐ روائي مكسيكي اشتهر بتصوير حياة الفلاحين.

(٤) التكويخ هو: ☐ طريقة يتم بها صيد الصقور في الخليج العربي ☐ طريقة صناعة السفن في البحرين.

(٥) من قائل هذا البيت: ضدان لما استجمعا حسُنا والضدُّ يظهر حسنه الضدُّ ☐ دوقلة المنبجي ☐ أبو العلاء المعري.

الاسم: ص.ب:

العنوان: الرمز البريدي:

المدينة: هاتف:

الدولة: ناسوخ:

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى:
١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الثانية:
٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).

الجائزة الثالثة:
٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الأخيرة:
(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

عنوان المجلة:

ص.ب (٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

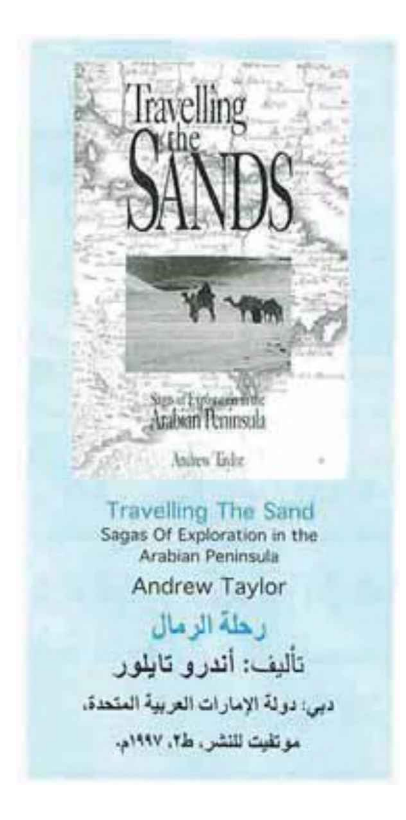
رحلة
في كتاب

رحلة الرمال

مراجعة: سلطان سعد القحطاني
الرياض - السعودية

هناك ما يقرب من مئتي ألف ميل مربع من الصحراء، تقع في قلب جزيرة العرب، ظلت قرونا لم تكتشف، ولم تعرف، وكانت رحلات البدو الذين يسكنون أطراف الرمال قد ضاعت معهم، فلم يوجد لها أثر يدل عليها، وربما يضل بعضهم عن الآخر في رحلات البحث التي لا تنتهي عن المرعى والطعام، حتى إذا قُدِّر لأحد رجال القبائل أن يقطعها من طرف إلى آخر - خاصة إذا حدثت حادثة، أو كان ذلك بروح المغامرة - فلن تجد خرائط تدل على وقوع الحادثة، أو وصفا لعدد الرحلات.

وامتد الربع الخالي إلى مسافات بعيدة غامضة وواسعة صعبة الاختراق إلى قلب شبه الجزيرة العربية في القرن العشرين. وهذه الصعوبات هي التي جعلت من هذا التحدي - بالطبع - فتنة للصحراء تجذب إليها أجيال المغامرين، كما فعلت قمة إفيرست Everest في الأونة الأخيرة بالمستكشفين. لقد وقف الربع الخالي بصمت وكبرياء أمام رغباتهم. إن التحدي - بالطبع - كان أكثر من تحدي الرمال الحمراء الناعمة، ولهيب الشمس الحارقة، كما يتخيلها عامة الناس. فهناك خطر برز من العداء القائم من أبناء القبائل وقطاع الطرق، مما سبب حرجا للحكومات. وهناك كثير من الصحاري المختلفة في اقتحامها على الطريق إلى شبه الجزيرة العربية، هناك الجبال الشاهقة التي تعوق الرجال والجمال، وقد قاوموها بالصعود والنزول والالتفاف حول جوانبها، لكن هناك أميال من الحصباء المتطايرة أيضا في نجد أو في صحراء أبي (بحر) المظلمة القاحلة، كما أن هناك الصخور الصلبة (الصفا) وميلا فوق ميل من السّباخ ذات البريق من بقايا المياه المالحة، فعادة يبدأ المسافرون رحلتهم بالتسلق خلال القارة من جبال عمان، أو ينفذون في الأرض المستوية بمحاذاة ساحل الخليج. وفي اتجاههم يكون همهم لأسابيع وجود الكلأ لجمالهم: في مكانٍ ما ربما يكون الكلأ وافرا بعد نزول المطر فجأة، ولكن في مكان آخر ربما لا يرون ورقة خضراء على مسافة عدة أميال. في بعض الأحيان، كانوا يشعرون بالوحدة والإحباط، وعلى الرغم من ذلك فهناك من يقول: إنهم لن يكونوا أقل حظا من الذين هلكوا قبلهم، كانوا خلال النهار يشعرون بالعطش الشديد، يكادون يحترقون من لهيب الشمس الحارقة، لكنهم في الليل يستيقظون وهم يرتجفون من البرد والرطوبة. وقد أصابهم جميعا شيء من اليأس.



Travelling The Sand
Sagas Of Exploration in the Arabian Peninsula
Andrew Taylor
رحلة الرمال
تأليف: أندرو تايلور
دبي: دولة الإمارات العربية المتحدة، موتفيت للنشر، ط٢، ١٩٩٧م.

من يكون الأول؟

التحديات قابلتها حالات نفسية إضافةً إلى حالات جسمانية. وعلى الرغم من ذلك كان هناك سباق بين من يكون الأول في اكتشاف الربع الخالي:

السير بيرتون Sir Burton كان همه أن يكون أول إنسان غير مسلم يتسلّل إلى الحج في قافلة إلى مكة. وولفريد بلنت وزوجته

السيدة أن كانا أول الأوربيين الذين يدخلون مدينة حائل. بينما شاهدنا في هذا القرن كلاً من هاري سنت جون فيلبي، وبيرترام توماس، يتنافسان في أيهما يكون الأول الذي يقطع الربع الخالي نفسه؟ وعلى طول الطريق كانت هناك نماذج وعينات جمعت، وقياسات وملاحظات دونت، كان الهدف منها تعليم مجتمعاتهم، والكشف عن حضارات الأمم الغابرة وتأملها. بعض الرحالين مثل: لورانس، والجواسيس، ووكالات القرنين التاسع عشر والعشرين، زعموا من خلال خدمتهم العسكرية، وممارسة مواهبهم، أنهم اكتشفوا شيئاً.

قال بيرترام لمصاحبيه من العرب: ببساطة، إنه كان يحب السفر للبحث، وإشباع رغباته العقلية التي قادته إلى الصحراء.

ومما لا ريب فيه أن كثيراً من الرحالين كان لديهم الكثير من ضروب التصورات الرومانسية حول أسرار ديانات العالم العربي التي أغرتهم بالمجيء، ممزوجة بالرؤية الشاحبة لمظهر الحكام الفائق القسوة، والنساء الجميلات الداكنات البشرة (الحريم) المتشابهات عادة فيما بينهن.

لاحظ بيرتون بكل عظمة أن رجلاً مثله سيضيع أو يموت. ووصف ولفريد بلنت وسلامها، وطبيعة مصدرها من تحت سواد سقف الليل.

يقول فيلبي: سلام الإسلام العظيم ينزل إليَّ منحدراً بهدوء. وكذلك وجدها بيرتون مكاناً مقدساً أيضاً. أما ثيسيجر فكلامه مثير للمشاعر، فقد وجد سلوته في قسوة السفر في الصحراء.

البدو وأخلاق النبلاء

إنَّ كثيراً من الانطباعات كانت شديدة عند الكثير من الرحالين، ففيها نجد الرجل الذي يكره البشر (شارلس داوتي) يضرب الأمثال في حديثه عن قسوة الصحراء، ويقابل أهلها بالبوهيميين الطبيعيين، حتى إنه وجد رجالا فقراء يرغبون أن يشاركهم الغرباء عشاءهم القليل، كما يشاركهم الأصدقاء، ويحمونهم ويعاملونهم كما يعاملون أبناءهم. أما ثيسيجر - بعد قرن من الزمان - فيقول - بلا تحفظ في كل رحلاته -: إنه وجد حقيقة النبلاء تكمن في البدو «الأخلاق العالية هي أخلاق الصحراء».

وفي الحقيقة، لا أحد من الرحالين أنهى رحلاته من دون مساعدة رفاقه العرب وتعاونهم، حتى الأدلاء - القادة المدفوع لهم - يصيرون عادة من الأصدقاء الحميمين، وهؤلاء - طبعا - جعلوهم يشعرون بأقل معاناة،

شبه الجزيرة العربية أغرت الغزاة بثرواتها، ولا سيما القوى العظمى، فقاومتهم الصحراء مقاومة شديدة، لم يتحملوا حرارتها، فكان مآلهم إلى الموت

وزوجه رحلتهما بأنها رحلة حج لمشروع خيالي. والكل يعرف أن البحث عن الشهرة والتألق الحالم في الفقر المدقع في صحراء الجزيرة العربية، كان مآله الإخفاق دائماً مثله في ذلك تلك الحملات العسكرية المبكرة التي كانت تبحث في هذه الصحراء عن ثراء أسطوري ما، لكن الجزيرة العربية غيرت هذه المفاهيم؛ وعلى أي حال، فقد وجدنا معظمهم قد عاد متعلقاً بروح الصحراء وأهلها، وقد أثر فيهم - جميعاً - سكون الرمال فالقليل من الدولارات ربما تكون كافية لشراء بندقية أو جمل. لكن هذا - على العموم - ما قام به الرحالون أنفسهم. داوتي كافح ليجد ناشراً لكتاب رحلاته القيم، وبيرتون مات وهو في قمة الفقر، وثيسيجر انتظر نحو عقد من الزمان قبل إصدار كتابه Arabian Sands «الرمال العربية»، وعلاوة على ذلك، لم يبد أحد أسفه على كفاحه تحت لهيب الشمس العربية، ولم يحصلوا على مكافأة، لكن مكافأتهم هي الصحراء.

لقد تحدث مؤلف الكتاب - أندرو تايلور Andrew Taylor - في الفصل الأول عن الرحالين بشكل عام وسريع، واستطاع أن يعطي فيه فكرة موجزة عن جهودهم في اختراق الربع الخالي. وفي هذا الفصل يتحدث عن ثلاث مجموعات من الرحالين هم: التجار والحجاج والغزاة. يقول: إن الربع الخالي قاوم الرحالين، لكن توجد على جوانبه مجموعة من شبكات الطرق القديمة. ويصف في هذا الفصل الرحلات القادمة من أطراف الخليج في شرق الجزيرة العربية، متجهة إلى الغرب، حيث تجارة اللبان العماني المشهور، والبخور الذي يستخدمه الكهان والأطباء نوعاً من الدواء. ويذكر أن هذه التجارة انتعشت في القرن العشرين، حسب ما ذكره ثيسيجر الذي رافق رحلات القوافل، التي وجدت في هذه التجارة مكسباً أكثر من تجارة الماعز والحطب. ويذكر أن القوافل كانت تأخذ الطريق الشرقي من الجزيرة العربية في القرون الماضية، وفيها تجارة متعددة لم تقف على اللبان فقط؛ ولكن كانت تحمل معها الحرير، والتوابل، والأحجار الكريمة، والعاج والعود. وهذه التجارة كانت تأتي من إفريقية والهند، والصين. ويتحدث المؤلف عن ازدهار التجارة خلال الحضارة العربية ما قبل ١٥٠٠ سنة وأكثر، ويذكر أن سير القوافل كان منظماً بالاتفاق مع الحكومات التي تأخذ الضرائب إضافة إلى الجمارك كلما عبرت حدود الدولة. ويعطي شرحاً وافياً عن مبنى الضرائب في حضرموت، والطرق البرية التي يضطر المسافرون إلى المرور خلالها مجبرين، ويكون الدخول من بوابة كبيرة تجبى فيها الضرائب المحددة لكل بضاعة. ويسهب المؤلف في وصف سلطة ملوك شبوة ومعاقبتهم لكل من يتحدى سلطتهم، ولا يمر بالطرق المرسومة للقوافل. ثم يقول: إن هذه القوافل الصحراوية قل عددها في القرنين الرابع والخامس الهجريين، والسبب أن السفن أخذت طريقها في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وأصبحت ثقة التجار بها أكثر من

ثقتهم بالطرق البرية. ويتحدث المؤلف كثيراً عن طرق التجارة البرية والبحرية في جنوب شبه الجزيرة العربية وشرقها، بعد انهيار سد مأرب وتحول الجنوب العربي إلى صحراء، ومن ثم تحول التجارة إلى شمال شبه الجزيرة العربية، ويورد أن من أسباب ضعف التجارة ما ذكره هيرودوتوس Herodotus في القرن الخامس قبل الميلاد، من أن الأفاعي المجنحة كانت تحمي أشجار اللبان.

لكن ديودوروس سيكولوس Diodorus Siculus يذكر بعد أربعمئة سنة، أن مناجم الذهب العربية كانت بكراً؛ لأن العرب لم يكونوا بحاجة إلى رائحة المعادن التي تخرج من الأرض.

خريطة توضح الطرق التي سلكها الرحالون في صحراء شبه الجزيرة العربية كما جاءت في الكتاب

الغزاة والصحراء

إن هذه الأسباب وأسباباً أخرى، أضعفت التجارة العربية، ونقلت التجار العرب إلى شمال الجزيرة العربية، وأصبح هناك الكثير من التجار الذين أثروا ثراء فاحشاً، جعل الأنظار تتجه إلى شبه الجزيرة العربية التي لا تنتهي ثروتها. يقول المؤلف: إن شبه الجزيرة العربية أغرت الغزاة بثرواتها، ولا سيما القوى العظمى، فقد سير الإمبراطور أوغسطوس Augustus في السنة الرابعة والعشرين قبل الميلاد جيشاً إلى شبه الجزيرة العربية، قطع به مسافة تسعمئة ميل، طمعاً في ثرواتها ومحاصرة تجارتها، بقيادة القنصل الروماني على مصر أليوس غالوس Alius Gallus، ويذكر أن أولئك الغزاة لم يحققوا ما كانوا يحلمون به، فقد قاومتهم الصحراء مقاومة شديدة، كان سلاحها فيها الشمس التي لم يتحملوا حرارتها، فكان مآلهم إلى الموت، من العطش، أو التعب، أو الجوع، أو المرض. وأصبحت الصحراء تمثل لهم عقدة الأجيال القائمة على مدى قرون، وأرادوا أن يكرروا التجربة مرة ثانية بعد أن أخذوا درساً قاسياً، لكنهم لم ينسوا ذلك الدرس، فعاودوا الكرة في القرن الثاني عشر بثقة عالية لكسب الغنائم من خلال دخول المدينة، لكن العرب تربصوا بهم، وهجموا عليهم بعد أن أخذ التعب منهم كل مأخذ، فمات الكثير منهم في المعركة من دون قتال..

ولم تكن الصحراء قاسية على الغزاة فقط، بل كانت قاسية في كل الأحوال. يذكر المؤلف: أن رحلات الحج كانت صعبة في الصحراء والشمس الحارقة. فبعد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم صارت رحلات الحج تقطع الصحراء كل عام متجهة إلى الديار المقدسة، مكة والمدينة، وكان الحجاج يقاومون حرارة الشمس الحارقة. وأكبر قوافل الحج كانت تنطلق من دمشق لتلتقي بالقوافل القادمة من آسيا «روسيا وكردستان» في رحلة مريبة من خلال الصحراء السورية وصحراء شمال الجزيرة العربية. ويتخذ المسافرون الطرق التي يمرون بها في رحلتهم معبراً إلى المدن التي يجدون في أسواقها أصناف البشر، منهم الغرباء والأجانب. ويتابع قادة القوافل مجموعات الجمال بيقظة عالية من خلال الطرق الضيقة. ويعطي المؤلف فكرة وافية عن المصاعب التي كانت تصادف الحجاج على مدى أربعة أشهر من السنة. ويذكر أن بعض الحجاج يجلب معه بعض البضائع، مثل الحرير والسجاد، وبخاصة القادمون من تركيا، وبعض البضائع الجلدية من اليمن، إضافة إلى الأحذية الأوربية. ويذكر ما ذكره من سبقه من قبل ويقول: إن أحسن من تناول ذكر رحلات الحج، الرحالة داوني الذي تنكر في شكل مسلم من بلاد فارس وصبغ لحيته بالحناء ورافق الرحلة. ووصف المتاعب التي كان يواجهها الحجاج، مثل الخوف من قطاع الطرق والمياه غير الصالحة للشرب، والأماكن المهجورة والمحمية، كما أنه كان يحس بالخطر، خشية أن يكتشف أمره.

الجواسيس ومغامراتهم

أما الفصل الثالث، فقد خصصه المؤلف للحديث عن الجواسيس وقصص المغامرات. فقد ذكر أن الرحلة إلى مكة المكرمة، والأماكن المقدسة كانت رحلة محفوفة بالخطر من كل الجوانب. وقد كانت الرحلة إلى مكة عامل جذب شديد للأوروبيين، والمغامرين، والمتشردين في شبه الجزيرة العربية، وكان بينهم جواسيس لم يجدوا سبيلاً إلى دخول الأماكن المقدسة إلا من خلال رحلات الحج، وكان السبيل الوحيد إلى ذلك تقمص شخصية المسلم من البلاد التي يكثر فيها المسلمون، كأفغانستان والهند ووسط آسيا، ويذكر من هؤلاء ثلاثة:

- الأول الإيطالي، لودوفيكو دي فارثيما Ludovico di Varthema، الذي رافق رحلات الحج في القرن السادس عشر، ووصف رحلة الحج بأنها كارثة، فقد مات بعض الحجاج من العطش، والآخرون ماتوا

من العواصف الرملية. كما يصف ما شاهده في مكة من الفقر، حتى عند بعض الأطفال.

ـ الثاني فينسنت لي بلانس Vincent le Blance، الذي لم يكن وصفه للرحلة أقل عن سابقه، وذلك بعد مضي سنة عشر عاماً.

ـ أما الثالث، فكان جون وايلد John Wild، الذي وصف رحلة الحج لصعوبتها ـ أنذاك ـ بأنها أكبر كارثة في التاريخ، وكان وايلد عسكريا في الجيش الهنغاري أسره العثمانيون وباعوه في مصر، وأخذه سيده إلى الحج خادما لهم عام ١٦٠٧م، فقد وصف الآبار في الطريق، وموت ألفين من الحجاج في العقبة، من عدد الحجاج البالغ ٢٥ ألفاً، والآخرون ذهبوا إلى مكة تحت تهديد القبائل بالسلب والنهب. وبعد أربع سنوات وصل إلى عائلته في ألمانيا. ويعلق المؤلف على قصص أولئك الرحالين، ويشكك في قصص بعضهم، لأسباب قد يكون منها عدم ثقتهم بالصحراء نفسها، أو خوفهم من أهلها، أو من الكره والنقمة اللذين تركهما سادتهم في نفوسهم. وعلى أي حال، فقد أعطى فكرة عامة عن أولئك الرحالين، والظروف التي كانت تمر بها شبه الجزيرة العربية.

يقول المؤلف: إن الربع الخالي نفسه كان يبدو مستحيلاً على المستكشفين اقتحامها حتى القرن التاسع عشر، ففي عام ١٧٦١م موّل ملك الدانمارك حملة غربية كبيرة لاستكشاف الربع الخالي في شبه الجزيرة العربية التي لا يعرفون عنها شيئاً ما عدا صنعاء، وارتبط اسم الحملة الدانماركية باسم العالم كارستن نيبور Carsten Niebuhr؛ لأنه كان الوحيد الذي نجا من بين خمسة من زملائه من الملاريا، ثم إن هذه الحملة تعد الوحيدة التي ذهبت إلى الأماكن المقدسة علناً.

وكان كثير من الجنود البريطانيين يتجولون في الخليج العربي لحراسة السفن العابرة إلى الهند، ففي عام ١٧٧٥م زار الشاب هورانيو نيلسون Horatio Nelson عمان، وبقي على ظهر السفينة. لكن بعد ذلك بستين عاماً انحدر الملازم جيمس ولستيد James Wellstead من الجبل الأخضر باتجاه الربع الخالي غرباً، وقام بوصف الرمال المتحركة كأحسن مصور.

أما العسكري الثاني فكان أدولف فون ريد Adolphe Von Wrede وهو مغامر بالطريقة نفسها التي غامر بها ولستيد، وجاء بعده بسبع سنوات، انطلق من المكلا إلى حضرموت في ضيافة المشايخ، في مغامرة يريد منها أن يكون الأول في بلاده. وقام القائد جورج سالدير George Saldier الذي قدم من الهند عام ١٨١٩م للحاق بسيده وتقديم التهاني للجيش المصري بمناسبة العيد الفكتوري، وللأسف لم يدرك إبراهيم باشا، إذ وصل إلى الأحساء فوجده قد غادرها إلى منفوحة بالقرب من الرياض، وهنا خطأ قد يكون مطبعياً، فقد ذكر أنه غادر الأحساء إلى الشرق، والحقيقة أنه غادرها إلى الغرب (انظر، ص٢٢) وعندما وصل منفوحة وجد إبراهيم قد غادرها فذهب إلى الدرعية، ومنها إلى الرس، ثم المدينة المنورة، وهناك اتخذه إبراهيم أنيساً له، وصار يجوب شبه القارة من دون قيود في ظل الحماية العثمانية من الوهابية. كما أن بعض الأوربيين جاء للعمل في الجيش العثماني في بعض الحرف التي لا يجيدها العثمانيون، مثل العزف على الآلات الموسيقية. فهذا ضابط الطلبة الأسكوتلندي توماس كيث Thomas Keith كان يعمل في الفرقة الموسيقية للجيش تحت إمرة الحاكم التركي في المدينة المنورة. ولأن الصحراء كانت مخيفة، فإن بعضهم كان يتنكر باسم الإسلام، فهذا جوهان لودويج بوركهارت Johann Ludwig Burkhardt السويسري المغامر، عاش باسم هندوستاني مسلم، «الشيخ إبراهيم» خلال الحرب الدائرة بين المصريين والدعوة الإصلاحية في نجد، أحب حياة البادية أكثر من حياة المدن، كما أحب الإسلام، لكن الله لم يفتح قلبه للإيمان، وبما أنه زار مكة فقد سمي في مصر بالحاج إبراهيم بن عبدالله، مات هناك وعمره ٣١ عاماً، وقبر في مقابر المسلمين.

الدعوة الإصلاحية تجذب الجواسيس

ويكثر في القرن التاسع عشر عدد الجواسيس ووكالات الاستخبارات الدولية لمعرفة كنه الدعوة الإصلاحية التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية، فتسابقت الدول الكبرى إلى معرفة الأسباب التي جعلت هذه الدعوة تسيطر على مكة والأماكن المقدسة؛ من هذه الدول، روسيا، وفرنسا، وبريطانيا، ومصر. خرج الفرنسي باديا واي ليبليخ



فيلبي في مقدمة القافلة التي تضم رفقاءه من العرب والأدلاء

Badia Y Leblich من المغـــرب إلى القاهرة، ومنها إلى شبه الجزيرة العربية، في رحلة حول مكة وجدة متخفياً في زي أمير عباسي، وفي الوقت نفسه، كان أولريش جاسبر سيتزن Ulrich Jasper Seetzen يقوم برحلته السرية متخفياً بلباس متسول، بأمر من القيصر الإسكندر الأول، ومرة على هيئة طبيب عربي. ومات سيتزن الألماني في اليمن في ظروف غامضة. وبعد أربعين سنة، جاء جورج أغسطس والن George Augustus Wallin الذي كافح لاختراق النفود في خدمة الحكومة المصرية حتى وصل إلى مدينة حائل وما يحيط بها من القرى، تلك المدينة التي دخلها ولفريد بلنت، بعد أربعين عاماً. وبعد بضع سنين من رحلة والن، تتابعت الرحلات الجاسوسية الفرنسية في الطريق نفسه الذي بدأه. فقد جاء وليم جيفورد بالجريف William Gifford Palgrave جاسوساً لحساب الفرنسيين، بدعوى حماية المسيحيين في لبنان بأمر من نابليون الثالث، وبدأ رحلته عام ١٨٦٢م، وسلك فيها الطريق نفسه الذي سلكه والن من خلال النفود إلى قلب الجزيرة العربية، فوصل إلى حائل، ومنها إلى الرياض، للاطلاع على الآثار، التي دمرتها الوهابية، ويصف كيف استطاع أن يجيد التنكر، فادعى أنه طبيب عربي، وعندما علم أنه سيكتشف انسل هارباً إلى ساحل الخليج عبر الدهناء إلى مدينة الهفوف، وتجول في أنحاء الخليج: قطر وعمان ثم بلاد فارس. ويعتز بالجريف أنه أول أوروبي استطاع أن يدخل المدينتين اللتين يصعب دخولهما، وكتب كتابه في ألمانيا بعد عودته بشهر، بعنوان «قصص رحلة السنة الشخصية خلال وسط وشرق الجزيرة العربية» ونجد في هذا الكتاب، الذي يغني القارئ عن قراءة عدد من كتب الرحالين، ويفتح ذهن من أراد الاستزادة عن الأهداف التي حدت بالكثير منهم إلى المغامرة بحياته في بلاد مترامية الأطراف



داوتي

يصعب أو يستحيل الوصول إلى أجزاء منها.

أما السير رينشارد بيرتون فكان هدفه دراسة لغات تلك البلدان وعاداتها، فكان يتقن إحدى وأربعين لغة مختلفة، ويحفظ خمسة آلاف كلمة من القرآن الكريم. ومن العجب أن نجده يسافر من جدة عن طريق البحر إلى السويس وهو لا يزال بلباسه العربي فيجد الإهانة من المسؤول البريطاني الذي قال له بالحرف الواحد: اخرج من هنا أيها القذر. (لمزيد من المعلومات عن رحلات رينشارد بيرتون طالع عدد الفيصل «٢٨٦»).

رحلة آل بلنت

أما الفصل الرابع فقد خصصه المؤلف لعرض رحلة داوتي وقد عرضنا طرفاً من رحلته في ترجمة الفصل الأول من هذا الكتاب، إضافة إلى أن رحلة داوتي ستصدر قريباً بترجمة الزميل الأستاذ محمد عودة العودة، لذلك سنكتفي بهذا، وننتقل إلى الفصل الذي يليه، وقد خصص هذا الفصل لرحلة ولفريد سكاون بلنت وزوجه السيدة آن، ولخص فيه المؤلف رحلة بلنت التي انطلقت من دمشق إلى حائل. وعلى الرغم من أن هذه الرحلة كانت مانعة لآل بلنت، إلا أنها كانت كثيرة المخاطر مما يشبه المراهنة، لكن حب المغامرة وكسب الشهرة كانا يغطيان كل مشقة لقيها هذان المغامران. كان ولفرد شاعراً ودبلوماسياً سياسياً مثيراً للجدل، ورحالة خليعاً فاسقاً. سجنته الإمبراطورية العثمانية، لكنه لم يطل بقاؤه في السجن، وعندما قرر السفر في رحلته هذه كان يعلم ما سيلاقيه فيها من مشقة وعناء، وكانت زوجه تعلم ذلك أيضاً. كانا يحلمان بأودية الألماس وسهول الذهب، وكان رفيقهم في هذه الرحلة من دمشق - في الثالث عشر من ديسمبر/كانون الأول عام ١٨٧٨م محمد بن عروق، من أهالي تدمر، وكانت السيدة آن، سليلة الأسرة الأرستقراطية، سعيدة بهذه الرحلة، وبأكل الجراد والخبز الناشف بدلا من اللحوم، ولم تنغص بعض الحوادث التي حصلت لهما ما رسماه للرحلة، فقد حصلت لهما حادثة غزو من مجموعة من رجال قبيلة الرولة انتهت بقبول الغزاة الفدية التي دفعاها لهم. ولا نريد أن نطيل في تفاصيل هذه الرحلة، فقد أعطينا فكرة عنها في الفصل الأول من هذا العرض، ثم إنها ترجمت إلى العربية منذ زمن بعيد.

حرب الصحراء

أما الفصل السادس فتحدث فيه المؤلف عن الحرب في الصحراء، ويقصد (الحرب العالمية الأولى) وعرض ما كتبه الرحالون والسياسيون العسكريون، ويبدأ برحلة جيرترود بيل Gertrude Bell التي أحبت الرائد ديك داوتي - وايلي Dick Doughty Wylie ابن أخي الرحالة تشارلز داوتي، فقد وصلت إلى حائل مقتفية أثر السيدة آن بلنت، وأمضت فيها وقتاً ثم غادرتها إلى بغداد، واستدعيت إلى لندن بعد أن وضعت الحرب أوزارها. ثم تحدث المؤلف عن رحلة شكسبير من الكويت إلى الرياض، ثم موته في جزيرة العرب، وكذلك عرض كتاب لورانس العرب T. E. Lawrence «أعمدة الحكمة السبعة» Seven Pillar Of Wisdom وما قام به من تدمير للسكك الحديدية في الحجاز، وعرض أسباب مجيء الأوربيين إلى نجد كدبلوماسيين، ويحدد ذلك بعام ١٩١٧م. ويذكر أن فيلبي رغب في البقاء في السعودية لأسباب منها: أنه أحب أهلها

ودينها، وابن سعود شخصياً، وقد ذكرنا ذلك من قبل.

ونجد في هذا الباب شيئاً من التكرار لبعض الفصول السابقة، إلا أنه ذكر أن رحلة فيلبي الأولى أخفقت في دخول الربع الخالي حتى الأعماق بل كان يحوم حول أطرافه، وكاد يعود إلى بلاده، لكنه لم يستطع العودة عن طريق البحر الأحمر، وقال: سئمت، وخاب أمل الرجل. وانتظر سبع سنوات حتى استطاع الدخول إليه في الوقت الذي كان بيرترام يعمل للهدف نفسه.

رحلة الأحلام

إن هذا الكتاب القيم من الكتب النادرة في عالم الرحلات التي تبحث في تاريخ الجزيرة العربية ومسالكها الوعرة قبل التطور الذي ذلّل كل العقبات، وسهّل الوصول إلى كل جزء فيها، وقد تعرضنا في ترجمة الفصل الأول من هذا الكتاب إلى ما أوجزه المؤلف عن أصحاب هذه الرحلات لكننا وجدنا في رحلة بيرترام توماس التي بدأها من عمان، واقتحم بها الربع الخالي تميزاً من غيرها من الرحلات، ومهما تكن الرحلة فإنها قد حققت أهدافاً جيدة خدمت الحياة العلمية في جوانب كثيرة منها؛ ذلك الرجل الذي تقلب في المناصب الحكومية منذ أن كان عمره ستة عشر عاماً، قدم إلى مسقط في عام ١٩٢٦م، بعد أن درس موسوعة اللغة العربية، وعادات العرب، ليعمل مستشاراً تجارياً، ومن ثم يصبح رئيساً للوزراء لدى سلطان عمان، وبعد ست سنوات يغادر إلى ظفار، ومنها تبدأ الرحلة، ففي عام ١٩٣٠م، كانت رحلة الأحلام السرية بمساعدة رجال القبائل الذين استأجرهم ليكونوا أدلاء في طريق تحقيق الحلم الذي حرمه متعة الحياة، لكنه كان يرى فيه إشباعاً لرغباته العلمية وتحقيقاً لخدمة أمته وتخليداً لذكراه بعد موته. يقول: لقد تعلقت في ذهني أحلام سرية. وكادت رحلته تبوء بالإخفاق لولا أن وفقه الله إلى الشيخ صالح فاتفق معه على أجر قدره ٣٠٠٠ دولار فضة. وبدأت الرحلة بخمسة عشر جملاً محملة بالمواد الغذائية، يحرسها مجموعة من الرجال على طول الرحلة. ويتحدث المؤلف عن الجهود العلمية، وما جمعه من المواد في طريقه فقد جهز نفسه بآلات القياس التي اشتراها من ظفار، ويذكر المصاعب التي قابلها في رحلته، مثل قلة موارد المياه، والخوف من قطاع الطرق، والمرور في حدود القبائل المعادية، مثلما ذكرنا من هؤلاء القبائل - آل مرة، وبيت كثير، وبيت الشيخ من المهرة، والكرب - هؤلاء هم القبائل التي تسكن الربع الخالي. كما أنه حدد المسافات التي تفصل بين كل موردين من موارد المياه بعدد الأيام. بما يساويها حسب سير الجمل في الساعة. ومن الآثار العلمية ما جمعه من الجماجم وتحديد أصولها، بالإضافة إلى الأحجار، ودراستها دراسة علمية. وفي هذه الأثناء وصف الحياة البدوية في ذلك الوقت وما كانت تمارسه من سلب ونهب وطمع وغدر، وما إلى ذلك. وكان البدو - حتى مرافقوه - يخافون مما يحمله من أجهزة علمية، مثل (الكرونو ميتر والبارو ميتر والثيرو ميتر) ويظنون أنه ساحر يرصد النجوم ويتعاطى السحر. وقد حدد أماكن في الربع الخالي، مثل بعض الآبار التي كانت الرمال تدفنها من حين إلى آخر، إلا أنه رسم الطريق إليها بدقة جعلت الرحالين يستدلون بها من بعده، فقد زار رانولف فينس Ranulph Fiennes من بعده البئر التي اكتشفها. واكتشف فيما بعد مدينة أثرية (شيصر) وكانت مورداً من موارد المياه في الربع الخالي، حيث يمكث الناس في بعض الأحيان مدة طويلة ريثما يقومون بحفر بعض الآبار من جديد بعد أن تكون الرمال قد دفنتها. ووصف كرم العرب المسلمين وتسامحهم مع الآخرين؛ فعندما كان يوم عيد المسيحيين، قدم لهم الطعام، وشاركوه فيه، وفي اليوم الثاني ذبحوا أحد الجمال وأطعموه من لحمه. وكان يصف ذلك اللحم بأنه صعب المضغ والهضم معاً، وعندما وصل الشيخ صالح إلى المنطقة التي يسكنها آل مرة، تولى قيادة الرحلة الشيخ حمد بن هادي المري، وأخذهم من خلال رمال «الدكاكة» إلى بئر تسمى «شنّه». ووصف المؤلف كرم توماس مع البدو، فكان يعطي كل من يقدم خدمة للرحلة خمسين دولاراً. ففي نهاية الرحلة التي سلمها الشيخ حمد المري إلى شخص آخر يسمى - طالب - كانت الرحلة بالقرب من الدوحة، وكان ذلك أول شهر فبراير/ شباط، وبذلك يكون بيرترام توماس قد كسب الرهان، ليكون أول الأوربيين، وهو الموظف المدني الذي استطاع أن يكتشف الربع الخالي. هكذا ختم المؤلف حديثه عن بيرترام توماس.

كانت الرحلة إلى مكة عامل جذب شديد للأوربيين، والمغامرين، والمتشردين في شبه الجزيرة العربية، وغيرهم من الجواسيس الذين لم يجدوا سبيلاً إلى دخول الأماكن المقدسة إلا من خلال رحلات الحج



الرحالة المغامرة جيرترود بيل

فيلبي وخيبة الأمل

أما الفصل الذي عنونه المؤلف «خادم الملك» فيتحدث عن رحلة فلبي إلى الربع الخالي، منطلقةً من جبرين في الأحساء في أول رمضان، كانت تضم اثنين وثلاثين جملاً، وخمسة عشر رجلاً، وأربعة من الأدلاء. وقد كانت الأحلام تراود فيلبي منذ زمن ليس بالقريب، لعله يكون المكتشف الأول للربع الخالي، لكن هذه الأحلام طارت هباء منثورا بعد أن فاز - بيرترام توماس - بشرف غزو الربع الخالي، يقول المؤلف: «إن المكتشفين المتأخرين كانوا يسيرون على طريق من سبقهم من الرحالين الأولين، فكما كان لورانس يدعي شرف اكتشاف الطرف الشمالي من شبه الجزيرة العربية، ويروي فيها بطولاته المزيفة، فإنه لم يأت بجديد غير الذي اكتشفه داوتي فما كان إلا ناقلاً عن سلفه. وكذلك الحال الذي سلكه فلبي في رحلته إلى الربع الخالي، ويعترف فيلبي ذلك - شاء أم أبى - فالكل يعرف أن داوتي وتوماس هما اللذان أحرزا قصب السبق في غزو الصحراء العربية، وأول الأوربيين الذين حققوا الحلم المستحيل في نظر الجميع، لكن فيلبي أراد أن يشبع الرغبة التي ألحت عليه سنين طويلة، ويجمع ما يحلم به من الآثار العلمية ليقدمها هدية إلى بلاده التي كانت في أمس الحاجة إليها، ويعود من حين إلى آخر، إلى ما كتبه داوتي، وخصوصاً ما يتعلق منها بالحيوانات التي تعيش في شبه الجزيرة العربية، ولو أن جنوبها يختلف عن شمالها في بعض الخصائص. ذكر داوتي أن النعام كان يوجد من حين إلى آخر، لكن فيلبي لم يجده في الربع الخالي، وقال له علي - أحد الأدلاء: إن والده كان يصيدها، ومجموعة أخرى من الطيور. وقال فيلبي: إن بعض الناس ذكر له بعض الطيور، لكنه لم يجدها أيضاً، ووصف في رحلته هذه بعض الزواحف والثدييات، وقد صورها - ثيسيجر - فيما بعد. ولم يكتشف فيلبي شيئاً جديداً له أهمية قصوى في عالم الرحلات والسفر، أكثر مما اكتشفه سلفه، فكل الموارد التي ذكرها توماس ذكرها فيلبي، مثل بئر «شنه» ومغينما والأفلاج، وغيرها. لكن أجمل ما في الرحلة، الذكريات التي كتبها عن البدو في الربع الخالي، فبعضهم كان يأتي إلى المخيم مستدلاً عليه برائحة دخان النار، وكذلك الحادي وهو يغني للإبل في الطريق، وكذلك ذكاء البدو في إستراتيجية الحرب فيما بينهم، حيث يدفنون موارد المياه أمام أعدائهم، فلا يتمكنون من الوصول إليهم، ويذكر الذكاء واليقظة اللذين يتمتع بهما أبناء البادية، يقول عن سالم أحد قادة هذه الرحلة: إنه ينام في الطريق على ظهر الجمل، وعندما يتخطى الخط المرسوم - في ذهنه طبعاً - يستيقظ بسرعة. ويسهب المؤلف في الحديث عن الرحلة والظروف التي صاحبتها، ويبدي رأيه فيها بكل صراحة وشجاعة.



ولفريد ثيسيجر في زي عربي

ثيسيجر عاشق الصحراء وصديق البدو

أما الحديث عن رحلة ولفريد ثيسيجر، وكتابه «الرمال العربية» فحديث ماتع وشديد الجاذبية. لم تكن أهداف ولفريد ثيسيجر Wilfred Thesiger تعني أكثر من الحب الشديد للصحراء وأهلها، فقد عقد صداقات حميمة مع الكثيرين منهم، ممن سيأتي ذكرهم، إذ تعلق بهم منذ أن كان يدرس أسراب الجراد في الحبشة وجبال الحجاز، وجبال عمان وسهولها، يقول في كتابه الرائع الذي كتبه من وجدانه الداخلي، ولا يريد من ورائه إلا الحقيقة: لم أذهب إلى صحراء الجزيرة العربية لأجمع النباتات، أو أعمل خريطة. بل ذهبت إلى هناك لأجد الأمن والسلام وقسوة السفر في الصحراء ومرافقة أهلها. بعد إحدى عشرة سنة من تركه للجزيرة العربية، عاد ثيسيجر في عام ١٩٩٠م، ليرى أصدقاءه والأرض التي أحبها وأحبته، لكنه أصيب بخيبة أمل عندما وجد التغيرات المدنية التي طرأت على البلاد في هذه الفترة الزمنية القصيرة في عمر الشعوب، وجد البدو الرحل الذين عقد معهم أقوى الصداقات، ما زالوا على صداقتهم، لكن الشيء الذي تغير أسلوب الحياة النقية، كان البدوي يسكن بيت الشعر، والحياة مفتوحة أمامه، يشرب الحليب، ويرى جاره بجانبه، واليوم سكن جاره فوقه، مستورداً كل شيء، وصارت حياته مثل حياة الفلاحين وأهل المدن. كان يسمي نفسه «الرجل الحجري» ثم يقول: إنه المفتاح الذهبي إلى الجزيرة العربية.

لقد عقد صداقات كانت في بدايتها مصلحة عمل مع رجال القبائل، لكنها توطدت على المدى الطويل، مثل بيت كثير، والشيخ محمد بن كبينه، وبعض الرجال من بني رشيد وهم فرع من قبيلة يام ومن الخبراء في معرفة جنوب شبه الجزيرة العربية وشرقها، وبدأ رحلته بثلاثة عشر رجلاً، بالإضافة إليه، سبعة من بيت كثير، وستة من بني رشيد، متجهين إلى عروق الشيبة «منطقة شيبة الآن» في اتجاه الربع الخالي، وكان قائد هذه الرحلة محمد العوف، أحد رجال بني رشيد، وكان من طرائف ما رآه في رمال شيبة المتحركة، ما فعله رجال الرحلة بالجمال، عندما غطاها الرمل، وبحركة صارت ترتعش مستنفدة قوتها لطرد الرمال من أجسامها. ويذكر المؤلف ما تعرض له هو ورفاقه من الجوع والعطش وقلة المرعى للجمال حتى إنهم كادوا ييأسون من نجاح الرحلة، وعندما وصلوا إلى إحدى المحطات تزودوا منها، وواصلوا الرحلة بنجاح، وقد حاول ثيسيجر أن يصل إلى جبرين، التي انطلق منها فيلبي، لكن المشكلة كانت في قلة المؤنة، وتأكد من أنه إذا واصل الرحلة إلى

هناك، فسيكون مصيره إلى الهلاك، لذلك قرر التراجع عن رأيه، حفاظًا على سلامة الأرواح، ومن ثم قرر الاتجاه إلى أبو ظبي، وبذلك تكون الرحلة قد أمضت سبعة وستين يومًا، منذ أن تحركت من مناخة في عمان.

هذا الكتاب يختلف في مضمونه عن كتب الرحلات الأخرى من حيث طرافته من ناحية، ومن حيث انطباعات كاتبه من ناحية أخرى.

البحث عن أوبار

ويظهر في الآونة الأخيرة كتاب ألفه أحد العسكريين الذين كانوا يخدمون في الجيش السلطاني العماني وهو رانولف فينس Ranulph Fiennes الذي كان يشغل باله مدينة مفقودة تسمى «أوبار، أو وبار»، بدأ البحث عنها بواسطة دراسة آثار الرحّالين القدامى، مثل فيلبي وتوماس وثيسيجر، وكان يشغل باله - أيضًا - عدم وجود الوقت الكافي، لارتباطه الوظيفي، ثم إنه كان يخشى أن يكون اسم هذه المدينة قد تغير على مر العصور. فهناك مدن تغيرت أسماؤها، وأخرى اختفت من الخريطة تمامًا، مثل: إرم ومدن أخرى كثيرة ذكرت في القرآن الكريم وكتب التاريخ القديمة، لكنه لم ييأس، فقد كان يسأل رجال القبائل أهل المنطقة عن المدينة المفقودة، بالإضافة إلى ما يقرأ عنها، ودراسة آثارها. فقد ذكر له نشران بن سلطان عنها، أنها أجمل مدينة في جزيرة العرب، بنيت مثل جنة عدن، وأعمدتها مطلية بالذهب. (ص١٤٦) لكن سعيد بن غيا يقول: إن القصص التي ذكرت عنها خرافة لا أساس لها من الصحة، وليس لها أصل. وقال آخر: إن اللعنة ستحل بالرجل الذي يكتشفها. وأخره أخذه في حملة مدتها ثلاثة أيام، ليكتشف أن الأعمدة التي قيل: إنها لا تحصى، قد اختفت. ويأتي بعد توماس بخمس وعشرين سنة الأثاري الأمريكي وندل فيلبس wendell Phillips الذي زعم أنه رأى الطريق المؤدية إلى أوبار، وأنها تقع تحت خط ٧٥ درجة شمال غرب. وقبل أن يغادر فينيس إلى الموقع الذي حدده، بناء على الدراسات والمعلومات التي استقاها من الرجال، والأجهزة العلمية التي يقود فريقه بها، مستخدمًا في ذلك سيارات لاند روفر Land Rover توقفت الرحلة عند بئر شيسر Shis'r في وادي «غادون»، حيث توجد قلعة عمانية حديثة، لتكون هنا نهاية الرحلة، دون أن تحقق شيئًا من أهدافها، ويغادر فينيس عمان في عام ١٩٧٠م بعد سنتين من قصته مع أوبار، عائدًا إلى لندن لممارسة العمل المدني، لكنه لم ينس البحث عن المدينة المفقودة «أوبار» إلا أنه يحتاج إلى من يمول رحلة البحث عنها، فهو يملك بعض الأدلة، ولديه الخبرة الكافية في مسالك الطرق في الربع الخالي، ويحدوه الأمل في وجود مفتاح للغز، والفوز باكتشاف المدينة المفقودة. وبطريق المصادفة خلال عمله في التجارة الدولية - يلتقي الدكتور أرماند همر Dr. Armand Hammer وهو رجل محب للخير، ويلتقي أيضًا المنتج السينمائي الأمريكي نيك كلاب Nick Clapp ذلك الرجل كان يخطط منذ سنوات طويلة لعمل فيلم وثائقي عن عمان والمدينة المفقودة، وقد قرأ وبحث عنها من خلال رحلات الرحّالين المحدثين، والمدن الأسطورية في شبه الجزيرة العربية، وتم الاتفاق مع وكالة الفضاء الأمريكية ناسا Nasa وكذلك خبراء التقانة «التكنولوجيا»، وقرر فينيس وكلاب أخذ الموافقة من الحكومة العمانية، لكن الصور التي التقطها شالنجر Challenger لم تترك أملاً كبيرًا في نفس فينيس للحصول على المدينة المفقودة، فالصور من قمر اصطناعي إلى آخر فيها اختلاف!

بعض الأوربيين جاء للعمل في الجيش العثماني في بعض الحرف التي لا يجيدها العثمانيون، مثل العزف على الآلات الموسيقية

ويأمر السلطان قابوس، لمساعدة الفريق، قام الأثاري الأمريكي، الدكتور جوريس زاريس Dr. Juris Zaris بالمهمة مع فريق العمل على مدى ثمانية أيام في جنوب عمان، متتبعين في ذلك الطريق قوافل نقل اللبان، التي ربما تقودهم إلى أوبار والقيام بموازنتها بالصور الفضائية، وكادت الرحلة تخفق، وكاد المولون يسحبون تمويل البحث، حتى وقعت حرب الخليج الثانية (غزو الكويت)، وتوقف البحث في نهاية الحرب، ثم عاود فينيس والدكتور زاريس البحث، فإذا هي «شيسر» التي كانت بئر ماء عذب يشرب منها المسافرون، ولم يعلموا أنها مدينة أوبار أو وبار الأثرية. يقول المؤلف: إن السلطان قابوس، سأله عنها «هل هي بالتأكيد أوبار؟» وكان الباحث يسميها أطلنطي الرمال. قال للسلطان: أنا متأكد يا صاحب الجلالة.

لقد استطاع مؤلف هذا الكتاب، أن يجمع فيه هذا العدد الهائل من المعلومات، عن المغامرين الذين جابوا شبه الجزيرة العربية، قديمًا وحديثًا، ويعطي فكرة عامة عن ملابسات كل رحلة وظروفها العامة والخاصة، بأسلوب علمي محايد، وقد أبدى رأيه بكل صراحة وموضوعية حيال كل منها، بإيجاز يغني القارئ عن تتبع سير كل رحلة على حدة.

ووجدنا في عرض هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التي لها علاقة بشبه الجزيرة العربية، أو ما يتعلق بالثقافة العامة والخاصة، فاتحة طريق إلى مزيد من المعرفة. وقد أشرت في أكثر من موقع في هذا العرض إلى بعض الكتب التي تمت ترجمتها إلى اللغة العربية، تسهيلاً للإخوة القراء. كما ركزت الحديث في بعض كتب الرحّالين التي جمعها المؤلف أكثر من غيرها لسببين:

- بعض الكتب ترجمت إلى اللغة العربية، ولا داعي لتكرارها والحديث عنها على حساب الرحلات الأخرى.
- وجدت في بعض الرحلات معلومات تفوق معلومات الرحلات الأخرى، من حيث حداثتها، أو من حيث فائدتها.

وأرجو أن يجد القارئ ما يفيده، وهذا هو هدفنا، أولاً وأخيرًا.



تصويبات واستدراكات حديثية

جماليات اللغة العربية
على مستوى الحروف والأصوات

في أثناء قراءتي المتأنية المنهجية لمجلة الفيصل «الأثيرة» الغراء عدد شعبان ٢٧٨ الصادر سنة ١٤٢٠هـ بدت لي الملاحظات الآتية في مقال «جماليات اللغة العربية على مستوى الحروف والأصوات»، وهو مقال جيد ومفيد، جزى الله كاتبته خير الجزاء.

أولاً: ورد ما نصه: «روى نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية، فإنه يورث النفاق» انتهى بنصه.

ثم نجد تخريج الحديث في الهامش [ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم]. وعلى الرغم من القيمة العلمية والعقدية والمنهجية لكتاب « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية الذي يرى بعض العلماء أنه من أفضل كتبه، وأراه كذلك من وجهة نظري الخاصة أنه بحق من أفضل كتب شيخ الإسلام ومؤلفاته؛ بل أرى لزوم وجوده في مكتبة كل مسلم، ومطالعته، ومدارسته، والعمل بما فيه، والاستفادة بما يحمله من مسائل عقدية، ومنهاجية، وعلمية، وأصولية، على الرغم من ذلك فإنه لا يصح العزو إليه؛ لأنه ليس من كتب الحديث الخاصة بالحديث كالصحيحين، والسنن، والمعاجم، والمسانيد.

ثانيا: ورد في المقال السابق أيضاً ما نصه: «وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «سلمان منا أهل البيت» انتهى بنصه. والحديث سنده ضعيف ولا يقلل هذا بحال من الأحوال من قدر الصحابي الجليل سلمان الفارسي - رضي الله عنه - ومكانته فقد وردت مناقبه في أحاديث صحيحة، كما سيرد فيما بعد.

وهذا بيان ضعف الحديث:

أورده العجلوني في كتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»، ثم أعقبه بقوله: رواه الطبراني والحاكم عن عمرو بن عوف وسنده ضعيف.

ثم أضاف العجلوني عقب ذلك: ومما يناسب إيراده في هذا المقام ما لبعضهم من النظام:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه
فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس
وقد وضع الشرك الحسيب أبا لهب

ويغني عن هذا الحديث الضعيف ما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كنا جلوساً عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزلت عليه سورة الجمعة «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» قال: قلت من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سئل ثلاثاً. وفينا سلمان الفارسي. وضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء»(١).

وفي مقال «ماذا تعرف عن العقارب؟» ورد الحديثان الآتيان، روى ابن ماجه عن أبي رافع أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قتل عقرباً وهو يصلي، وفيه أيضاً عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لدغت النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - عقربٌ وهو في الصلاة، فقال: «لعن الله العقرب، ما تدع مصلياً ولا غير مصل اقتلوها في الحل والحرم».

وروى الحافظ أبو نعيم في تاريخ أصبهان، والمستنفري في الدعوات، والبيهقي في الشعب، عن علي رضي الله عنه قال: لدغت النبي - صلى الله عليه وسلم - عقرب وهو في الصلاة، فلما فرغ من صلاته قال: لعن الله العقرب ما تدع مصلياً ولا غيره، ولا نبياً ولا غيره إلا لدغته، وتناول نعله فقتلها به، ثم دعا بماء ملح، فجعل يمسح عليها ويقرأ «قل هو الله أحد والمعوذتين»

ولكن العجيب أن الكاتب خرج الحديثين وعزاهما إلى كتاب «حياة الحيوان» للدميري. وهذا الكتاب أبعد ما يكون عن

الاهتمام بالحديث النبوي الشريف من ناحية التحقيق والتدقيق والفحص والتمحيص، فهو كتاب يتحدث عن الحيوانات، ثم يورد ما يتصل ببعض الحيوانات من أحاديث كيفما اتفق، دون رجوع إلى كتب الحديث ودواوين السنة. ولذلك لا يصح بحال التخريج والعزو إلى مثل هذا الكتاب؛ بل كان يُكتفى في الحديث الأول بالعزو إلى سنن ابن ماجه، ثم بعد ذلك التأكد من صحته، وكان يُكتفى في الحديث الثاني بالعزو إلى البيهقي في الشعب، ثم التأكد من صحته، كما هو وارد في صدر الحديثين.

وختاماً أرجو من كتّاب الفيصل خاصة والكتّاب كافة، التأكد والتحقق من صحة ما يوردونه من أحاديث نبوية شريفة. كما أرجو أن يكون التخريج والعزو إلى كتب الحديث، لا إلى غيرها لأنها هي التي تهتم بذلك وتحقق الأمر على أكمل وجه ممكن. «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل»

محمد نجيب لطفي

مصر ـ الفيوم ـ العدوة

مكتب بريد العدوة ـ الرمز البريدي ٦٣٧٤٤.

الهوامش

١. خرجه البخاري ـ ٦٥ (كتاب التفسير) ٦٢ (سورة الجمعة ـ باب قوله: وآخرين منهم). وخرجه مسلم ـ ٤٤ (كتاب فضائل الصحابة) ٥٩ (باب فضل فارس).

قراءة في سمفونية الألم التاريخ محوراً

إلى الصديق الذي قتلني !!



يتداخل كثير من السمات اللغوية والفكرية في تشكيل النص الأدبي، ورسم أبعاده ومعطياته، ومعلوم أن الاتجاه الذي يسلكه هذا التداخل يختلف من نص إلى آخر، مما يساهم ـ بالضرورة ـ في اختلاف بؤره وتيماته، مما يستدعي قراءة خاصة للنص الأدبي تتواءم مع خواصه وميزاته، وحين يجيء الناقد عارضاً رمحه في محاولة استكناه حقيقة النص ـ موضع الدراسة ـ فإنه ينطلق من مبدأ أنّ تحليل الخطاب ما هو إلا علم لاكتشاف الدلالات المعلنة والمضمرة، والمسكوت عنها في الخطاب انطلاقا من حقيقة أن الخطاب من حيث هو خطاب، آليات مستقلة عن قصد منتجه في إنتاج الدلالة، إن الخطاب علاقة تواصل بين منتج ومتلق، فهو بمنزلة العملة المتبادلة(١) التي لا تتحدد قيمتها من طرف واحد، بل تتحدد من خلال التداول(٢).

ومقاربة النصوص الأدبية (تمييز العملة) ليست مهمة سهلة، وخاصة عندما يكون النص من النصوص التي تتكئ على التراث لتمرير مشروعها الفكري أو قل مضامينها الفكرية، والنص الذي بين أيدينا واحد من هذه النصوص التي تبث تجربتها الشعورية من خلال التذكير بما يناظرها في استدعاء تتناسل مفرداته إلى درجة الاكتظاظ، وهو ما نرى الشاعر حريصاً على الاستفادة من فضاءاته، وأن يجعل من نصه مرآة تنعكس عليها تجارب الآخرين.

تشبع

والنص الذي بين أيدينا هو النص المنشور في هذه المجلة «مجلة الفيصل» في العدد رقم ٢٨٥ وهو قصيدة جاءت بعنوان «إلى الصديق الذي قتلني» للشاعر عبدالله الوشمي من السعودية، وهو نص لا نشكّ في تميزه وتفوّقه، ومن القراءة الأولى لهذا النص الجميل نستبين السمة الأساسية فيه، وهي المفارقة عبر الاتكاء على رموز التراث العربي القديم وأحداثه باختلاف أنواعه إلى حد نستطيع معه أن نصف هذا النص بأنه وصل إلى المرحلة التي يسميها ريفاتر بالتشبع La saturation فكانت هذه الخاصية الأسلوبية بمنزلة المادة المنحلة والنص بمنزلة السائل(٣)، وقد حفل هذا النص بعدة وسائل تعبيرية وسمات فكرية تصبّ كلها في حقل السمة المهيمنة على النص عموماً.

ويبتدئ توتر الخيط في يد المتلقي (الناقد) في أولى عتبات النص، وذلك في مرحلة العنوان الذي جاء عاكساً للمفارقة الكبيرة التي خاضها الشاعر بوصفه ذاتاً وموضوعاً، فقد كانت تجربته الشعرية كفيلة بأن تكسر كثيراً من الحواجز والمسلمات الاجتماعية، فنراه يصف الصديق وهو الرمز المثقل بإيحاءات القرب والأمانة والوفاء يصفه بالقاتل، في انتهاك معرفي (إبستمولوجي) للمألوف من القواعد الاجتماعية، بل إن الوسائل اللغوية ساهمت في إغناء الدلالة؛ وذلك حين جاء الضمير عائداً إلى الشاعر مما يدلنا على أن هذه القصيدة ما هي إلا تصوير جمالي لموقف شعوري خاضه الشاعر بنفسه، وهذا العنوان الناتج من رحم التجربة الشعورية ساهم إلى حد كبير في الدخول إلى القصيدة، وقراءتها عبر أهم سماتها، مما يجعلنا نعدُّ العنوان عنصراً رئيساً من عناصر النص الأدبي.

ونستطيع القول بأنّ هذا العنوان جاء كالدخان الذي يدل على النار، فكما أن الدخان ليس هو النار، بل إن جوهره مباين لها، لكنّه دال عليها، فكذلك تميّز هذا العنوان الاستفتاحي الذي جاء إشارة إلى حيثيات تاريخية وتراثية كثيرة، ولم يتوقف عند مجرد هذه الإشارة، بل حاول استنباطها والانطلاق من حيث انتهت كما سنرى بيان ذلك في النص المقروء، مما يمكننا معه أن نقول: إن التراث والتاريخ يشكّلان بالنسبة إلى الشاعر هاجساً مقلقاً، كان للتجربة التي خاضها أثرها الواضح في وصوله إلى هذه الدرجة من فقدان الثقة بالتاريخ، وهو بذلك يتعامل مع التاريخ كما تعامل معه غيره من الشعراء على اختلاف الرؤية Vision qlobale التي يمتحون منها تجاربهم، فنحن نجد نزاراً يقول:

دخلت على تاريخنا ذات ليلة
فرائحة التاريخ مسك وعنبر

ونجد سعاد الصباح تقول في رثاء زوجها: يتفتت التاريخ بين أصابعي.

بينما نجد الوشمي هنا يقف من التاريخ موقفاً تأملياً نقدياً حين يقول في البيت السادس:

ما عدت أحتمل الرحيل فهل أنا
طفل أم التاريخ في إملاقه

ثم يقول في البيت الحادي عشر:

هذا أنا الماني جاء معذّباً
وقراءة التاريخ من أخلاقه

ولذا ففي نص الوشمي نجد التعامل مع التاريخ - بوصفه محلاً للتجربة - نامياً، والانتقال واضحاً من مرحلة التساؤل عبر الأداة (أم) في البيت السادس إلى مرحلة الجملة الاسمية المثبتة (وقراءة التاريخ من أخلاقه) في البيت الحادي عشر، بل إن هذا التدرج جاء مناسباً للقضية المطروحة، وهي أن العبر والدروس التي استفادها الشاعر لم تحصل له إلا بعد القراءة والتأمل، ولذلك ظهرت هذه العبر بعد البيت الحادي عشر.

إذاً فالتاريخ الذي يمثل الزمن الذي عاشه الشاعر مع صديقه أيام الصفاء لم يكن خلواً من الكدر، ولذا نجد الشاعر يصف التاريخ عندما تغير صاحبه فيقول: (أم التاريخ في إملاقه) في عبارة تشي بكثير من الدلالات التي تتضح شيئاً فشيئاً في غضون النص، وعبر نمو الحدث الداخلي والحالة النفسية للشاعر.

التجربة - المأساة

وأما التاريخ بوصفه أحداث التراث عموماً، فإن الشاعر يلجأ إلى التراث والرموز لأنه لم يجد في اللغة المباشرة ما يكفيه فانتقل إلى الماضي لينقل أجواءه إليه، وعلى الرغم من أن تجهم السماء ليس هو المطر فإن فيه دليلاً عليه وعلامة له، وبيان ذلك أنّ الشاعر قد عاش تجربة إنسانية مأساوية، فبعد أن كانت الصداقة رمزاً مثقلاً بالمعاني الجميلة وبعد أن عاش في كنف التاريخ متنعماً في بحبوحته لم يفاجأ إلا باصطدام سفينة أحلامه بالواقع حين قتله صديقه الحبيب الذي جفا والوطن الذي هجر، وإذ المعبد ينهدم فوق ساكنيه، ومن خلال هذه التجربة / المأساة نجد أن ضغط الواقعة يلحُّ على ذاكرة الشاعر فتتعثّر الكلمات على شفتيه، ولا يجد متنفساً إلا أن يرحل في التاريخ ليبحث عن شجرة العزاء، كما رحل البحتري في قصيدته السينية إلاّ أنّ ما نجده عند البحتري من تماسك أمام زعزعة الدهر قد أصبح في تجربة الوشمي دخولاً في محيط الترقب والحذر من التاريخ، ولعل ما ينتشر في تضاعيف النص من إسقاطات تراثية تاريخية إنما يأتي من باب أن الشعر إنما يذكر الأشياء الموازية، وليس الواقع الحرفي، وأيضاً فإنّ هذا الجمع الواعي لرموز التراث يذكرنا بقول كانط: إن فاعلية الإنسان المبدعة الخلاقة هي التي تتصرف فيما يرده من أشتات فتصبها في وحدة معينة.

ويتمثل الالتماس التراثي في هذا النص عبر عدة محاور منها الموروث الشعري، والموروث القرآني، بما فيه من سير للأنبياء، ثم الموروث من الأمثلة العربية.

ففي البيت الثاني نجد التناص واضحاً بين قول الوشمي:

عبثت به كفُّ الظنون ومن رأى
سيفاً توسّط في مجال نطاقه

وقول ديك الجن في مرثيته المشهورة لحبيبته التي قتلها غيرة عليها إذ يقول:

قد بات سيفي في مجال نطاقها
ومدامعي تجري على خديها

فنجد الوشمي يحاول استيحاء الجو الحزين الذي تملك ديك الجن بعد قتله لحبيبته

ـ كما يتبين لنا في رائعته هذه ـ وجعله معبراً عن شعوره هو، ولعل قيمة النص تتجلى فيما تحدثه إشاراته من أثر في نفس المتلقي.

استلهام النص القرآني

وأمّا في البيت السابع فإن الشاعر ينتقل إلى محور آخر هو استلهام النص القرآني في محاولة لإضفاء طابع القداسة على مشاعره، حين يجعل الوحدة القائمة بينه وبين صاحبه الذي قتله «الحبيب الذي هجره أو الوطن الذي ظلمه» مقاربة للعلاقة بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، ليصل إلى نتيجة مفادها أنّ هذه العلاقة لا يمكن أن تنتهي إلا بجرم مشين يقترفه، وهو الذي لم يحمل إلا الخير، ليلقي في روعنا أنه البطل اليوناني النبيل الذي تصادفه المآسي وهو يبحث عن الخير؛ وبذلك يستدر على نفسه العطف والرحمة.

وأما في البيت التاسع فإن الإشارات التراثية تصل إلى مرحلة الاكتظاظ، ولعل هذا يعكس الضغط الذي يعاني منه الشاعر وهو في هذه اللحظة الشاعرية حين تفر من فمه الكلمات، فيرحل إلى عالم التاريخ ليبحث عن الأشياء التي تجسد مأساته، ومن هنا فإننا نجد في هذا البيت إشارات ثلاثاً، وهي نماذج من لحظات الخطأ البشري الذي لا يعصم منه حتى من الأنبياء جراء تسويل الشيطان لهم، وكأن الشاعر هنا يقول: إني لم أخطأ فلا ذنب لي، ولم أقطف الثمرة المحرمة، وليس لي أخ في العير حتى يكون جزائي مؤلماً، وهي إشارات تعكس نمو الحدث، وتأزم الحالة الشعورية عند الشاعر.

ومادام أنّ قراءة التاريخ من هجيري الشاعر، وقد كانت نتيجة هذه القراءة الحكم على التاريخ بالإفلاس المعنوي، وهذا يعكس شدة أزمته، فها نحن أولاء نراه ينطلق ليراجع التاريخ ليقول في البيت الرابع عشر:

لا لا أخ لك لم تلده الأم، هل
ثمر يكون وليس من إيراقه

والشاعر في هذا البيت كأنه يغرز خنجره في خاصرة التاريخ عندما يسجل سقطات التاريخ عبر رؤيته هو، وما دام أن صديقه خالف ظنه وقلب له ظهر المجن، فإنه يحكم على التاريخ بالإفلاس، ويقلب نظرياته وأمثاله ليظهر عواره، ونحن في هذا المقطع من النص نلمح تصاعد النظرة المأساوية، ورؤية التاريخ بعين سوداوية، إلا إن الشاعر استطاع أن يوظف هذه النظرات في تكثيف رؤيته الشاعرية، والتنفيس عن مشاعره، ونلمح مظهراً من مظاهر هذا التنفيس في تكرار حرف النفي في أول البيت.

نص فاعل

ومن المفارقات التي تشي بروح الانهيار والتزعزع أمام التاريخ على الضد من البحتري، الصور الجميلة والمتلاحقة في النص والتي تؤكد ما قلنا، ومنها قوله:

شبحاً جعلت نهايتي فسفينتي
حيرى وموج البحر في أشواقه
كم زرت كوكبه فهل أنا مبحر
والناس يحترفون في إغراقه

إنّ هذه الصور وغيرها من الوسائل التعبيرية في هذا النص تؤكد أننا أمام نص فاعل استطاع أن يقدم تجربته الشعورية متقاطعة مع غيرها في اتساق وتلاؤم مما يفرض علينا أن ننطلق في قراءته متكئين على عنصر الوعي النفسي لحالة الشاعر، ومن هنا نتذكر الوحدة النفسية إذ نراها مسيطرة على الجو العام للنص، ونقول: كان للشاعر خاصيته الأسلوبية الفريدة في تحميل إشارته كل الإيحاءات الممكنة، وفي إقامة نصه متوازناً بين التراث واستبطانه وبين اللغة وتحميلها الدلالات الحديثة، فقد كان الشاعر عبر استدعائه لأحداث التاريخ يحاول رؤية المستقبل بعين الماضي كما يقولون، وهذا يذكر بمقولة كلود روى: «أمّا الكتابة فهي عملية الغياب توصلاً لحضور أقوى»(٤).

وعلى كل، ففي نهاية هذه الدراسة بقي أن نقول: إن هذه القراءة قراءة لا تنفي غيرها؛ لأنها تحاول مقاربة النص عبر أثير واهتزاز محددين، ومن هنا فإن هذا النص بلغته المشحونة مازال مفتوح الإشارات أمام قارئيه، ولا أزعم أني قد استنفدت القول فيه، والذي أرجوه أن أكون قد وفقت في هذه القراءة لإلقاء بعض الضوء على آفاق هذا النص.

ابتهال العبدالله
الأردن

الهوامش والمراجع

١. هنا يذكرنا بمقولة خلف الأحمر لأحدهم عندما قال له: إذا قلت شعراً فلا أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك من النقاد. فقال له خلف: إذا أعجبك درهم وقال لك الصيرفي: إنه مزوّر فماذا ينفعك؟
٢. د. نصر أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية ص ٤٤ ـ ٤٥.
٣. الأسلوبية والأسلوب. د. المسدي، ص١٧٠.
٤. دفاعاً عن الأدب من سلسلة زدني علماً، ترجمة هنري زغيب، ص١٠.



مستقبل الثقافة
في العالم العربي

فوز الصيني كسينغيانغ
بجائزة نوبل للآداب

جمع وتوثيق عادات الخليج

اليونسكو والقدس

الثقافة العربية في البلقان
وشبه القارة الهندية



خاتمة المطاف :

الإنسان
والبيئة

مستقبل الثقافة



الأمير عبدالله بن عبد العزيز

يرعى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني ندوة ثقافية دولية بعنوان «مستقبل الثقافة في العالم العربي»، وقد كان من المقرر لها أن تقام في الفترة من ٢٢حتى٢٤ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، ولكنها أجلت لأسباب تنظيمية كما صرح القائمون عليها. ومن المتوقع عقدها خلال هذا الشهر.

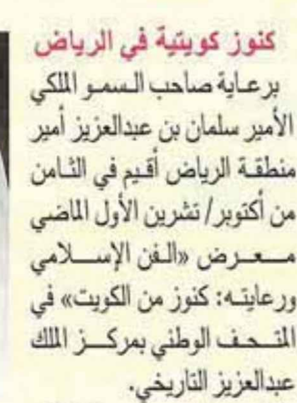
تنظم الندوة مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ضمن برنامجها الثقافي الشامل الذي أعدته للمشاركة في الاحتفال بمدينة الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م.

وتتناول الندوة موضوع مستقبل الثقافة في ثلاثة محاور جاءت عناوينها على النحو الآتي: «واقع الثقافة في البلاد العربية: السياسات والخطط الثقافية العربية»، و«آفاق المستقبل للثقافة العربية»، و«أبعاد ثقافية عالمية».

وتقصد الندوة إلى تحقيق وعي أفضل بواقع الثقافة في البلاد العربية، وتعميق الاحساس بأهمية الثقافة في المجتمعات العربية وتشجيع الجميع على تنميتها في أنفسهم ولدى غيرهم، والوقوف على أهم المشكلات التي يعيشها ذلك الواقع الثقافي، والبحث عن الحلول المناسبة والعلمية لتلك المشكلات، وتكوين تصور معمق وشمولي لمستقبل الثقافة في البلاد العربية.

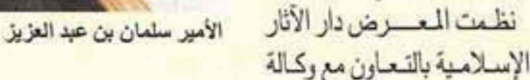
يشارك في الندوة عدد كبير من الأدباء والمثقفين، وأهم الشخصيات المشاركة: د.محمد عمارة مصطفى، ود.أحمد عبيد الكبيسي، ود.رضوان السيد، ود.منصور الحازمي، ود.عباس صالح طاشكندي، ود.تركي علي ربيعو، ود.محمد السالم، ود.مراد وهبة جبران، ود.يحيى محمود بن جنيد، ود.عبدالله سيد ولد أباه، ود.محمد عابد الجابري، ود.سعد البازعي، ود.جيمس ديكاتوري، ود.نور خالص مجيد، ود.أبو زيد المقري الإدريسي، ود.إسماعيل بن الحاج إبراهيم، والعميد طارق عبدالحكيم، ود.إبراهيم غلوم الأحمدي، ود.عبدالله المعطاني، ود.عبدالوهاب المسيري، ود.فهد العرابي الحارثي، ود.رشيد العناني، ود.علي أومليل، ود.عبدالله محمد الغذامي، ود.خالد الدخيل، ود.كافية رمضان، ود.اعتماد خلف، ود.عزيزة المانع.

كنوز كويتية في الرياض



الأمير سلمان بن عبد العزيز

برعاية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض أقيم في الثامن من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي معرض «الفن الإسلامي ورعايته: كنوز من الكويت» في المتحف الوطني بمركز الملك عبدالعزيز التاريخي.



نظمت المعرض دار الآثار الإسلامية بالتعاون مع وكالة الآثار والمتاحف في وزارة المعارف السعودية بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٠م.

قسم المعرض أربعة أقسام: يمثل القسم الأول حقبة الإسلام الأولى (بعد الهجرة إلى المدينة)، والثاني اختص بالعصر العباسي (١٠٥٠ - ١٢٥٠م)، وخصص القسم الثالث لعصر الدول والإمارات (١٢٥٠ - ١٥٠٠م)، والقسم الرابع عن عصر الإمبراطوريات (١٥٠٠ - ١٨٠٠م).

وقد ضم المعرض مجموعة نادرة من التحف الإسلامية التي تم اختيارها من بين أكثر من ٢٠ ألف تحفة منوعة، من تلك التحف: مخطوطات من المصحف الشريف، ومزهريات زجاجية، وأباريق، وحلي، وأطباق، وخزفيات، واصطرلابات.

التكامل الثقافي العربي

عُقدت في ٣٠ سبتمبر/ أيلول الماضي ندوة عن «التكامل الثقافي العربي» نظمها المجمع الثقافي العربي في لبنان، شاركت فيها ١١ دولة عربية. وقد تناولت الندوة التكامل الثقافي العربي على مستوى: الجامعات، ووزارات الثقافة، والمؤسسات الثقافية.

فتحدث د.أحمد أبو زيد من مصر، عن المستوى الأول من التكامل، مشيراً إلى غياب دور اتحاد الجامعات العربية؛ مما عمق الهوة التي تفصل بين الجامعات العربية، وأكد أن الحلول تكمن في اتخاذ بعض الخطوات الآتية وأهمها: الرجوع إلى الجذور الأولى بإحياء التراث العربي في أعمال مشتركة بين الجامعات العربية، وربط الجامعات العربية بشبكة معلومات لتبادل المعارف.

وقال د. ناصر الدين الأسد - من الأردن - عن التكامل بين وزارات الثقافة: «لا يجوز أن نفهم الآن أن الوحدة الثقافية تعني صك عقول الناس في قالب واحد، ودمغها بدمغة تحول دون التنوع والتعدد

والخصوصية المحلية، وإنما الوحدة هي الإطار العام الواسع الذي يمثل الانتماء إلى منابع العقيدة، ومصادر التراث، والانتساب إلى روح الأمة وتقاليدها».

وأكد د. علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب أهمية نشاط بعض المؤسسات الثقافية، مشيراً إلى أن أعمالاً عربية تتواصل في إطار المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة - على سبيل المثال - وهي تجعل من التكامل في المجال الثقافي مشروعاً قائماً يستمر التعلق به.

فوز الصيني غاو كسينغيانغ بجائزة نوبل للآداب


غاو كسينغيانغ

بعد نقاش طويل أدى إلى تأخير الإعلان عن اسم الفائز بجائزة نوبل للآداب هذا العام عدة مرات لعدم اتفاق أعضاء الأكاديمية الملكية السويدية على اسم معين، أعلن سكرتير الأكاديمية هوراس انغدال في يوم الخميس ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي في استوكهولم عن فوز الكاتب الصيني غاو كسينغيانغ Gao Xingjiang بجائزة نوبل للآداب لهذا العام «تقديراً لعمل يتميز بشرعية كونية، وبصيرة محزنة وإبداع لغوي فتح طرقاً جديدة للفن الروائي والدرامي الصيني»، وجاء في بيان الأكاديمية أن غاو «يتمتع بأعمال أدبية تولد مرة بعد أخرى من نضال الفرد لينجو من تاريخ الجماعة. فهو مشكك لا مثيل له في العالم، وأكد أنه لا يجد الحرية إلا في الكتابة».

ومع أن فوز الصين كان متوقعاً إلا أن فوز غاو كان هو المفاجأة، فقد رشح الصحفيون الشاعر الصيني بي داو الذي تردد اسمه كثيراً في الآونة الأخيرة مع عدد من الأسماء الأخرى، مثل البلجيكي هيغو كلاوس، والسويدي توماس ترانسترومر، وقد كان هذا الفوز مفاجأة حتى بالنسبة إلى غاو نفسه الذي صرح بقوله: «لقد فوجئت»، معترفاً أنه لم يكن يعتقد أنه بين المرشحين.

ولد كسينغيانغ في مقاطعة غانزهو الواقعة في شرق الصين في الرابع من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٠م، من أب موظف، وأم ممثلة في مسرح الهواة، وقد ورث عنهما حبه للكتابة المسرحية والدراما والإخراج، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس الصين الشعبية، ودرس اللغة الفرنسية في معهد اللغات في بكين، وبدأ في نشر مقالاته باللغة الفرنسية عام ١٩٧٩م، وتقديم مسرحياته على مسارح الصين حتى عام ١٩٨٦م حين منع من عرض مسرحيته «الشاطئ الآخر»، ولم يعرض أي عمل بعد ذلك في الصين.

غادر الصين عام ١٩٨٧م بعد أحداث ساحة «تيان ان من» المعروفة، ووصل إلى فرنسا لاجئاً سياسياً، وحصل على الجنسية الفرنسية منذ ثلاث سنوات، وقد رفض الكاتب أن ينظر إليه كاتباً سياسياً منشقاً، وقال: «السياسة لم تكن يوماً من مشاغلي. لقد عشت وسط عائلة ليبرالية، وعرفت طفولة سعيدة، وعملت في المسرح منذ الصغر مع والدتي التي كانت ممثلة».

ويعدُّ كسينغيانغ أول صيني يفوز بهذه الجائزة منذ تأسيسها، وهو أيضاً رسام ومؤرخ ومترجم، إضافة إلى كونه روائياً متوسط المستوى، وقد عرف في الصين رجل مسرح أكثر من كونه أديباً.

ومن أهم أعماله روايته «جبل الروح» ١٩٩٥م، والتي ربما كانت السبب في منحه الجائزة، وقد بيع منها عشرة آلاف نسخة منذ عام ١٩٩٥م، ولكن هذا الرقم سيتجاوز مئة ألف نسخة خلال أيام بعد فوزه بجائزة نوبل.

ومن الأعمال الأخرى رواية «كتاب رجل وحيد» دارلوب - ٢٠٠٠م، و«في الحديقة» - صحيفة لوموند - ١٩٨٦م، و«الحبر والنور» - دارلوب - ١٩٩٨م، و«أقرب مكان للسماء»، ومسرحية «موقف الحافلة» في الثمانينيات، ورواية «الألم الكبير»، ومسرحية «الهروب».

وتأتي فرنسا في طليعة الدول التي حاز كتابها على جائزة نوبل للآداب، إذ فاز بها (١٢ أديباً) فرنسياً، تليها الولايات المتحدة الأمريكية (١٠ أدباء)، وبريطانيا (٨ أدباء)، ثم ألمانيا (٧ أدباء)، وإيطاليا والسويد (٦ أدباء) لكل منهما، وفاز بالجائزة أدباء من دول أخرى من بينهم الأديب العربي نجيب محفوظ الذي فاز بها عام ١٩٨٨م.

وعقب فوز كسينغيانغ اتهمت الصين اللجنة التي اختارت الفائز بأن لها أهدافاً سياسية، وأصدرت الخارجية الصينية بياناً جاء فيه أن منح الجائزة لغاو يظهر أن جائزة نوبل للآداب تستخدم لأغراض سياسية ولا تستحق التعليق عليها.

وكان لفوز غاو بهذه الجائزة ردود فعل متباينة، فقد عبر الناقد فنتان أوتووله، في صحيفة «أريش تايمس» عن رأيه أن قرار الأكاديمية السويدية كان مبعثاً للإثارة، ووصف غاو بأنه «أحد الرسامين القلائل الذين تجرؤوا على تجاوز الأطر التي تحدد مفهوم الأدب، وأنه استطاع بطريقة ما إعادة التقاليد الغربية إلى أصولها، إذ استحضر كثيراً رؤية برتولد بريخت في المسرح الصيني»، وقد اتفق معه الناقد الأمريكي ميكائيل سيلفربلات من لوس أنجلوس الذي قال: « إننا في الولايات المتحدة انتظرنا أن تكون الجائزة من نصيب روث أونابيول لكن غاو كسينغيانغ هو الأفضل».

وفي ألمانيا توقع النقاد فوز الكاتب الصومالي نور الدين فرح بهذه الجائزة، وكان فوز غاو صدمة كبيرة لهم، وقد عبرت ممثلة دار نشر «سوركومب» الشهيرة عن حزنها، وقالت: «من المؤسف أننا هنا في ألمانيا، لم نعثر على

أي عمل من أعمال الحائز على جائزة نوبل عام ٢٠٠٠م، مترجمة إلى الألمانية. وقد سألنا عنه عدداً من المختصين في الأدب الصيني الحديث، فأجابوا جميعاً بأنه لم يسبق لهم أن سمعوا باسمه!!».

وعلى الصعيد العربي عدّ الكتّاب والمبدعون في مصر أن فوز غاو كسينغيانغ بهذه الجائزة كسر لسياسة العولمة وإنهاء لحالة الاحتكار الأوربي للجائزة على مدى تاريخها.

وفي المغرب أجمع الكتّاب على عدم معرفتهم بالكاتب الفائز، وأرجأ بعضهم ذلك إلى عدم انتشار الثقافة الصينية بالمغرب، وعدم التواصل الحاصل في هذا المجال حتى على مستوى المثقفين فيما بينهم.

وسيحصل الأديب الصيني على مبلغ تسعة ملايين كورون سويدي (١٫٠٧٧ مليون دولار)، وهو قيمة الجائزة التي ستسلم رسمياً من ملك السويد كارل الخامس عشر غوستاف في العاشر من ديسمبر، وهو يوم رحيل نوبل الذي توفي في سان ريمو بإيطاليا في عام ١٨٩٦م.

شخصيات القرن العشرين


فرانز كافكا

عُقدت في الرابع من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي ندوة أدبية في مقر المكتبة الوطنية الفرنسية، لمناقشة الأعمال الروائية للكاتب التشيكي فرانز كافكا، التي عبر فيها عن يأس الإنسان أمام عبث الوجود.

جرت الندوة في إطار اللقاءات التي تعقد تحت شعار «الشخصيات التي أثرت في الأدب العالمي في القرن العشرين»، وقد حضرها لفيف من كبار الأدباء الفرنسيين وعلى رأسهم «كلودن رابون»، و«ألن فليشر»، و«جوردن آرتور».

وكان كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤م) المولود في براغ لأبوين يهوديين، قد ارتبطت أعماله بمسحة من الغرائبية والوجودية، وأشهر أعماله الروائية «المحاكمة»، و«القلعة»، وله قصص قصيرة من أشهرها: «المسخ»، و«مستعمرة العقاب»، و«الحكم»، و«فنان الجوع».

جمع وتوثيق عادات الخليج

عُقدت في الفترة من ٢ إلى ٤ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي ندوة «جمع وتوثيق العادات والتقاليد المرتبطة بدورة حياة الإنسان في دول مجلس التعاون»، نظم الندوة مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون الخليجي في أبو ظبي.

اشتملت الندوة على عدة محاور أهمها: الاتجاهات النظرية الحديثة في جمع وتصنيف ودراسة عادات وتقاليد دورة الحياة البشرية بمراحلها الثلاث «الميلاد، والزواج، والوفاة» من المنظور الحضاري والإطار العلمي، وتجربة مركز التراث الشعبي في جمع وتصنيف عادات وتقاليد دورة الحياة.

قدم الدراسات وأوراق العمل كل من: الدكتور محمود الكردي عن «ملامح التكيف مع الواقع الاجتماعي»، والدكتور علي المكاوي عن «عادات الزواج في قطر»، وكل من الدكتور محمود عودة والدكتورة دلال الزين عن «عادات الميلاد والزواج في الكويت».

وتتحدد أهمية العناية بجمع مادة العادات والتقاليد - كما أشار الدكتور أحمد علي مرسي - في الحفاظ عليها من الاندثار قبل أن تذهبها رياح التغيير التي تمر بها دول المنطقة. ومن المقرر عقد الندوة المقبلة بدولة الكويت في مطلع العام المقبل.


منطقة أثرية

مقبرة رومانية

اكتشفت مؤخراً مقبرة رومانية تعود إلى الفترة بين القرنين الثالث والخامس قبل الميلاد في عين جنات قرب مدينة سليانة (شمال تونس).

وأوضح مسؤولو عمليات التنقيب عن الآثار في هذه المنطقة أنه على الرغم من وجود كتابة محفورة تدل على أن عين جنات ضمت في القرن الثالث بعد الميلاد مدينة رومانية كاملة، لكن المعلومات المتوافرة لا تسمح بمعرفة تاريخ هذه المقبرة بدقة أكبر.

وأسفرت عمليات التنقيب في المنطقة ذاتها عن اكتشاف نصب رخامي على شكل مسلة مصدره روما يحمل رسوماً لإله روماني مما يدل على متانة العلاقات بين روما ومقاطعاتها في شمال إفريقية. وتقع عين جنات في المحيط الأثري الذي يربط مدينة قرطاج في شمال تونس العاصمة بمدينة حيدرة على الحدود الجزائرية في الوسط الغربي. ويضم هذا المحيط، وفق مسؤولي عمليات التنقيب، ٦٤ مدينة رومانية.

معرض الرياض الدولي الثامن للكتاب

ضمن فعاليات الاحتفال باختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، يقام معرض الرياض الدولي الثامن للكتاب الذي تنظمه جامعة الملك سعود في الفترة من ١٧ إلى ٢٧ أكتوبر/ تشرين الأول الجاري.

يشارك في المعرض أكثر من ٥٠٠ دار نشر وجهة حكومية محلية وعربية وعالمية، ويبلغ عدد أوعية المعلومات (الكتب، والمواد المرئية والمسموعة) التي ستعرض أكثر من مئتي ألف عنوان من أحدث ما أنتجته دور النشر في شتى الموضوعات واللغات، وعُرضت على مساحة ٦٠٠٠ (ستة آلاف) متر مربع.

ويصاحب المعرض ندوة ثقافية كبرى وعدد من الندوات والمحاضرات والأمسيات الشعرية.

إكسبو ٢٠٠٠


التويجري

أقيم «جناح الإسلام» في معرض ٢٠٠٠ في هانوفر، في الفترة بين ٢٢ يونيو/ حزيران إلى ٤ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي مصحوباً بأنشطة ثقافية متنوعة بين معارض فنية وندوات ومحاضرات، ومن أهم تلك الأنشطة: محاضرة الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري: «حوار الحضارات على مشارف الألفية الثالثة» التي عُقدت في التاسع من يوليو/ تموز الماضي، وفي السادس والعشرين من أغسطس/ آب الماضي أقيمت محاضرة الدكتور عبدالله عمر نصيف عن «مساهمة المسلمين في الحضارة الإنسانية»، وفي الثامن والعشرين من الشهر نفسه ألقى المهندس لطف الله قاري محاضرة تحت عنوان «صحة البيئة في التراث العلمي العربي الإسلامي»، كما أقيم معرض للفنانة صفية بن زقر في ١٦ سبتمبر/ أيلول الماضي، واختتم المعرض في الرابع من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي بيوم جناح الإسلام.

ترميم الإخوة الثلاثة

قامت مديرية آثار ومتاحف تدمر - في الآونة الأخيرة - بترميم المدخل الرئيس لدفن الإخوة الثلاثة الأرضي الذي بني في تدمر عام ١٤٦ ميلادية. وذكرت مصادر المديرية أن بعثة الترميم تعمل على إعادة بناء المنحدر المتهدم وجدران المدفن وأدراجه؛ وذلك لأهميته التاريخية والأثرية، مشيرة إلى أن هذا المدفن معروف عالمياً ومنشور عنه في جميع الكتب التي تتحدث عن تدمر.

ويضم المدفن بداخله صوراً ولوحات رائعة من الفريسك (وهي الصور الملونة المنفذة على الجص)، وأربعة أسرة جنائزية كاملة منحوتة بغاية الدقة والاتقان.

معرض شاتوبريان

أُقيم بقاعة للفنون الفرنسية معرض لأعمال الروائي والكاتب الفرنسي الراحل فرانسوا - رونيه شاتوبريان بمناسبة مرور ١٥٢ عاماً على وفاته. وضم المعرض الذي استمر حتى منتصف أكتوبر/ تشرين الأول الماضي مجموعة من المخطوطات لبعض الأعمال التي ألفها الكاتب الفرنسي، منها «رحلة إلى أمريكا»، إلى جانب بعض الكتب واللوحات الفنية التي كان يقتنيها.

المعتقدات الآرامية

صدر مؤخراً عن دار الشروق كتاب جديد يحمل عنوان «المعتقدات الآرامية» للباحث العراقي الدكتور خزعل الماجدي.

وركز الكتاب على محور رئيس استهدف كشف جملة من الجوانب المهمة من حياة الآراميين على الرغم من صعوبة عملية البحث وتعقيدها، والتي تحاول دراسة الجوانب التاريخية والتراثية وتحليلها؛ بسبب قلة المتوافر من الآثار والكتابات واللقى التي تتحدث عنهم، وإلى جانب الغموض المحيط بالآراميين قياساً إلى الأقوام المجاورة التي سبقتهم أو التي تزامنت مع وجودهم.

أمادو و«جنة الشياطين»


أمادو

شاركت مصر في مهرجان السينما الإفريقية بمدينة خريبكا المغربية الذي أقيم في شهر سبتمبر/ أيلول الماضي، وتمثلت مشاركة مصر بفيلمين أحدهما فيلم «جنة الشياطين» لأسامة فوزي، وهو مأخوذ من رواية «كونكان العوام أو الرجل الذي مات مرتين» للكاتب البرازيلي خورخي أمادو.

وقد فاز الفيلم قبل هذه المشاركة بعدد من الجوائز منها: ذهبية مهرجان دمشق الدولي عام ١٩٩٨م، وذهبية المهرجان القومي للسينما المصرية مع ست جوائز في

المهرجان نفسه، كما حصل على ذهبية مهرجان الإسكندرية، بالإضافة إلى جائزة أفضل سيناريو عام ١٩٩٨م.

صدور «زوكسيز»

صدرت في منتصف أكتوبر/ تشرين الأول الماضي مجلة فرنسية فصلية جديدة تحت اسم «زوكسيز» باللغتين الفرنسية والإنجليزية، ويرأس تحريرها السيدة جيزيل برينو سبكيرا، وتهتم المجلة بالسينما والفن التشكيلي.

المعرض السادس للكتاب الدولي بالجزائر

أقيم في الفترة من ١٩ إلى ٢٤ سبتمبر/ أيلول الماضي معرض الجزائر الدولي السادس للكتاب، بمشاركة ٣١٤ دار نشر ممثلة في ١٥ بلداً عربياً وأوربياً.

ولقي المعرض إقبالاً من القارئ الجزائري، ولكن غلاء أسعار الكتب حال بين أكثر زواره والشراء، وأشار بعض الزوار إلى أن بعض الكتب كانت مرتفعة السعر في المعرض، وهي في المكتبات العامة أقل قيمة. وقد نُظم على هامش المعرض أمسيات شعرية، وندوات ومحاضرات تناولت موضوعات: نشر الكتاب وتسويقه، والكتابة والحريات، وأدب التسعينيات، والإعلام الثقافي، والإبداع والمبدعين.

كنوز الفخار

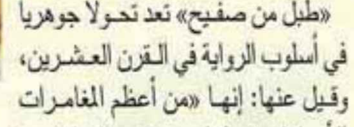
انتشل صيادون وعلماء آثار بريطانيون وفيتناميون كنوزاً من الفخاريات الزرقاء والبيضاء الفيتنامية، منها ٣٠٠ ألف قطعة من أطباق بورسلان - سلالة مينج - الأزرق والأبيض وجميعها في حالة ممتازة، كما تضم المحتويات أيضاً سلطانيات وأطباق البورسلان، وقدوراً وأطباقاً مزخرفة (بالتنانين والحيوانات الأسطورية، أو مطلية بصور أشخاص، أو حيوانات، أو أزهار، أو بيوت، أو باجورات - معابد صينية - وسرادقات)، وهناك جرار وفناجين مشكلة.

قطعة من الكنوز

أمضت هذه الكنوز ٥٠٠ سنة هادئة في قاع بحر الصين الجنوبي (قبالة شاطئ فيتنام)، وهي الآن مودعة في قسم التحف الصينية في مركز جون لويس منذ شهر أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، وقد فُتح المزاد للبيع على شبكة الإنترنت منذ أكتوبر الماضي، ومن المتوقع أن يستغرق هذا المزاد ٣٠ أسبوعاً.

قال جون جاي اختصاصي سيراميك جنوب شرق آسيا في متحف فيكتوريا وألبرت - لصحيفة التايمز اللندنية: «إنه اكتشاف استثنائي يُحدث ثورة في فهمنا للفخاريات الزرقاء والبيضاء الفيتنامية، وهنالك الكثير من الأشياء المدهشة، وأنواع السيراميك التي لم نرها من قبل».

«طبل من صفيح» إلى العربية



جونتر جراس

ترجم الدكتور علي عبدالأمير صالح رواية «طبل من صفيح» للكاتب الألماني جونتر جراس، وصدرت الترجمة - وهي الأولى - إلى العربية عن دار الشؤون الثقافية ببغداد.

«طبل من صفيح» تُعدّ تحولاً جوهرياً في أسلوب الرواية في القرن العشرين، وقيل عنها: إنها «من أعظم المغامرات الأدبية في زماننا». وتعتمد الرواية مستويات سرد متعددة، وتضم حشداً من المعلومات والأحداث التاريخية، وقد صدرت أولاً في ألمانيا عام ١٩٠٩م، ثم ترجمت إلى الإنجليزية وبيع منها نصف مليون نسخة في أمريكا عام ١٩٧٩م، وأخرجها الألماني فولكر سلوندروف إلى السينما، ونال عنها جائزتين عالميتين.

ولد جراس عام ١٩٢٧م، وهو متعدد المواهب بين الرسم، والنحت، وتصميم الديكور المسرحي، والكتابة المسرحية، وكتابة الشعر والرواية، وقد حاز جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٩م، ومن أهم أعماله الروائية: «قط وفأر»، و«أعوام الكلب»، و«المخدر الموضعي»، و«سمكة الفلوندر»، و«حقل واسع» وهي آخر أعماله.

ويُشار إلى أنه سبق وتُرجمت هذه الرواية إلى العربية أكثر من مرة، ومن بينها ترجمة لخالد المعالي.

أكتوبر الموسيقى

أُقيم في الفترة من ١ إلى ٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي في قرطاج (في الضاحية الشمالية للعاصمة التونسية) مهرجان «أكتوبر الموسيقى» في دورته السادسة، الذي نظمته وزارة الثقافة التونسية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (يونيسكو) والبعثات الثقافية لبعض السفارات الأوربية في تونس.

وأقيم المهرجان تحت شعار «الرمانة» وهي الثمرة الخاصة بهذا الشهر من كل عام.

وتزامن المهرجان مع الذكرى الـ ٢٥٠ لوفاة الموسيقار جان سيباستيان باخ، فعدها القائمون على تنظيمه مناسبة لتكريم باخ؛ بتقديم أشهر معزوفاته. كما توزعت العروض المقدمة بين: الموسيقى السمفونية، والإنشاد، والعزف المنفرد.

معرض المدرس

أقيم مؤخراً في القاهرة بمركز النقد والإبداع بمتحف أحمد شوقي، معرض للفنان السوري الراحل فاتح المدرس أحد أهم رموز الحركة التشكيلية السورية، ضم المعرض عدداً كبيراً من الأعمال في التصوير الزيتي.

فاتح المدرس

ولد فاتح المدرس في حلب عام ١٩٢٣م من أسرة قروية، وعمل بتدريس اللغة الإنجليزية؛ فاكتسب من ذلك لقب بالمدرس.

يقول الناقد الفني سيد هويدي: بدأ المدرس فناناً سريالياً في الأربعينيات وكان يضع مع أعماله تعليقاً فلسفياً أو أدبياً، ولم يتخل عن هذا الجانب إلا عندما انتقل إلى روما عام ١٩٥٨م؛ ليكتشف عالماً من الأبرياء سحقتهم مآس كثيرة. واتسمت أعماله بعد ذلك بالتجريد اللوني، ثم بمسحة تعبيرية في مرحلة لاحقة كما اتسمت بتلقائية فطرية في بعض الأحيان.

قرن سارتر

صدر عن دار غراسيه الفرنسية للكاتب والفيلسوف الفرنسي برنار هنري ليفي كتاب بعنوان «قرن سارتر - تحقيق فلسفي»، وجاء صدور هذا الكتاب بعد مرور عشرين عاماً على وفاة الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر أحد أهم شخصيات القرن العشرين.

سارتر

وقد أجرت مجلة «لونوفيل اوبسرفاتوار» مقابلة مع ليفي بهذه المناسبة، فسر فيها التجاهل والصمت الذين عرض لهما ساد حول سارتر منذ وفاته، بقوله: «هذا الصمت المصم هو ثمن المجد الهائل الذي حققه سارتر، تلك هي المغامرة التي عاشها مالرو، وأراغون وغيرهما؛ ففي نهاية الأمر طغى وهج أسمائهم على نتاجهم حتى أصبح مجدهم بعد وفاتهم حاجزاً يعيق قراءة أعمالهم، وليس دافعاً للاطلاع عليها!... وينبغي موازاة استبعاده اليوم بمقدار الحب والحقد اللذين أثارهما في زمنه. لم يبق من سارتر بعد عشرين عاماً سوى كليشيهات، صورة سارتر مثلاً فوق برميل أمام مصانع بيانكور. وبالطبع لم يعد أحد يتحدث عن «دروب الحرية» تلك الثلاثية الروائية التي كانت من أهم أعمال النصف الثاني من القرن العشرين».

رحيل الشاعر مهران



محمد مهران السيد

توفي في مصر في ٢٩ سبتمبر/ أيلول الماضي الشاعر المصري محمد مهران السيد عن عمر ناهز ٧٣ عاماً، بعد إصابته بأزمة صحية حادة.

ينتمي مهران إلى جيل الستينيات الشعري في مصر، الذي يضم أمثال: أمل دنقل، وإبراهيم أبو سنة، وفاروق شوشة، وعفيفي مطر وغيرهم.

وللشاعر الراحل سبعة دواوين: «بدلاً من الكذب»، و«الدم في الحدائق»، و«ثرثرة لا أعتذر عنها»، و«زمن الرطانات»، و«طائر الشمس»، و«نغب الشموع»، و«مواجيدي». وله مسرحيتان شعريتان: «الحرية والسهم»، و«حكاية من وادي الملح».

تاريخ تقريباً

«تخيل العالم لو أخفق غزو نورماندي، أو لم يعد رواد فضاء المركبة أبولو من رحلتهم إلى القمر، أو إذا كان ونستون تشرشل لقي حتفه في حادث سيارة أجرة في نيويورك قبل ثمانية أعوام من نشوب الحرب العالمية الثانية.

هذه الأفكار ليست محض خيال؛ فقد نجا تشرشل بأعجوبة من الموت تحت عجلات سيارة أجرة في نيويورك في عام ١٩٣١م، بينما أعد الجنرال دوايت أيزنهاور خطبة يعلن فيها مسؤوليته عن إخفاق غزو نورماندي في عام ١٩٤٤م».

ويجمع كتاب «تاريخ تقريباً» الذي أعده روجر برنز نائب مدير اللجنة الوطنية للسجلات والمطبوعات في الأرشيف الوطني، مذكرات وخطباً مكتوبة بخط اليد، ووثائق حكومية تغطي نحو ٨٠ حادثة كان يمكن أن تغير وجه العالم الذي نعرفه.

وقال برنز: «الناس مولعون دائماً بمعرفة ما كان يمكن أن يحدث، وهذا الكتاب يحاول أن يقدم دليلاً مادياً على أن بعض الأحداث كانت قريبة جداً من الحدوث بشكل مختلف، إنه نوع من تسلسل الأحداث يمكن أن نبني منه تاريخاً مختلفاً». وفي بعض الحالات فإن الوثيقة


أيزنهاور وتشرشل

ذاتها أدت دوراً حيوياً في تغيير الأحداث مثل مجموعة الأوراق السميكة التي كتب عليها الرئيس السابق تيودور روزفلت خطبة وحملها، إذ منعت الأوراق التي لطختها الدماء في ما بعد وصول رصاصة إلى قلبه في أثناء محاولة اغتياله في ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩١٢م.

ويحتوي الكتاب إلى جانب الأحداث التاريخية المعروفة جيداً مثل محاولات المخابرات الأمريكية الخائبة اغتيال الرئيس الكوبي فيدل كاسترو، على وقائع أقل شهرة، ولكنها على الدرجة نفسها من الغرابة، وكان يمكنها أن تغير وجه التاريخ لو كتب لها أن تحدث.

فإذا لم تُكتب الحياة لتشرشل بعد حادثة عام ١٩٣١م فإن نتيجة الحرب العالمية الثانية كانت ستختلف كثيراً في ظل غياب رئيس الوزراء البريطاني القوي العزيمة. ولكن بعد أيام قليلة من استسلام ألمانيا في عام ١٩٤٥م كان تشرشل يعد خططاً مفصلة لحرب عالمية تدور رحاها بين بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا المهزومة من جانب والاتحاد السوفييتي السابق من الجانب الآخر، تبدأ في يوليو/ تموز عام ١٩٤٥م غير أنه بعد أقل من شهرين من إعداد الخطة أطاح الناخبون البريطانيون بتشرشل بعد أن أرهقتهم الحرب في ما كانوا يتطلعون لتغيير اجتماعي.

جوائز أندية الفتيات

أعلنت أندية الفتيات بالشارقة في ٥ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي أسماء الفائزات بجائزة إبداعات المرأة العربية في الأدب في دورته الثالثة، وبلغ عددهن ١٣ أديبة عربية.

ففي مجال الشعر: فازت الشاعرة السودانية روضة الحاج بالمركز الأول، وحصلت زينب أحمد حسين من مصر على المركز الثاني، ونالت المركز الثالث العراقية رسمية زاير.

وفي مجال الرواية: حازت المركز الأول الروائية العراقية ذكرى محمد نادر، وجاءت السعودية قماشة العليان في المركز الثاني.

وفي مجال القصة القصيرة: فازت التونسية رشيدة الشاروني بالمركز الأول، أما المركز الثاني فجاء مناصفة بين الأردنية نهلة محمود والمصرية منار فتح الباب، وحازت المركز الثالث اليمنية هدى العطاس.

وفي أدب الأطفال: فازت السعودية وفاء السبيل بجائزة القصة الموجهة إلى الأطفال، كما حازت العراقية بيداء فاضل عباس جائزة الشعر الموجه إلى الأطفال.

ومنحت لجنة الجائزة الشاعرة الإماراتية جويرية الخاجة جائزة الكاتبة الإماراتية، ومنحت مواطنتها الكاتبة حصة عبدالله الجائزة التشجيعية.

سومر: أسطورة وملحمة


الكاتب السومري دودو

صدر عن دار الشؤون الثقافية في بغداد كتاب «سومر أسطورة وملحمة» للدكتور فاضل عبدالواحد علي في طبعة ثانية بعد أن نفدت الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م.

يضع الكتاب بين أيدي المهتمين بالأدب العراقي القديم آخر ما استجد في حقل النصوص الأدبية المسمارية التي دونت بالسومرية والأكدية (البابلية). فعلى مدار سبعة فصول طويلة يقوم المؤلف بعروض موثّقة مسئلة من الحفريات والتنقيبات والآثار وكتابات علماء اللغة السومرية عن آداب وادي الرافدين وتدوينها ودور المنشدين والشعراء في نقل الأدب شفاهة قبل اختراع الكتابة، مع تدوين نصوص شعرية للشعراء السومريين أمثال الشاعرة انخيدوانا ابنة الملك سرجون الأكدي والشاعر البابلي (كبتي - ايلاني - مردوخ).

ويفرد المؤلف مبحثاً كاملاً عن ملحمة جلجامش بوصفها أسطورة موضوعها الإنسان والخلود والصراع من أجل البقاء. ويقدم دراسة مهمة عن «أدب الحكمة» في وادي الرافدين، ثم دراسة أخرى عن «أدب السخرية». وفي بقية مباحث الكتاب نقرأ ألواناً من الأدب الرافديني الموثق: كالقصة الخرافية، والرسائل، والتراتيل، والرثاء، والغزل، عبر نماذج شعرية ونثرية ينشر معظمها لأول مرة.

صدور الوطن

دشن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية رئيس المجلس الأعلى للإعلام - صدور العدد الأول من


الأمير سلطان يناقش في جولة آسيوية شؤون التسلح والنفط (ص4)
الوطن
المحليات 8
الاقتصاد 15
الثقافة 21
الرياضة 27
المجتمع 41
اللغة العربية مطلب أساسي ويجب أن نتفادى ركود الاقتصاد العالمي

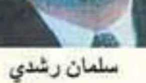
أحد أعداد جريدة الوطن السعودية

جريدة الوطن التي تتخذ من منطقة عسير مركزاً لها، وذلك في ٣٠ سبتمبر/ أيلول الماضي.

وعن سياسة «الوطن»، قال الدكتور فهد العرابي الحارثي رئيس مجلس ادارة مؤسسة عسير للصحافة والنشر التي تصدر عنه الصحيفة: «إن من ضمن السياسات التي ستلتزم بها هذه الصحيفة، ضمن ما قرره مجلس الإدارة، عدم نشر كل ما يتعارض مع ثوابت الأمة في دينها وأخلاقها وقيمها، وعدم نشر ما يتعارض مع المصالح والسياسات الوطنية العليا، وعدم نشر المبالغات أيًا كان نوعها سلبًا أو إيجابًا، وفي المقابل فإن الصحيفة ستهتم بكل ما يندرج في سياق خدمة الأمة وقضاياها، متوخية في ذلك الصدق والموضوعية، وهادفة دائمًا إلى الحقيقة.. الحقيقة مهما كلف الأمر!».

يرأس تحرير الصحيفة قينان الغامدي الذي سبق له رئاسة تحرير جريدة «البلاد» السعودية.

سلمان رشدي يغدر بالإنجليز



سلمان رشدي

ترك الكاتب الهندي الأصل سلمان رشدي صاحب «آيات شيطانية» لندن مهاجراً إلى نيويورك بعد أن وصف العاصمة البريطانية في حديثه للنيويورك تايمز بأنها: «مدينة تفتقر إلى الإلهام»، فيما أطرى على مهجره الجديد نيويورك بالقول: «إن المدينة نسخة من بومباي بضوضائها وحيويتها».

أثار وصف رشدي للعاصمة البريطانية حفيظة الإنجليز الذين شعروا بأن رشدي غدر بهم عندما ذمّ عاصمتهم، فردت الجارديان بقولها: «إن رشدي هجر لندن؛ لأن ذوق البريطانيين الجيد لم يعد يسمح لهم بشراء كتبه»، وعلق جاسبر جيرارد على موقف زميله رشدي متسائلاً: «أهذا هو العرفان بالجميل»، فيما قال أ.ن. ولسون: «إن رشدي متعب جداً».

بدت بوادر رحلة رشدي مع صدور روايته الأخيرة «الأرض تحت قدميها» التي تدور أحداثها في بومباي ونيويورك، وتمر بسرعة في لندن.

تحول رشدي فيما يظهر إلى مؤلف تحت الطلب؛ إذ تعاقد مع دار «راندوم هاوس» على تأليف خماسية نيويوركية أطلق على أولها مسمى «أنا ابن المدينة الكبيرة»، وقد بدأ العمل فيها متناولاً نيويورك كسائح منبهر بناطحات السحاب فيها والحياة السريعة.

فيلم إكسوبري

يقوم المخرج الفرنسي ريجي وارنيه بإعداد فيلم عن الكاتب الفرنسي أنطوان سانت إكسوبري في الولايات المتحدة الأمريكية. فكرة الفيلم مقتبسة من رواية لستاسي شيف وأعدها للسينما إريك جندرسون بعنوان «زمرة من الأشقاء»، وتتولى إنتاج الفيلم إحدى شركات الإنتاج الأمريكية.

ولد الكاتب الطيار أنطوان سانت إكسوبري في ليون بفرنسا عام ١٩٠٠م، واختفى في أثناء قيامه بمهمة رسمية بالطائرة في عام ١٩٤٤م، ومن أشهر أعماله الروائية: «طيران الليل» المنشورة عام ١٩٤٢م، و«الأمير الصغير» المنشورة عام ١٩٤٣م.

قائمة المؤلفين السعوديين

تواصل مكتبة الملك فهد الوطنية العمل على تحديث القائمة الاستنادية لأسماء المؤلفين السعوديين التي صدرت طبعتها الأولى عام ١٤١٩هـ، مشتملة على أكثر من ٣٠٩٠ مؤلفاً ممن لهم كتب منشورة ومقتناة في المكتبة.

وتتم عملية توثيق أسماء المؤلفين السعوديين من خلال جمع المعلومات المطلوبة عن المؤلفين الأحياء مباشرة بالاتصال المتبادل بينهم وبين المكتبة؛ إذ تم تصميم استمارة لهذا الغرض تتم تعبئتها عن طريق المؤلف، وتتلقى المكتبة شهرياً عشرات الاستمارات التي يبعثها المؤلفون من داخل المملكة وخارجها، كما تتم الاستفادة من التعريف الذي يضعه المؤلف أحياناً في الكتاب. كما تم الاعتماد على مصادر التراجم المنشورة من أجل الحصول على البيانات الأساسية للمؤلفين، سواء كانو أحياء أو متوفين. وتلجأ المكتبة أحياناً إلى أقارب المتوفين لاستكمال البيانات عنهم.

ويهدف هذا المشروع إلى إيجاد أداة مرجعية لتوثيق أسماء المؤلفين

السعوديين، وإيجاد صيغ قياسية موحدة لمداخل الأسماء المتفاوتة، ومعرفة الأسماء الحقيقية للأسماء المستعارة، مع إتمام الأسماء الناقصة، وتدوين تاريخ الميلاد والوفاة للمتوفين إذا تم التوصل إلى ذلك.

كما أن لهذا المشروع فائدة كبيرة في الأغراض التوثيقية والبحثية والاسترجاعية في جميع المكتبات ونظم المعلومات المحلية والعالمية.

وفي إطار هذا المشروع الوطني أصدرت المكتبة الطبعة الأولى من هذا العمل مشتملة على أكثر من ثلاثة آلاف مؤلف. ويجري العمل الآن على إصدار الطبعة الثانية التي يتوقع أن تظهر في منتصف عام ١٤٢٢هـ . وقد تم حتى الآن حصر أكثر من سبعمائة مؤلف سوف تظهر أسماؤهم في الطبعة الثانية، ويتوقع أن يكون العدد أكثر من ذلك عند إصدار القائمة الاستنادية في طبعتها الثانية.

وبهذه المناسبة دعت المكتبة المؤلفين السعوديين في جميع أنحاء العالم، ممن لهم كتب منشورة إلى الاتصال بالمكتبة الوطنية لإيداع نسختين من أعمالهم الفكرية، وتعبئة الاستمارة المخصصة لهذا العمل المرجعي حتى يتم توثيق أسمائهم في الطبعة الثانية.

جحيم لا اسم له

صدرت في باريس بالفرنسية ذكريات المناضلة اللبنانية سهى بشارة - جان دارك لبنان كما نعتها الناشر الفرنسي - بعنوان «مقاومة» شاركها في كتابتها الصحافي الفرنسي جيل باري، استعادت سهى سيرتها طفلة ومراهقة ومناضلة، وسيرتها داخل سجن الخيام الذي تطلق عليه مسمى «الجحيم الذي لا اسم له».

سهى بشارة

دخلت سهى السجن في الحادية والعشرين من عمرها ولم تخرج منه إلا بعد عشرة أعوام (١٩٨٨ - ١٩٩٨م)؛ بعد قيامها بالعملية التي سُميت «زهرة الجنوب» إذ حاولت اغتيال انطوان لحد قائد جيش لبنان الجنوبي العميل لاسرائيل.

معبد هلنستي

اكتشف فريق من معهد الآثار والإنثربولوجيا في جامعة اليرموك بالأردن، وجود معبد هلنستي في «خربة البدية» الأثرية الواقعة في مدينة عجلون التي تبعد ٧٠ كيلومتراً شمال عمان.

ويعود هذا المعبد إلى أقدم فترة استيطانية في الموقع، وقد عُثر فيه على رأس ثور منحوت بشكل نافر على أحد حجارة الواجهة الخارجية للجدار الشمالي للمعبد؛ وكان الثور من الحيوانات المقدسة في تلك الفترة، ويرمز إلى القوة والخصوبة في الحضارات اليونانية والرومانية. كما اكتشف في الجهة الشمالية الغربية من الموقع كهف واقع تحت أرضية الكنيسة المكتشفة عام ١٩٩٨م فيه ثلاث حجرات استخدمت للعبادة وممارسة الشعائر الدينية قبل بناء الكنيسة.

كما عثر الفريق على حجر كبير الحجم يحمل زخرفة نافرة تمثل إكليلاً من النباتات محاطاً بعمودين، وعُثر على أقدم العقود عند منتصف الجدارين الشمالي والجنوبي من المبنى كانت مستخدمة لرفع السقف، وجرى الكشف أيضاً عن وحدة بنائية في الجهة الجنوبية الغربية كانت مخصصة لعصر الزيتون.

المسرح والتطور الاجتماعي



دريد لحام

في إطار فعاليات المؤتمر الدولي للمسرح ودوره في التنمية الاجتماعية عقدت في المعهد الملكي بعمّان ندوة بعنوان «المسرح والتطور الاجتماعي»، شارك فيها كل من الفنان السوري دريد لحام، والفنان البوسني سيان دجولك تحدث فيها كل منهما عن المسرح من واقع تجربته في التمثيل المسرحي.

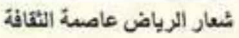
وفي بداية الندوة تحدث الفنان دريد لحام عن ماهية شكل المسرح الذي يستطيع تطوير التنمية الاجتماعية، وعدّ أن الدراما أصلاً هي القدرة على التساؤل، وأن المسرح في دوره الاجتماعي هو الانتقال من المسرح النمطي إلى التجريدي الذي يفتح آفاقًا عريضة نحو أساليب مسرحية جديدة. وأكد دور المسرح في مجال التنمية الاجتماعية موضحاً أن على المسرح أن يتماشى مع الواقع.

ثم انتقل الحديث للمسرحي البوسني سيان دجولك الذي أكد أن المسرح مكان للعنفوان، ويطرح أسئلة ضخمة وكبيرة وإمكانات للحياة. وأما على صعيد تجربته الشخصية فقد أشار إلى أن العمل داخل المسرح ضمن الظروف الصعبة التي تعيشها البوسنة، قد وضع العمل أقرب إلى الخيال في المسرح.

مؤتمر وزراء الثقافة في عاصمة الثقافة

تلقت الأمانة العامة لبرامج الرياض عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م من المنظمة العربية للتربية والعلوم أسماء وفود عدد من الدول العربية وهي: البحرين، وعمان، واليمن، وليبيا، والمغرب، وقطر، وسورية، والأردن، وموريتانيا، وفلسطين، التي وافقت على

المشاركة في مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي في دورته الثانية عشرة، والمزمع عقده في مدينة الرياض خلال الفترة من ١٦ إلى ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني القادم.


شعار الرياض عاصمة الثقافة

وسيتناول المؤتمر عدداً من القضايا الثقافية الأساسية التي قرر الوزراء خلال اجتماعهم السابق، الذي عقد في مدينة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٩٨م، استكمال دراستها تمهيداً لاعتمادها وهي: تحقيق التكامل بين السياسات الثقافية والسياسات الإعلامية في الوطن العربي، والنص المعدل لتشريع تراسل البيانات بين الدول العربية، وحقوق المؤلف والملكية الفكرية، والقناة الفضائية الثقافية العربية. وسيكون موضوع التصنيع الثقافي وإنشاء سوق ثقافية عربية مشتركة، هو الموضوع الرئيس لهذا المؤتمر، وقد شارك في كتابة وثائق محاوره عدد من الخبراء السعوديين. وسيسبق اجتماع الوزراء اجتماع لمكتب اللجنة الدائمة للثقافة العربية للتحضير للمؤتمر، الذي يتكون من: مصر رئيساً للمكتب، وعضوية كل من تونس والمغرب والإمارات وسوريا وفلسطين والسعودية.

مفاتيح القرن ٢١

صدر عن المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم «يونسكو» من مقرها في باريس، كتاب جديد بعنوان «مفاتيح القرن الواحد والعشرين» من تأليف الكاتب الفرنسي جيروم بينديه، ويتناول الكتاب توقعات الأحداث خلال القرن الحالي، والتطورات التقنية «التكنولوجية» والعلمية في مجالات العلوم والثقافة، ويعرض أهم الأحداث التي بدأ بها القرن الحالي في العالم، ومستقبله سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

مهرجان مسقط ٢٠٠٠

من المقرر أن يفتتح في العاصمة العمانية (مهرجان مسقط ٢٠٠٠) الذي يعد أكبر حدث اجتماعي وثقافي وترفيهي تشهده مسقط، وذلك في الفترة من ٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول إلى ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني. وسيشارك في المهرجان ٣٢ دولة في الفنون الشعبية والعروض الفنية، إلى جانب مشاركة عدد من الفنانين العرب والأجانب.

ويتضمن المهرجان فعاليات خاصة بالأطفال كالعروض المسرحية وألعاب السيرك وغيرها من الألعاب الترفيهية، وعروضاً لفرق الإبداع الفنية ومعارض وسباقاً للسيارات الصغيرة.

الرياض تحتفي بالفن التشكيلي اللبناني


رفيق شرف

بمناسبة الاحتفال باختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، نظمت الرئاسة العامة لرعاية الشباب في مدينة الرياض، معرض للفن التشكيلي اللبناني المعاصر، في الفترة من الثالث إلى الرابع عشر من رجب الماضي برعاية صاحب السمو الملكي الأمير نواف بن فيصل بن فهد نائب الرئيس العام لرعاية الشباب، وشارك في افتتاح المعرض وفد لبناني يترأسه الدكتور عمر حليلب المدير العام للثقافة والتعليم العالي، والتشكيلي اللبناني نزار محسن طاهر وعادل قديح.

ضم المعرض ١٠٢ لوحة لوحة لأكثر من ٦٣ فناناً وفنانة، منهم: شفيق عبود، وعارف الريس ، وسلوى شقير، وفاطمة الحاج، ونيكول حرفوش، وهيلين الخال، ورفيق شرف.

وأخذ الناقد الفني أحمد خوجلي على المعرض أنه ضم أعمالاً انتجت منذ أكثر من عشرين سنة، وأحدث أعماله أنتجت منذ عشر سنوات، كما أن التراث العربي وواقعنا العربي الحالي مغيبان من أعمال الفنانين، باستثناء بعض أعمال رفيق شرف وعارف الريس وسلوى شقير.

البردّوني والخلافات الأسرية


البردّوني

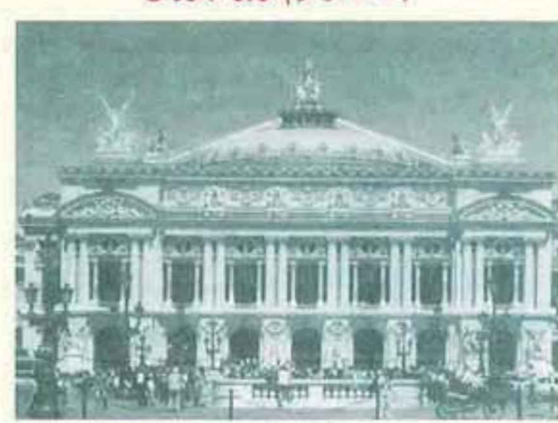
جاء في نبأ لصحيفة الوطن السعودية الصادرة بتاريخ ٩ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي أن الخلاف الذي نشب بين ورثة الشاعر اليمني الراحل عبدالله البردّوني (زوجته وأبناء إخوته) حول البيت الذي خلّفه وما يحتويه من مؤلفات ومخطوطات جاهزة للنشر تسبب في تعطيل صدور كتبه التي خلّفها بعد وفاته في ٣٠ أغسطس/ آب من العام الماضي، وقد دعا بعض الأدباء إلى تحويل بيت الشاعر إلى متحف يضم كل آثاره الأدبية، وتقوم الدولة بتعويض الورثة.

ويقول المهتمون بالشأن الأدبي في اليمن: إن هناك أكثر من ستة كتب للشاعر الراحل لم تر النور من قبل منها: ديوانا شعره «رحلة غبن من شاب قرناها» و«العشق على مرافئ القمر» يوجدان بحوزة محمد الشاطبي أحد أصدقاء البردّوني، وكتب أخرى ذكر البردّوني

قبل وفاته أنه أنجزها منها «الجديد والمتجدد في الأدب اليمني»، وهو مخطوط بحدود ٢٣٠٠ صفحة، وكتاب «الجمهورية اليمنية»، وهو امتداد لكتاب «اليمن الجمهوري»، ورواية بعنوان «العم ميمون»، إضافة إلى سيرة ذاتية أسماها «تذكرات» كانت قد نشرت خلال ثلاثة أعوام تقريباً في (صحيفة ٢٦) سبتمبر الأسبوعية وتوفي قبل أن يكملها، إضافة إلى مئات المقالات الصحافية والإذاعية التي لم يتم جمعها ونشرها في كتب.

ولد الشاعر عبدالله بن صالح البردّوني بقرية بردّون في محافظة «ذمار» اليمنية بين عامي ١٩٢٨م و١٩٢٩م وتوفي في ٣٠ أغسطس عام ١٩٩٩م، وقد عرف بغزارة الإنتاج عبر مسيرته التي امتدت زهاء الـ ٥٠ عاماً أصدر خلالها عدداً من الدواوين الشعرية كان أولها «من أرض بلقيس» الذي صدر عام ١٩٦١م ضمن مشروع الألف كتاب في القاهرة بمقدمة من عباس محمود العقاد، و«في طريق الفجر» عام ١٩٦٧م، و«مدينة الغد» مجموعة شعرية عام ١٩٧٠م، و«لعيني أم بلقيس» مجموعة شعرية ١٩٧٣م، وغيرها، إضافة إلى عدد من الكتب في مجال الدراسات الأدبية والفكرية والسياسية والفنون الشعبية.

إعادة ترميم أوبرا باريس



أوبرا باريس

تحت إشراف رئيس المهندسين المعماريين في دائرة الصروح التاريخية آلان شارل بيرو، وباشتراك خمس وعشرين شركة، تم مؤخراً صيانة الواجهة الجنوبية لقصر جارنييه الواقع في ميدان الأوبرا بباريس وترميمها، وهذا الترميم شمل عمليات بناء لتقطيع الأحجار وتنظيفها، وإجراء التسقيف، وإضافة طبقة مذهبة، ووضع الرخام، ونحت الأحجار، وترميم الفسيفساء والنجارة وغيرها.

وكان هذا القصر قد بناه المهندس المعماري شارل جارنييه الذي قام ببناء أوبرا باريس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان جارنييه قد تجول في أنحاء أوربا وشمال إفريقية لجلب أنواع مختلفة من الرخام الذي استخدم في تزيين هذا المبنى.

ومن المقرر أن تكتمل أعمال الترميم التي بدأت عام ١٩٩٤م، والتي قدر إجمالي تكاليفها بـ ٢٩٠ مليون فرنك فرنسي في عام ٢٠٠٧م.

مهرجان الشعر العماني

تحت رعاية الأمين العام للجنة العليا للمؤتمرات العماني أسعد بن طارق آل سعيد، افتتح في الرابع من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي في مدينة صحار العمانية مهرجان الشعر العماني الثاني الذي استمر خمسة أيام.

وقد شارك في المهرجان زهاء مئة شاعر وشاعرة جاؤوا من مختلف مناطق السلطنة وولاياتها المختلفة، بينهم بعض الأسماء المشهورة في مجالي الشعر الفصيح والشعر النبطي كعبدالله محروس، وناصر البلال، وحسن المطروشي، إلى جانب أسماء تشارك أول مرة في المهرجانات والمسابقات الشعرية.

وقد صاحب المهرجان انعقاد عدد من الندوات والمعارض، كمعرض للآثار العمانية المكتشفة حديثاً، ومعرض للكتاب، وآخر للفنون التشكيلية.

الجدير بالذكر أن المهرجان الأول للشعر العماني كان قد عُقد في مدينة نزوى قبل عامين وشارك فيه ٨٩ شاعراً وشاعرة.

طباعة أعمال عزيز ضياء



عزيز ضياء

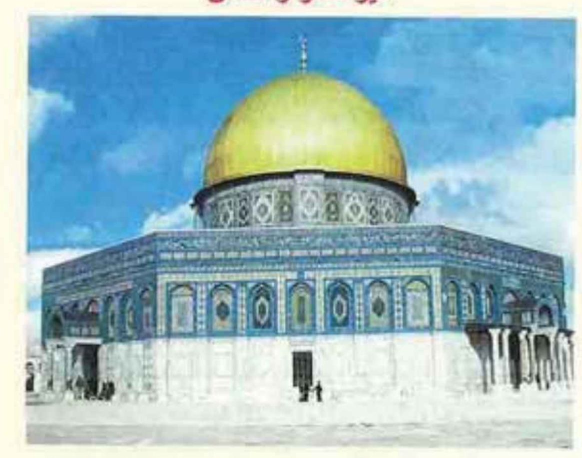
أثارت صحيفة الوطن السعودية الصادرة في التاسع من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي موضوع طباعة أعمال الأديب الراحل عزيز ضياء غير المنشورة وما نشر له ونفد من الأسواق والتي وعد الأمير فيصل بن فهد - رحمه الله - بطباعتها.

وسألت الأستاذ عبدالله الشهيل مدير عام إدارة الأندية الأدبية في المملكة الذي تحمل مسؤولية التقصير في تنفيذ هذا المشروع، وقال: «إذا كان هناك تقصير فهو مني شخصياً»، وعزا أسباب التقصير في التنفيذ للانشغال بالإعداد والترتيب لفعاليات الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، ووفاة أمير الشباب فيصل بن فهد الذي كان متحمساً لإتمام هذا المشروع!!.

جائزة الشارقة للثقافة العربية

من المقرر أن تعقد لجنة التحكيم لجائزة الشارقة للثقافة العربية اجتماعاً خلال منتصف شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠١م، وذلك للإعلان عن الجائزة التي تتزامن مع انعقاد المؤتمر العام الحادي والثلاثين لمنظمة اليونسكو. وكانت لجنة التحكيم قد تشكلت قبل عامين بمقتضى اتفاق بين حكومة الشارقة ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم.

اليونسكو والقدس



أكد المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» كوشيرو ماتسورا أن استمرار المواجهات التي تجري في مدينة القدس سيؤدي إلى تأثر قائمة اليونسكو للتراث العالمي فيها. وأضاف أن مدينة القدس التي تعد ملتقى ثقافات العالم أصبحت مسرحاً لأعمال عنف ستسفر عن خسائر لا طائل تحتها في الأرواح. مؤكداً أن القدس كنز يجب حمايته، كما أن أرواح الناس كنوز أيضاً لا يجب التفريط فيها.

انتخابات جمعية الصحفيين البحرينية

بمشاركة ٢٤١ صحفياً، وبحضور مراقبين من اتحاد الصحفيين العرب، وجمعية الصحفيين الكويتية، وجمعية الصحفيين في الإمارات، جرت في العاصمة البحرينية المنامة في الثامن والعشرين من أكتوبر/ تشرين الماضي عملية الاقتراع لانتخاب أول مجلس إدارة لجمعية الصحفيين البحرينية.

وقد أسفرت نتيجة الانتخابات عن فوز كل من نبيل يعقوب الحمر رئيس تحرير صحيفة «الأيام» رئيساً بالتزكية، وعضوية كل من طفلة الخليفة، وعيسى الشايجي وعبدالله سلمان، وخالد الزياني، وحمد المناعي، وسعيد محمد، وسلمان العجمي، وعصمت الموسوي، إضافة إلى عضوين احتياط هما أحمد البوسطة، وحافظ عبدالغفار.

مقبرة عمرها ٤٣٠٠ سنة

استطاع باحثون من جامعة هوبكنز الأمريكية الكشف عن مقبرة تعود إلى ٤٣٠٠ سنة، في منطقة «أم المرا» قرب مدينة حلب في شمال سورية. وقالت الجامعة: «إن المقبرة بحالة سليمة تلفت النظر»، وتضم جثث ثلاثة أطفال وخمسة بالغين بعضها مغطى بالذهب والفضة.

وأكد غلين شوارتز مسؤول فريق التنقيب الذي عثر على هذه الآثار أن «المقبرة تشير إلى آثار واحدة من أوائل الحضارات المدينية في العالم» في هذه المنطقة التي كانت معروفة في الماضي باسم مدينة «طوبا»، وتابع أن الاكتشاف يعد إضافة مهمة لكي نفهم كيف ازدهرت المدن والكتابات والدول والطبقات الاجتماعية في هذه المنطقة، وأشار إلى أن الجثث كانت موضوعة داخل ثلاثة مخادع وبدت في الأول بقايا نعشين في كل منهما طفل وامرأة تضع كل زينتها من الذهب والفضة وأحجار اللازورد الكريمة.

أما المخدع الثاني فكان فيه طفل ورجلان يحمل أحدهما إكليلا من الفضة، بينما المخدع الثالث يحتوي على جثة رجل مع فنجان ومجموعة من المسلسلات الفضية، وعثر المنقبون قرب الجثث على أدوات منزلية من الخزف بينها أوعية تحتوي على عظام حيوانات يعود تاريخها إلى ٢٣٠٠عام قبل الميلاد إلى الفترة التي بنيت فيها الأهرامات المصرية.

وتشير الكتابات المعروفة التي تعود إلى ما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ عام إلى أن مدينة «طوبا» تقع على الطريق التي تربط المتوسط ببلاد ما بين النهرين.

الفن التشكيلي السعودي في القاهرة


عبد الرحمن السليمان

يحتضن قصر الفنون بدار الأوبرا المصرية بالقاهرة خلال العام الحالي معرضاً تشكيلياً يشارك فيه ١٠ تشكيليين سعوديين بمعارض شخصية تضم ٣٠ لوحة تشكيلية لكل فنان.

ويشارك في هذا المعرض، الذي ترعاه وزارة الثقافة المصرية ويستمر شهراً، الفنانون عبدالله الشيخ، وعبدالرحمن السليمان، وطه الصبان، وعبدالله حماس، وعبدالله المرزوقي،

وعبدالله نواوي، ومهدي أكبر، وشاليمار شريتلي، ونوال فضلي، ورضية برقاوي. وستقام على هامش المعرض دورات تشكيلية، وقراءات نقدية لبعض الأعمال يشارك فيها نخبة من النقاد والفنانين المصريين.

القدس والشعراء العرب


قاسم حداد

«مهرجان تضامن الشعراء العرب مع القدس والشهداء» كان عنوان الملتقى الذي أقيم في قاعة «مركز أريحا للثقافة والفنون» في فلسطين في الثالث من شهر أكتوبر/ تشرين الأول الماضي.

وقد تحول هذا الملتقى الذي نظمه بيت الشعر الفلسطيني، والذي يعد أول ملتقى شعري للشعراء العرب في فلسطين، إلى مهرجان تضامني مع نضال الشعب الفلسطيني. وقد خاطب الشاعر المتوكل طه رئيس بيت الشعر الفلسطيني شعراء الملتقى بقوله: «إن حضوركم اليوم، لتكونوا شهوداً على ساحات الإعدام التي تقوم بها إسرائيل ضد أبناء شعبنا وشلالات الدم الزكية التي تروي أرض فلسطين».

وكان وفد الشعراء والمبدعين العرب الذين حضروا هذا الملتقى يتكون من: محمد لطفي اليوسفي، والمنصف الوهايبي، وصلاح بوسريف، ووفاء العمراني، وسيف الرحبي، وهاشم شفيق، ويوسف عبدالعزيز، وجريس سماوي، وطاهر رياض، وزهير أبو شايب، ومحمد الجالوس، ونتالي حنظل، ورسمي أبو علي، وجهاد هديب.

وقد منعت السلطات الإسرائيلية الشاعر قاسم حداد، والكاتب صبحي الحديدي من دخول فلسطين للمشاركة في هذا الملتقى.

الثقافة العربية في البلقان وشبه القارة الهندية


أنس كاريتش

بمناسبة الاحتفاء بالرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، ينظم مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برنامجاً ثقافياً يشتمل على عدد من المحاضرات، وفي هذا الإطار جاءت محاضرة الدكتور أنس أمين كاريتش وزير الثقافة البوسني السابق وأستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة سراييفو، وكانت بعنوان «المؤثرات الثقافية العربية في البلقان»، وقد أدارها الدكتور نايف الدعيّس عضو مجلس الشورى السعودي تناول المحاضر بداية التأثير العربي الإسلامي في هذه المنطقة، وذكر أن هذا التأثير حدث قبل قيام الإمبراطورية العثمانية أي قبل القرن الخامس عشر الميلادي على يد التجار العرب، إذ تضم المتاحف حتى اليوم أشياء يعود تاريخها إلى بدايات اتصال شعوب البلقان مع عرب صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس، وكذلك السلاف الذين كانوا يعملون جنوداً للعرب في صقلية حملوا معهم إلى المنطقة التأثيرات والتقاليد العربية، ثم بعد ذلك التأثير العثماني في بلاد البلقان من خلال نشر الإسلام. فانتشرت المصطلحات والكلمات والعبارات والأدب والكتب العربية في البلقان، وأورد المحاضر كلمات وعبارات تستخدم في البلقان هي في الأصل عربية، وهذا دلالة على التأثير الثقافي، ويتعدى هذا التأثير ليشمل كل مجال مثل الكلمات ذات الصلة بالحياة الدينية والمعتقدات وأسماء الأشخاص والقانون والإدارة والجيش، والمصطلحات العسكرية، والأواني المنزلية والأثاث، والأسلحة، والمباني، ومواد البناء، والحرف كالآلات الحرفية، والمأكولات والمشروبات، وأسماء الحيوانات، أيضاً هناك كلمات لها صلة بمجالات الظواهر الجغرافية الطبوغرافية، والشوارع، والزراعة، والصيد، والطب، والصيدلة، والفلك، والموسيقى، والألقاب، والمهن، والوقت، والتقويم، وتسمية الأبراج، والألوان، والروائح.

وتطرق المحاضر إلى محاولات البوسنيين استخدام الكتابة العربية في تأليف الكتب البوسنية، وكان رائد هذه المحاولات هو الزعيم الديني محمد جمال الدين تشاوشيفيتش الذي أراد للغة العربية الصمود في ظل محاولات الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية فرض الكتابة اللاتينية.

وأكد المحاضر أن الكتابة العربية انتشرت في البلقان بفضل القرآن الكريم في المقام الأول.

وعن تأثيرات الأدب العربي، أشار المحاضر إلى أن المعلقات السبع محبوبة ورائجة بصفة خاصة، ونشرت على أجزاء، إلى جانب ما يحظى به الشعر الأسلامي من اهتمام، حيث ترجمت قصائد حسان بن ثابت وقصيدة البردة لكعب بن زهير وغيرها.

وعن تأثير الشعر العربي أكد المحاضر أن الشعر العربي ذو الصفة التربوية له رواج في البوسنة والبلقان، وترجم كثير من أشعار محدثين المعاصرين.

وتحدث المحاضر أن الدوائر العلمية تعتقد أن القصة العربية في الأدب الصربي والبوسني والكرواتي في البلقان جاءت عن طريق «ألف ليلة وليلة»، وعن طريق «كليلة ودمنة» لابن المقفع.

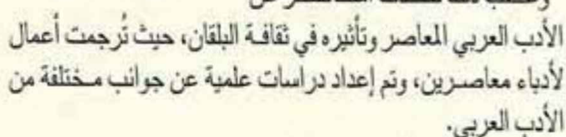
وعن الفلسفة أكد المحاضر أن أقرب الفلاسفة إلى قلوب الفلاسفة

البلقان هو ابن حزم وكتابه «طوق الحمامة»، وقد ترجم قبل عشر سنوات، كذلك شخصية جحا المعروفة في البلقان باسم نصر الدين خوجا.

وعن تأثير المؤلفات التاريخية وأهمها «مقدمة ابن خلدون» لا توازن بأي عمل من حيث شعبيتها وانتشارها.


ظهور أحمد أظهر

وعقب ذلك تحدث الحاضر عن الأدب العربي المعاصر وتأثيره في ثقافة البلقان، حيث تُرجمت أعمال لأدباء معاصرين، وتم إعداد دراسات علمية عن جوانب مختلفة من الأدب العربي.



وفي الإطار ذاته، أقام مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية محاضرة بعنوان «المؤثرات الثقافية العربية في شبه القارة الهندية»، استهلها الدكتور ظهور أحمد أظهر رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية وعميد الدراسات الإسلامية والشرقية في جامعة البنجاب الباكستانية بتوضيح أن شبه القارة الهندية يعنى بها الهند وباكستان وبنجلاديش، ثم أعطى مقدمة تاريخية عن دخول العرب إلى هذه المنطقة عن طريق قوافل المسلمين التي جاءت لفتح السند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، والقوافل التي جاءت عن طريق بلاد فارس، أو تلك التي جاءت عن طريق بلاد ما وراء النهرين أو آسيا الوسطى، مشيراً إلى أن العرب وصلوا إلى شواطئ البحر الهندي واتصلوا بأهل شبه القارة الهندية قبيل فجر الإسلام حاملين البضائع التجارية، وبعد ظهور الإسلام، حملوا معهم أخبار الدين الجديد، وتتابعت المراحل بعد ذلك إلى العصر الحديث الذي هو مرحلة دور المعاهد والمؤسسات التعليمية العربية. بعد ذلك انتقل المحاضر ليذكر أهم المؤثرات الثقافية هو القرآن الكريم، فتحدث عن أهميته بالنسبة لمسلمي شبه القارة، وأشار إلى أن هناك ظواهر للاهتمام والعناية بالقرآن عند مسلمي شبه القارة تتمثل في قراءة القرآن وحفظه، وترجمته وتفسيره، وتكريم القرآن وتعظيمه، وأثره الكبير في اللغات المحلية لشبه القارة وفي الحياة العملية.

عقب ذلك تناول المحاضر المؤثر الثقافي الثاني، وهو السنة النبوية وما نقل عن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم من الحديث النبوي والسيرة العطرة، فكان لها دوراً فعالاً مهماً جداً في حياة مسلمي شبه القارة وأثرت فيهم وظهرت آثارها في حياتهم، إلى جانب الاهتمام بدراسة الحديث النبوي والتأليف فيه.

أما المؤثر الثقافي الثالث في رأيه فهو اللغة العربية، التي كان لها أثرها في بث الثقافة العربية والإسلامية لارتباطها بالقرآن الكريم وتعاليم الدين الحنيف، ومن المؤثرات التي ذكرها المحاضر نشأة اللغات الإسلامية المحلية وآدابها، والشعر العربي القديم، والحج وزيارة الحرمين الشريفين، وتأثير الأساتذة العرب والمتوافدين على شبه القارة، وإقبال الطلاب من شبه القارة على العواصم الثقافية العربية. ومن المؤثرات الثقافية المعاصرة: الدور الذي تقوم به الجامعات والمعاهد التعليمية المعاصرة، والإعلام العربي المعاصر، وتراجم العلماء العرب، والوفود التعليمية. وأشار المحاضر أيضاً إلى تأثير الحركات الإسلامية المتمثلة في حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وحركة الإخوان المسلمين اللتين كان لهما أثر بالغ في مسلمي شبه القارة، إلى جانب الجهود الثقافية العربية المتنوعة من خلال الهيئات الإغاثية والجمعيات الخيرية، كما ساعد في نشر الثقافة العربية اتصال أهل شبه القارة الهندية بالعرب مباشرة بالعمل في الدول النفطية، ووجود كثير من الطلبة العرب في تلك البلاد.

وقد أدار المحاضرة الدكتور سمير عبدالحميد إبراهيم.

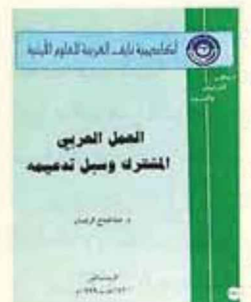
توثيق التراث في القاهرة وحلب

ينظم المعهد الفرنسي للتنمية والتخطيط في باريس، بالتعاون مع كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وكلية الهندسة بجامعة حلب السورية، برنامجاً مشتركاً تحت عنوان: «نظم الإدارة ووسائل الحفاظ على التراث العمراني والمعماري في القاهرة وحلب».

ويرمي هذا البرنامج الذي يعدّ الأول من نوعه في الشرق الأوسط إلى تسجيل التراث العمراني وتوثيقه في المدينتين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وستستمر دراساته ثلاث سنوات، يبحث من خلالها إعداد قاعدة معلومات متكاملة عن هذا التراث. صرحت بذلك خبيرة التراث جليلة القاضي المشرفة على البرنامج.

وأقيمت بهذه المناسبة ورشة عمل في الثالث عشر من سبتمبر/ أيلول الماضي أعلن من خلالها عن بدء المشروع، واشتملت على معرض للمشاريع الرائدة التي تتوخى الحفاظ على التراث المعماري في القاهرة، كما ألقيت بعض المحاضرات التي ترمي إلى الغرض نفسه، ومنها محاضرة عن «أهداف المشروع والمخطط المبدئي له» لجليلة القاضي، وألقت سوسن نوير محاضرة عن «تجربة الحفاظ على التراث المعماري في بنوم بنه في كمبوديا»، كما ألقى كسافيير ماليفرتي محاضرة عن «منهجية الحصر والتصنيف للتراث المعماري في فرنسا»، بينما ألقى برونو كاسيتي محاضرة عن «منهجية الحصر والتصنيف للتراث المعماري في إيطاليا»، وعرضت سلوى مقال عدداً من مشاريع الحفاظ على حلب القديمة.

الرشدان، عبدالفتاح/ العمل العربي المشترك وسبل تدعيمه. الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ٩٣ص.



تحاول الدراسة الإجابة عن أهم التساؤلات حول مستقبل العمل العربي؛ فهي توضح أهم المعوقات التي حالت دون قيام عمل عربي مشترك يحقق أهدافه المأمولة، وضرورة العمل العربي المشترك في ظل المعطيات العربية والإقليمية والدولية الراهنة، كما يحاول الإجابة عن إمكانية تطوير العمل العربي؛ من خلال إيجاد آليات ومداخل، تسهم في التوصل إلى نقلة نوعية داخل الواقع العربي تتناسب مع طموحاته ومصالحه.

مجموعة باحثين/ الغرب في المجتمعات العربية تمثلات وتفاعلات. بيروت: تجمع الباحثات اللبنانيات، ١٩٩٨. ١٩٩٩م، ٦٩٧ص (سلسلة كتاب باحثات؛ الكتاب الخامس).

ما الصورة التي لدينا عن الغرب؟ وهل لدينا صورة واحدة عن الغرب؟ وما عناصر هذه الصورة؟ وهل هذه العناصر منسجمة بعضها مع بعض أو متناقضة؟... دفعت هذه التساؤلات تجمّع الباحثات اللبنانيات إلى التفكير في هذا الكتاب، ثم إلى إضافة المزيد من الأسئلة، وطرحها من بعد ذلك على أكثر من ثلاثين باحثًا للإجابة عنها؛ فكان هذا الكتاب.

وقد ساهم الباحثون بإجاباتهم عن هذه التساؤلات عبر المحاور الآتية: الإنسانيات، والاجتماعيات، والفنون، والسير، بالإضافة إلى وجهات النظر. ويذكر من الأبحاث المنشورة في محور الإنسانية: «صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية» لسعيد العلوي. ومما جاء في محور وجهات نظر: «العربي الناظر إلى الغرب: عالم موضوعي، ومخطط مقتدر، أم غوغائي منفعل» لنجلاء حمادة، وكتب جورج خضر عن «صورة الغرب في المجتمعات العربية». وفي الاجتماعيات: كتبت عواطف عبدالرحمن عن «صورة الغرب في الصحافة المصرية». كما جاء في محور الفنون: «تصور الغرب في بعض أفلام يوسف شاهين» لـلجين القدسي، ولهويدا الحارثي «صورة الغرب في العمارة العربية المعاصرة». وأخيراً في محور الكتابات والسير: «تجربتي مع الغرب: مقتطفات من المعرفة والحب والحرب» لرجاء نعمة.

وخُتم الكتاب بملحقين: الأول ملخصات الأبحاث، والآخر المساهمون في الكتاب.

البشاوري، طلا محمد/ ديوان القاضي طلا محمد البشاوري، تحقيق: ظهور أحمد أظهر. لاهور: المجمع العربي الباكستاني، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ١٩٦ص (سلسلة مطبوعات المجمع العربي الباكستاني؛ ٥)



هذا الديوان هو الرابع من بين دواوين الشعر العربي في شبه القارة الهندية الذي قام المجمع العربي الباكستاني بطبعه ونشره على حسابه، مساهمة منه في الاحتفاظ بالأدب العربي في هذه المنطقة التي حكمها المسلمون أكثر من ألف عام، وهو ديوان عربي لشاعر غير عربي عرف بالقاضي أبي الأسلم (طلا محمد) البشاوري الذي ولد بمدينة (بشاور) سنة ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م، وتوفي بمكة المكرمة التي زارها معتمراً سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، ودفن بمقبرة المعلاة.

يضم الديوان ثلاثًا وعشرين قصيدة أو قطعة شعرية، يقع أطولها في ثلاثمئة وسبعين بيتًا، وأقصرها في سبعة أبيات، وكل قصائد الديوان كانت قد طبعت ونشرت متفرقة ومبعثرة خلال حياة الشاعر عدا قصيدة واحدة، لم تنشر بشكل مجموعة مرتبة أو ديوان مدون حتى اليوم.

رتبت قصائد الديوان ترتيباً هجائياً، ورقمت بطريقة تسهّل الرجوع إلى مفرداتها المشروحة في آخر الديوان.



عمر، أحمد مختار (وآخرون)/ المكنز الكبير: معجم شامل للمجالات والمترادفات والمتضادات.. القاهرة: شركة سطور، ٢٠٠٠م، ١٢٣٢ص.

هذا معجم فريد من نوعه؛ لأنه يجمع أشكالاً من المعاجم في معجم واحد، فقد ضم معجمًا للموضوعات، ومعجمًا ثانيًا للمترادفات والمتضادات، وثالثًا لمعاني الكلمات، ومعجمًا رابعًا للألفاظ، وقد اعتمد في إعداد هذا المكنز على جمع مادة غزيرة؛ عبر تفريغ العشرات من كتب اللغة والأدب، ودواوين الشعر، وعينة من الصحف اليومية.

قام بإعداد المعجم فريق من المتخصصين برئاسة الدكتور أحمد مختار عمر (عضو مجمع الخالدين في القاهرة)، بالإضافة إلى فريق كبير من الباحثين اللغويين والمحررين ومساعديهم، الذين زاد عددهم على عشرين باحثًا.

يحتوي المعجم على (٣٤٥٣٠) مدخلاً موزعًا على (١٨٥١) موضوعًا أو مجالاً دلاليًا، وقد رُتبت المجالات الدلالية في المعجم ألف بائيًا، ورُتبت الكلمات داخل كل مجال هجائيًا.

ماكبرايد، جيمز/ لون الماء، ترجمة: فارس غلوب.. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٠م، ٢٣٩ص (سلسلة إبداعات عالمية؛ ٣٢٥).

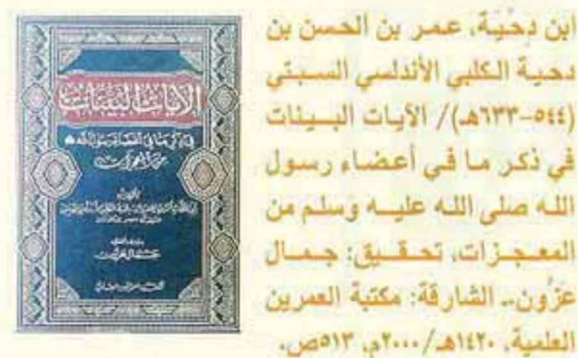
يهوِّن بعض النقاد من شأن الرواية التاريخية، ولكن بعض المضامين الفكرية قد تعطي العمل قيمة ما، هذا ما يمكن أن يقال عن أمثال هذه الأعمال التي تغرم بها مجموعات كبيرة من القراء، ويتجاهلها كبار النقاد، مثل: «ذهب مع الريح».

وتأتي رواية «لون الماء» للروائي الأمريكي جيمز ماكبرايد مزيجًا من السيرة والرواية والتاريخ؛ قدم فيها جيمز المولود من أب أمريكي أسود وأم بيضاء من أصل يهودي اعتنقت الدين المسيحي - قدم سيرته وسيرة حياة والدته. كما صوَّر في هذه الرواية المجتمع الأمريكي في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي؛ وهي الفترة التي شهدت حركة القوة السوداء التي تبحث عن العدالة الاجتماعية والسياسية.

أركون، محمد/ الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح.. بيروت: دار الساقي، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٣٥٢ص.

يطرح هذا الكتاب قضية تأصيل أنواع الخطابات والأحكام، دون التعرض إلى علم الأصول في الإسلام، ويركز المؤلف في النقد المعرفي العميق لمفهوم التأصيل ذاته، كما مارسه العقل الديني، وحلله العقل الحديث.

يتكون الكتاب من خمسة فصول رئيسة، جاء الفصل الأول تحت عنوان «القرآن والممارسات النقدية المعاصرة»، والفصل الثاني بعنوان «المعتقد وتكوين الذات الإنسانية في السياقات الإسلامية»، وجاء الفصل الثالث بعنوان «مفهوم الشخص في المأثور الإسلامي». والفصل الرابع «من الحوار الديني إلى تعقل الظاهرة الإسلامية»، أما الفصل الأخير فجاء تحت عنوان «العلوم الاجتماعية أمام تحديات الظاهرة الإسلامية».



ابن دحيَة، عمر بن الحسن بن دحية الكلبي الأندلسي السبتي (٥٤٤-٦٣٣هـ)/ الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات، تحقيق: جمال عزُّون.. الشارقة: مكتبة العمرين العلمية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٥١٣ص.

جمع ابن دحية في هذا الكتاب كل ما جاء من آيات

وأحاديث وأخبار في مدح وجه النبي صلى الله عليه وسلم، وعينيه، ولسانه، ويديه، وصدره، وأذنيه، وقلبه، وظهره، وشعره، وشفتيه، وأسنانه، وجوارحه، ودمه، ونفخه، وريقه، وتفله، ونفثه، وعرقه، وطوله، ومشيته صلى الله عليه وسلم.

وقد قدم المحقق للكتاب بتحليل لمصادر ترجمة ابن دحية الكلبي، والحديث عن مؤلفاته.



الجريسي، خالد بن عبدالرحمن/ رغبة.. الرياض: المؤلف، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٢٤٧ص.

للكتابة في البلدانيات أهمية عند العرب سواء أكانت موسوعات شاملة أم كتبًا مفردة عن أقاليم أو مدن بعينها، فيأتي هذا الكتاب ضمن هذه المسيرة في اتصال الإنسان بالأرض.

يُعرِّف الكتاب ببلدة رغبة وسبب تسميتها، كما يسلط الأضواء على أهم الأحداث التاريخية التي مرت بها، مع التركيز في دورها في نصرة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

قسَّم المؤلف كتابه ستة فصول: الأول «رغبة وأصالتها»، وهو تاريخ عام لها، والثاني «جغرافية رغبة الطبيعية»، والثالث «جغرافية رغبة البشرية»، والرابع «التطور العمراني لبلدة رغبة»، والفصل الخامس «الخدمات في رغبة»، ثم الفصل السادس «رغبة في صور». وزوَّد الكتاب بالخرائط والصور والرسومات التوضيحية.

الأمين، حسن/ حلٌّ وترحال (ذكريات).. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٩م، ٥٦٦ص.

يأتي هذا الكتاب ضمن الأعمال التي يمتزج فيها أدب الرحلات بالسيرة الذاتية، ذاك الامتزاج الذي يُنسي القارئ إلى أي النوعين تعود المادة المقروءة؟ وتغطي هذه الذكريات أحداث «٩٠ عامًا» وهي عُمْر المؤرخ الشامي حسن الأمين حلاً وترحالاً، وقد وصف فيها العادات والتقاليد وأطوار الحياة التي كانت سائدة في سورية ولبنان في تلك الفترة.

ويريد المؤلف بذكريات «الحل»: تلك الذكريات التي يستعيدها من إقامته في وطنه بين دمشق وجبل عامل في لبنان، وذكريات «الترحال»: تلك الغربة التي يجدها بعيداً عن الوطن، متنقلاً بين قارات العالم ومدنه المختلفة.

تنثال الذكريات بأسلوب سلس يُطرّيه حسن الأمين بقصائد مما كان يكتبه في تلك المناسبات، ففي القسم الأول «الحل»: يتنقل المؤلف من شقرا «في جبل عامل» حيث مولده إلى دمشق ثم إلى العراق حيث أسرته في الأصل عراقية من الحلة أو من ضواحيها - كما ذكر المؤلف - موطن العلامة الحلّي والمحقق الحلّي وصفي الدين الحلّي وغيرهم من مشاهير الأعلام.

وفي القسم الثاني «الترحال»: يتنقل بين باكستان وإفريقية الشرقية وإيران وأميركا الجنوبية وغيرها من بلدان العالم.

وقد تخلل الكتاب كثير من الصور الفوتوغرافية التي وثّقت عدداً من المناسبات التي مرّت بالمؤلف، وخُتم بفهرس للأعلام ثم للأماكن التي ورد ذكرها في الكتاب.



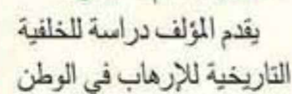
عصلة، أحمد بكري/ الموت في الشعر العربي الحديث (١٣٣٦-١٣٨٧هـ = ١٩١٧-١٩٦٧م).. الكويت: مركز المخطوطات والتراث والوثائق، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ٥٤٣ص (سلسلة منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق؛ ٦٦).

هدف الكاتب إلى تقديم صورة الموت وإظهار مواقف الشعراء المحدثين: تقليديين ورومانسيين ووجدانيين بعامة منه، للوقوف على شيء من تطور الفكرة والموقف والأسلوب. وقد عرض الكاتب في المقدمة صورة عامة لموقف الغرب من الموت واهتمامه به، كما تعرض لموقف الموت في الشعر العربي القديم، وفي القرآن والسنة.



الخطيب، عبدالله (وآخرون)/ الإسهام الاقتصادي والاجتماعي للمنظمات الأهلية في الدول العربية: دراسة حالة الأردن، لبنان، مصر، تونس.ـ القاهرة: الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، [٢٠٠٠م]، ٢٨٥ص.

يأتي الكتاب نتاج جهد جماعي قام به عدد من الباحثين العرب هدف إلى إبراز الإسهام الاجتماعي والاقتصادي للمنظمات الأهلية العربية التي نشطت في عقدي الثمانينيات من هذا القرن، وساهمت مساهمة إيجابية في التنمية، والتنمية البشرية المستديمة على وجه الخصوص.



عيد، محمد فتحي/ واقع الإرهاب في الوطن العربي.ـ الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ٢٠٠ص.

يقدم المؤلف دراسة للخلفية التاريخية للإرهاب في الوطن العربي، عبر تسعة فصول: جعل الأول منها مدخلاً للدراسة، والثاني لتعريف الإرهاب وأشكاله، والفصل الثالث عن «القرصنة الجوية»؛ خطف الطائرات وتفجيرها والأفعال الموجهة ضد سلامة الطيران المدني، ثم الرابع عن «الإرهاب والدين» فقدم متابعةً للتطور التاريخي للإرهاب والدين، كما تحدث عن إرهاب الجماعات المتسترة بالدين في الوطن العربي، وفي الفصل الخامس تحدث عن التشريعات الجنائية العربية لمكافحة الإرهاب من الناحيتين الموضوعية والإجرائية، وفي الفصل السادس تناول اتجاهات الإرهاب في الوطن العربي (في مصر، والجزائر، والأردن، واليمن، والبحرين)، ثم جاء الفصل السابع عن العوامل البيئية والشخصية الدافعة إلى الإرهاب، والفصل الثامن عن صعوبات مكافحة الإرهاب المتمثلة في حق اللجوء السياسي، وتسليم المجرمين بين الدول، والكفاح الوطني المسلح، وفي الفصل التاسع يقدم التصور الأمثل لمواجهة الإرهاب.



زاماروفسكي، ف/ أصحاب الجلالة ـ الأهرامات، ترجمة: هاشم حمادي.ـ دمشق: دار السوسن، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٣٩٨ص.

يحاول هذا الكتاب تقديم الإجابة العلمية والموضوعية بأسلوب شائق وماتع عمن هو صاحب فكرة إرساء هذه الجبال الهائلة (الأهرام) التي تعد من عجائب الدنيا السبع؟ وما المعنى الضمني لها؟ وكيف استطاع الإنسان البدائي تحقيق مثل هذه المنجزات؟ وهل هي من وضع الإنسان أم من صنع الآلهة؟.



البهوتي، منصور بن يونس ابن صلاح الدين/ إرشاد أولي النهى لدقائق المنتهى: حاشية على منتهى الإرادات، تحقيق: عبدالملك بن عبدالله ابن دهيش.ـ بيروت: دار خضر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢مج.

الكتاب حاشية على منتهى الإرادات امتازت ببسط المسائل الفقهية، وكثرة التحريرات والنقول، والتوسع في التعريفات اللغوية لما أبهم.

قدم المحقق في بداية الدراسة سيرة ذاتية للمصنف شملت اسمه ونسبه ومولده ووفاته وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته ومنهجه في التصنيف، كما قدم وصفًا للنسخ الخطية التي اعتمد عليها في التحقيق والتي بلغت ست نسخ.

جاء الكتاب في جزأين، وبلغ عدد صفحاتها ١٤٩٠ صفحة مفصلاً في عدة كتب مثل كتاب الطهارة، والصلاة، والجنائز والزكاة وغيرها.

التعاون (س١٥، ع٥١، ربيع الأول ١٤٢١هـ/ يونيو- حزيران ٢٠٠٠م)



مجلة فصلية فكرية شاملة محكمة تصدر عن الشؤون الإعلامية بالأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية.

ومن بحوث العدد الجديد للدكتور فريد بشير طاهر «محددات الاستثمار الخاص في المملكة العربية السعودية»، و«مجلس التعاون حاجة خليجية» لجميل الحجيلان، و«اتجاهات تطوير التعليم العالي في ظل العولمة»لخالد بوقحوص، و «الإعلان في الصحافة السعودية»للدكتورمرعي مدكور، و«صناعة البترو كيماويات على مشارف الألفية الثالثة» لعبدالوهاب السعدون، و«من أبعاد تعليم المرأة في العالم العربي»للدكتورة شذى الدركزلي ، و«الفائقون في العلوم الطبيعية وسبل رعاية تفوقهم»لإبراهيم بسيوني عميرة .

وفي باب التقارير كتب زياد عربية عن «العولمة وآثارها الاجتماعية»،إلى جانب الأبواب الثابتة في المجلة.

العنوان: ص.ب: ٧١٥٣، الرياض ١١٤٦٢ـ السعودية ـ هاتف: ٤٨٨٠٤١٢ـ فاكسميلي ٤٨٢٩١٠٩

قافلة الأدب الإسلامي (مج١، ع ١ ـ ٢، فبراير ـ يوليو/ ذو القعدة ١٤٢٠هـ ـ ربيع الثاني ١٤٢١هـ)



صدر العدد الأول من هذة المجلة الفصلية التي تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية في باكستان، وقد جاء خاصًا عن مؤسس الرابطة الشيخ أبي الحسن الندوي، فتناولت بحوث العدد الجوانب المختلفة من شخصيته وفكره، وما حققه في مجال الدعوة والفكر والأدب.

وجاءت البحوث بثلاث لغات هي: العربية والأردية والإنجليزية، ومن أبرز كتّاب العدد الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور ظهور أحمد أظهر، والدكتور عبدالقدوس أبو صالح.

العنوان:

7 - HAQ BAHU STREET, LALAZAR COLONY, RAIWIND ROAD, LAHORE, PAKISTAN.

بيادر (ع٣٠، ربيع الثاني ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)



صدر العدد الجديد من هذا الملف الإبداعي الذي يصدره نادي أبها الأدبي، متضمنًا عددًا من المقالات، فتناول المشرف العام على التحرير موضوع الأندية الأدبية النسائية، تلا ذلك «الكلمات الأولى» بقلم التحرير عن الشعر الجنوبي والبعد عن الدراسة، ثم كلمة تأبين للراحل عبدالعزيز مشري بعنوان «لم تمت أيها البهي»، وأخيرًا حديث عن الكتاب ونشره وتوزيعه. وتقدم بيادر عددًا من الدراسات الأدبية منها: «تبادل الضمائر وطاقته التعبيرية» لمحمد خشفة، و«حول مفهوم الثقافة»للدكتور محمد بن عبدالله آل محمود، ولعبدالحفيظ الشمري «تنوعات على مقام الحب [دراسة لمجموعة جاردينيا] لعبدالعزيز مشري»، ويستكمل الدكتور محمد المدخلي ملفه عن «قصة القصة» وهو في هذا العدد عن القصة في عسير، كما يقدم العدد تداعيات الجزء الأول من الملف الذي كان عن قصة القصة في جازان، إضافة إلى الأبواب الثابتة في الشعر والقصة.

العنوان:

نادي أبها الأدبي ـ أبها ـ ص.ب ٤٧٨ ـ المملكة العربية السعودية

تليفون: ٠٧٢٢٤٤٢١٠ ـ فاكس: ٠٧٢٢٦٢١٦٥

عالم الفكر (مج٢٩، ع١، يوليو/ سبتمبر ٢٠٠٠م)

مجلة فكرية محكّمة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، وتهتم بنشر الدراسات والبحوث المتسمة بالأصالة النظرية، والإسهام النقدي في مجالات الفكر المختلفة.

«آفاق معرفية» مسمى ثابت لجميع الأعداد الصيفية من هذه الفصلية، ويخصص للموضوعات التي لا تصب في أفق واحد أو مجال من المجالات. ويحمل هذا العدد الموضوعات الآتية: «المثقف السلفي وإشكالية الإصلاح الاجتماعي»، و«الاعتقاد الديني عند هيوم»، و«المنطق وتصور فتجنشتين للفلسفة»، و«مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي»، و«يوتوبيا الخيال العلمي في الرواية العربية المعاصرة»، و«نظرية الحب عند الشعراء التروبادور»، و«النظرية الجمالية في الشعر بين العرب والإفرنج»، و«التأويلية بين المقدّس والمدنّس»، و«جحا وفن الحيلة والسخرية في المسرح المغربي المعاصر».

العنوان: ص.ب: ٢٨٦١٣ـ الصفاة ـ الرمز البريدي ١٣١٤٧ دولة الكويت.

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية (س٢٦، ع ٩٨، يوليو- سبتمبر ٢٠٠٠م)

مجلة علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، جاء عددها الجديد حافلاً بالبحوث والدراسات والمقالات، ومن موضوعاته: «النساء المعيلات للأسرة في حالة غياب الأب؛ نموذجًا أسر الشهداء» للدكتور عبدالوهاب الظفيري، و«قيادة التلاميذ للسيارات وأثرها على الحركة المرورية في المملكة العربية السعودية» للدكتور عامر ناصر المطير، و«عوائد تكاليف الانتقال من نظام الإغاثة الاجتماعية إلى سوق العمل في الكويت» للدكتور عباس علي المجرن، و«دعم القرارات المكانية التخطيطية من خلال تقنية نظم المعلومات الجغرافية» للدكتور محمد عبدالجواد محمد علي، وكتب الدكتور عيسى محمد الأنصاري والدكتور علي أسعد وطفة بحثًا عن «حقوق المرأة السياسية»، بالإضافة إلى بحث باللغة الإنجليزية بعنوان «علاقة عمان بالبحرين والكويت بين عامي ١٧٤٤ و١٨٠٤م».

العنوان: ص.ب ١٧٠٧٣ الخالدية ـ الرمز ٧٢٤٥١ الكويت

هاتف ٤٨٣٣٢١٥ ـ ٤٨٣٣٧٠٥

آفاق تربوية (العدد السابع عشر - يوليو / تموز ٢٠٠٠م)

مجلة نصف سنوية محكمة تصدر عن إدارة التوجيه التربوي بدولة قطر، وتعنى بالتربية والتعليم العالي. جاء هذا العدد حافلاً بالدراسات والمقالات والقراءات، فتناول الدكتور جمال كامل أبو سماحة الخبير في التخطيط التربوي «فعالية برنامج التأهيل التربوي»، وجاء بحث الدكتورة نوال عبدالله الشيخ تحت عنوان «التوجيه الطلابي المدرسي هل هو ضرورة؟»، كما تناولت الباحثتان شيخة المنصوري وفوزية الكواري موضوع «التأهيل التربوي قبل الخدمة في دولة قطر»، وناقشت الدكتورة عائشة أحمد فخرو «رؤية حديثة لتخطيط وتنظيم منهاج الاقتصاد المنزلي» إلى جانب مجموعة أخرى من البحوث العلمية، وخصص ملف العدد عن دور المكتبات في العملية التربوية.

العنوان: الدوحة - قطر، ص.ب ٨٠ - مجلة آفاق تربوية - رئاسة التوجيه التربوي - وزارة التربية والتعليم والتعليم العالي.

مجلة الدراسات اللغوية (م٢، ع٢، يوليو / سبتمبر ٢٠٠٠م)

مجلة فصلية محكمة تعنى بدراسة النحو والصرف واللغويات والعروض، تصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

احتوى هذا العدد على خمسة بحوث ودراسات في اللغة، والعروض وهي: «التواصل اللغوي من خلال النص القرآني» للدكتور رشيد بلحبيب، و«ألفاظ النبات التي ذكرها عرام» للدكتور جمعان بن ناجي السهلي، و«المرقاه في إعراب لا إله إلا الله» لرباح اليمني مفتاح، و«مسألة نحوية لأبي بكر بن العربي» لحياة قارة، و«مع المعجم الكبير» للدكتور إبراهيم السامرائي، وهناك عرض لكتاب «العروض: المشكلة والحل» لمحجوب موسى، وقدم وليد السراقبي عرضاً لكتاب «تحليل النص النحوي» للدكتور فخر الدين قباوة.

العنوان: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ - السعودية
ناسوخ ٤٦٥٩٩٩٣

الدرعية (س٣، ع٩، المحرم ١٤٢١هـ / أبريل ٢٠٠٠م)

مجلة فصلية محكمة تعنى بتاريخ المملكة العربية السعودية، والجزيرة العربية وتراث العرب.

جاء هذا العدد خاصاً بمناسبة اختيار مدينة الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، فتناولت موضوعاته تاريخ مدينة الرياض الثقافي والإعلامي والتربوي والعمراني، فقد بدأها الشيخ أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري بموضوع «مصادر العلم والتربية العلمية في الرياض في عهد الإمامين تركي بن عبدالله وفيصل بن تركي، رحمهما الله»، ثم بسط الدكتور سعود بن سعد الدريب الحديث عن «الدعوة إلى الله والحسبة والقضاء في الرياض»، وتناول الدكتور محمد بن سعد الشويعر «أربطة العلم في مدينة الرياض في عهد الملك عبدالعزيز»، كما تحدث الدكتور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشعيل عن «المؤسسات الثقافية في مدينة الرياض: نماذج مختارة»، وغير ذلك من الموضوعات التي تناولت جوانب من تاريخ مدينة الرياض.

العنوان: ص.ب ١٥١٨٥٨ الرياض ١١٧٧٥ - السعودية
هاتف ٤٢٦٤٦٩٢ ٤٢٦٤٦٩٢ فاكس ٤٢٦٤٦٩٢

الإداري (س٢٢، ع٨١، ربيع الأول ١٤٢١هـ / يونيو ٢٠٠٠م)

مجلة ربع سنوية متخصصة في مجال العلوم الإدارية، تصدر عن معهد الإدارة العامة بالعاصمة العمانية مسقط.

احتوى هذا العدد من الدورية على عدد من البحوث التي تتعلق بموضوع الإدارة، هي: «أثر التدريب أثناء الخدمة على أداء وسلوك الموظفين المستفيدين من التدريب بدولة الكويت»، و«الصعوبات التي تواجه المرأة العاملة في الإدارات الحكومية في محافظة الكرك: دراسة استطلاعية»، و«دور الإدارة المحلية في تنمية المجتمع المحلي»، و«المستلزمات السلوكية لترشيد استهلاك الماء في الأردن: دراسة ميدانية في محافظة إربد»، بالإضافة إلى الأبواب الثابتة، وموضوعات باللغة الإنجليزية.

العنوان: ص.ب: ١٩٩٤ - الرمز البريدي ١١٢ مسقط - سلطنة عمان
برقياً: معهدارة، فاكس: ٦٠٢٠٦٦ - البريد الإلكتروني ICS99@gto.net.om

ثقافة إدارية (مج١، ع١-١٥، صفر ١٤١٧هـ - الربيعان ١٤٢٠هـ)

نشرة دورية تصدر عن التخطيط والتطوير الإداري بوزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية.

وصدر المجلد الأول منها متضمناً الأعداد الخمسة عشر الأولى منها مجموعة في ٣٥٩ صفحة من القطع الصغير، واشتملت على مجموعة كبيرة من الدراسات والمقالات الإدارية المقتبسة من دوريات سابقة، أو من كتب عربية ومترجمة، وقد تنوعت موضوعات الأعداد بشكل لافت للنظر، إضافة إلى موضوعات شبه ثابتة مثل باب مصطلحات إدارية.

الجدير ذكره أن هذا المجلد هو أول ما صدر من الثقافة الإدارية بعد تحويلها إلى دورية.

الوثيقة (ع١، ١٤٢٠هـ)



نشرة فصلية تصدر عن المديرية العامة للجوازات بوزارة الداخلية، وتهتم بكل ما يتصل بقطاع الجوازات، ومحاولة التنويع ببعض الموضوعات الثقافية. وفي هذا العدد، وبمناسبة الاحتفال بمئوية المملكة العربية السعودية، كتب العقيد راشد الهاجري عن تاريخ الجوازات بعنوان «الجوازات.. غطاء الأمن والأمان»، وتضمن العدد أبواباً ثابتة فيما يخص الجوازات وأخبارها، وصفحات للفتاوى، وصفحات طبية.

العنوان: ص.ب: ١١١٨٤ الرياض - السعودية
هاتف: ٤٧٨٢٦٩١ - ٤٧٧١١٠٠ (تحويلة ٣٢٦) فاكس ٤٧٧٨٨٣٥

الإنسان والبيئة

فاطمة السويدي
الدوحة - قطر

انطبع في أذهان بعض الناس أن العرب لم يعرفوا معنى الاستقرار، فهُم - حسب فهمهم - دائمو البحث عن الكلأ والمرعى، وهذا القول على إطلاقه ينافي الحقيقة، فلم يكن العرب مجموعة من الرعاع يهيمون على وجوههم في شبه الجزيرة، بل كانت لهم مصايفهم ومرابعهم المعلومة والمتعارف عليها بين القبائل.. كما كانت لهم مدن ذات وجه حضاري في المجتمع المدني.

وحين ظهر الإسلام الذي كان يحمل معه رسالة علمية حضارية وجّه العرب إلى الاستقرار والحياة المدنية، وحثهم على العلم والتعليم، اللذين كانا من لوازم العقيدة الجديدة؛ وبذلك وضع أول لبنة في أساس الحياة الثقافية والحضارية.

وشجع الرسول صلى الله عليه وسلم الهجرة من أجل حفظ الدين ونشره، وإقامة دولته، فكانت الهجرة إلى الحبشة تمثل الهجرة الخارجية، بينما الهجرة إلى المدينة مثلت الهجرة الداخلية.

العربي والهجرة

سلك الخلفاء المنهج ذاته - منذ العهد الراشدي - في تشجيع الهجرة من الجزيرة إلى الأمصار الجديدة، مما أدى إلى انتشار العرب في الأرض وانسياحهم فيها. وقد كان لهذا الاتجاه دور واضح في إنشاء عدد كبير من المراكز والمدن الجديدة مما كان له الأثر البارز في تكوين الأمة العربية والحضارة العربية الإسلامية. لكن كيف تعامل الإنسان العربي مع هذه الهجرات؟!

لن نتحدث عن الحنين إلى الأوطان، مع أنه من أكثر الموضوعات لمساً لشغاف القلوب المرهفة.. ولكننا سنتحدث عن ردة فعل العربي في مجتمع غريب الوجه واللسان كما يقول المتنبي:

ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

وهذا موضوع طريف وجديد لم يأبه به القدماء، ولم يلتفت إليه المحدثون؛ وهذا ما دفعني إلى إلقاء بعض الضوء على هذه البقعة المعتمة التي تلامس وتراً إنسانياً مستمر النبض في النفس البشرية إلى يومنا الحاضر.

كانت تحيط بشبه الجزيرة حضارتان عريقتان.. ونظرة في كتاب معجم البلدان تطلعك على الخير والرخاء اللذين كانا يعمان تلك المناطق من حيث الطبيعة الجغرافية، والخصب الذي أنعم الله به عليها.. فالأنهار العذبة جارية.. واللون الأخضر ينتشر ليغطي كل الأرجاء.. والرفاهية الاقتصادية تعم المدن والأقطار ألم يقل: «الري عروس الدنيا وإليه متجر الناس».

ولكن العربي ظل يرنو بعينيه صوب الصحراء، تلك التي تجمع عوامل الأضداد من الخصب والمحل، والحر والبرد - ولسنا ببعيدين عن ذلك - «عرفْتَ البرد الذي يعقد ذنب الكلب، والحر الذي يذيب دماغ الضب»، فظل يبحث عن العرار والأثل والسدر، ولم يلحظ الأزهار والرياحين وأطايب النعم:(١)

ونجداً إذا جادتْ به رهمُ الحيا
رأيت به المكنان والنُّفَلَ الجعدا
سقى الله نجداً من ربيع وصيّف
وماذا تُرَجِّي من ربيع سقى نجدا
ألم تر أن الليل يقصرُ طوله
بنجد ويزداد النِّطافُ به بَرْدا
بلى إنه قد كان للعيش قرةً
وللبيض والفتيان منزلة حمدا

رفض المجتمع الجديد

وهذا عمرو بن أحمر الباهلي الذي انتقل ضمن عشيرته إلى أرض الجزيرة شمال الشام ونواحيها كسنجار والبلخ والمدبير، بينما ظلت عشائر أخرى من قبيلته تنزل في نجد، وينبئنا شعره أنه لم يستسغ نمط الحياة في الشام ومدنها الجديدة، بل عجز عن التجاوب مع الأوضاع العامة السائدة في المجتمع الجديد الذي انتقلوا إليه، والثقافة التي يفترض أنهم ينتمون إليها(٢):

لقد ظعنتْ قيسٌ فألقت بيوتها
بسنجار فالأجزاع أجزاع دوسرا
وقد كان في الأطهار أو رمل فارز
أو الدَّوم لما أن دنا فتهصرا
غنىً عن مياه بالمديبر مُرةً
وعن خَربِ بنيانه قد تكسّرا
أبَعْدَ حلولٍ بالركاء وجاملٍ
غدا سارحًا من حولنا وتنشرا
تبدلت اصطبلاً وتلاً وجرةً
وديكًا إذا ما آنس الفجرَ فرفرا
وبستان ذي ثورين لالين عندهُ
إذا ما طغى ناطوره وتغشمرا

لقد رفض المجتمع الجديد رفضاً قاطعاً، ولم يستطع التكيف مع حياة المدن الجديدة، ويتردد صدى هذا الإحساس في شعره إذ يقول محذراً من الوقوع في فخ هذه التجربة، ومتذمراً من هذا الوضع الذي لم يألفه(٣):

فيا راكبًا إمّا عرضْتَ فبلِّغن
قبائلنا بالأخرمَيْن وجوزَم
وبلِّغ أبا الوجناء موعد قومه
بحوريتَ تظعنْ راغبًا غير مُقْحم
نأت عن سبيل الخير إلا أقله
وعضّتْ من الشر القراح بمعظم
ليهنكم أنا نزلنا ببلدة
كلا ملويْها مبلسٌ غير منْعم
تمشّى بأكناف البليخ نساؤنا
أرامل يستطعمن، بالكفِّ والفم
نقائذ برْسام وحمّى وحصبة
وجوع وطاعونٍ ونقر ومغرم



فهو يرسم هنا صوراً مأساوية لمناظر الجوع والفقر والأمراض المتفشية بين النازحين، ويحذر من تكرار مأساة الخروج من شبه الجزيرة ومخاطره في هذه الرحلات الخائبة.

حنين إلى الأهل والبلد

لقد كانت البيئة الجديدة محبطة ومدمرة للنفس والجسد، وهذا الموقف يتكرر دائماً في تجارب الشعراء - على اختلاف رؤيتهم وأسباب خروجهم - في البلاد المفتوحة، فلم يعتد العربي على تضاريسها ولا مناخها، يقول شقيق بن سليك الأسدي(٤):

وخافتْ من جبالِ السُّغْدِ نفسي
وخافتْ من جبالِ خوارْزمِ

إذ تميزت هذه البلاد بالبرد الشديد والثلوج المتساقطة، وتقف الجبال الشاهقة حائلاً أمام عينيه اللتين اعتادتا النظر إلى المساحات المنبسطة في صحرائه، لذلك كان إنكاره لها شديداً، وعدم توافقه على التكيف واضحاً جلياً، فيقول أعرابي رفض أن يستوطن همذان؛ فإن كل ما فيها يخالف طبيعته: مناخاً وتضاريس وسكاناً، فكانت الصدمة عنيفة في نفسه، وكان الحنين قوياً إلى أهله وبلده(٥):

وكيفَ أجيبُ داعيكم ودوني
جبالُ الثلجِ مشرفةُ الرِّعانِ
بلاد شكلها من غير شكلي
وألسنتها مخالفةٌ لساني

والذين استقروا بعد الفتح في العراق، كانوا قد ألفوا أرضه الخضراء، ومياهه الغزيرة، ومناخه المعتدل، حتى إذا رحلوا إلى أرض ذات مناخ مختلف، وطبيعة قاسية أحسوا من الغربة بما كان يحسه النجدي أو الحجازي حين اغترب عن نجد إلى أرض الفتوحات، فيقول أحدهم معبراً عما يستشعره تجاه هذه الأرض الغريبة(٦):

وأرى بمروِ الشاهجانِ تنكرتْ
أرضٌ تتابعُ ثلجُها المذرورُ
إذ لا ترى ذا بزّةٍ مشهورةٍ
إلا تخالُ بأنه مقرورُ
كلتا يديه لا تزايلُ ثوبه
كلُّ الشتاء كأنه مأسورُ
أسفا على برِّ العراقِ وبحرِه
إنَّ الفؤادَ بشجْوِهِ معذورُ

فمشاعر السخط والاستنكار تؤكد ضعف الانتماء لهذا المكان الجديد، والعجز عن التكيف فيه، وهذه كلها مظاهر وسمات اغترابية وخاصة تحت ضغط السلطة السياسية وإصرارها على إجبارهم على استيطان هذه المناطق الجديدة، يقول أعرابي في ذم الأهواز أو الأخواز(٧):

لا ترجعنّي إلى الأخواز ثانية
وقعقعانِ الذي في جانب السوق
ونهرِ بطٍّ الذي أمسى يؤرقني
فيه البعوض بلسبٍ غير تشفيق
فما الذي وعدتهُ نفسه طمعاً
من الحصيني أو عمرو بمصدوق

وفي ظل هذه الظروف المناخية السيئة التي لا يقوى الرجال على احتمالها كانت دعوات الشعراء المجاهدين تستعجل العودة، وعدم الزج بهم في المهالك، فيقول مالك بن الريب مستعجلاً سعيد بن عثمان لإنهاء معاركه قبل دخول الشتاء(٨):

هبّتْ شمالٌ خريقٌ أسقطتْ ورقاً
واصفرَّ بالقاعِ بعدَ الخضرةِ الشيحُ
فارحل هُديت ولا تجعل غنيمتنا
ثلجاً يصفّقُهُ بالترمذِ الريحُ
إن الشتاءَ عدوٌّ ما نقاتلُه
فاقفلْ هديتَ وثوبُ الدفءِ مطروحُ

هذا هو «الجنرال ونتر Winter» [الشتاء] الذي هزم ألمانيا في تقدمها الكاسح لموسكو، والذي حذّر منه العرب قبل ذلك بقرون طويلة..

أجل لقد كانت الظروف البيئية المخالفة، والتغيرات الجذرية التي يشهدها الإنسان في ذلك العصر تدعوه إلى التعبير عن هذا الاختلال بين معايير الفرد وقيمه وعدم قدرته على التوافق مع الإطار الثقافي العام للمجتمع والمفروض عليه. ولذلك كان إحساس الشعراء وتعبيرهم عما يعتمل في نفوس الناس من معاناة مرآة صافية وصادقة لهذه الازدواجية، فكانت ألسنتهم وأشعارهم تحمل خلاصة تجاربهم الذاتية بعيداً عن التكلف والرياء، تغلب عليها صفات الصراحة والجرأة المعهودة في الشخصية العربية لتعكس حقيقة أزمة الفرد في ذلك العصر..

المراجع والهوامش

١. ديوان الصمة القشيري، جمع وتحقيق عبدالعزيز الفيصل ص٥٩، النادي الأدبي - الرياض ١٩٨١م.
٢. شعر عمرو بن أحمر الباهلي، جمع وتحقيق حسين عطوان ص٧٨، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق.
٣. المصدر السابق ص١٥٢
٤. سيد علي المرصفي: أسرار الحماسة ص٨٨، مطبعة أبي الهول، ١٩١٢م.
٥. معجم البلدان، مادة (همذان).
٦. المصدر السابق، مادة (مرو)
٧. البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد ٢/٤٧٢، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م.
٨. المصدر السابق جـ٣/٥٠٨.

شرح الكلمات:

دوسر: قلعة قرب الرقة على الفرات.
الأطهار: قرية في نجران.
فارز: رملة في أرض خثعم على سمت اليمامة.
الدوم: شجر يشبه النخيل.
المدبير: موقع قرب الرقة.
الركاء: واد في ديار بني عجلان.
الأخرمان: جبلان في ديار بني باهلة.
الملوان: الليل والنهار.
البليخ: نهر بالرقة.
التقائد: الفرس أو ما يؤخذ من العود.
البرسام: العلة وهو معرب. بر: الصدر، سام: من أسماء الموت.
النقرة: داء يصيب المعز.
المغرم: الدين.
* الأبيات التي لم تنسب إلى قائليها لم أتمكن من العثور عليها في المصادر الآتية: الزبيدي: تاج العروس.
البكري: معجم ما استعجم.
الأزهري: تهذيب اللغة.
ابن منظور: لسان العرب.

الآن في الأسواق

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

King Faisal Center for Research and Islamic Studies

قاعدة معلومات الرسائل الجامعية

الإصدار الأول ١٤٢١



مواكبة لتطور تقنية المعلومات الإلكترونية قام مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بإخراج أول إصدار لقاعدة دليل الرسائل الجامعية لوضعها في متناول الباحثين والدارسين على قرص مدمج :-

- يحتوي على معلومات توثيقية عن رسائل الماجستير والدكتوراه المسجلة والمناقشة لمعظم الجامعات السعودية وبعض الجامعات العربية .
- بلغ عدد الرسائل الجامعية المسجلة عليه أكثر من ٥٠٠٠٠ رسالة جامعية .
- يسهل الوصول إلى المعلومة ولا يحتاج إلى معرفة متخصصة لاسترجاع المعلومات .
- له عدة مداخل للوصول إلى المعلومة :-

اسم الباحث
عنوان الرسالة
الموضوع العام
الكلمة
التخصص
الجامعة المانحة للدرجة
اسم المشرف .

- يعمل على نظام ويندوز .

- يطلب من :

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

إدارة التسويق - ص ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ - هاتف ٤٦٥٢٢٥٥ ناسوخ ٤٦٥٩٩٩٣